

شعر البصرة

في العصر الأموي

دراسة في السياسة والاجتماع

تأليف
د. عمون الشريف قاسم

دار الثقافة
بيروت - لبنان

شعر البصرة
في العصر الأموي

شعر البصرة

في العصر الأموي

دراسة في السياسة والاجتماع

تأليف

د. عون الشريف قاسم

كلية الآداب - جامعة الخرطوم

دار الثقافة

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

810.93

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

1712

UNIVERSITY OF ABERDEEN LIBRARY	
LOCATION	Sudan
ACC. No.	198396
CLASS MARK	811.3

٨٩٤

البَابُ الْأَوَّلُ
مَجْمَعُ الْبَصَرَةِ

الفصل الأول

الحياة السياسية

نقطة البداية

اضطلعت منطقة البصرة بدور في حياة شبه جزيرة العرب قبل الإسلام شبيه بالدور الذي اضطلعت به دولتا غسان ولخم في علاقتهما بالامبراطوريتين البيزنطية والساسانية. فقد كانت غارات الأعراب في صحرائهم المجاورة متصلة على القرى والحاميات الفارسية في المنطقة، واتخذت شكلاً منظماً خاصة بعد النجاح الكبير الذي أحرزه بنو بكر بن وائل في موقعة ذي قار (حوالي عام ٦١١ م) حين هزموا القوات الساسانية في ميدان المعركة وأخذوا يغيرون على الأطراف الغربية من امبراطوريتهم^(١).

وقد لجأ الفرس قبلها إلى المصانعة والمهادنة في محاولة لكفّ شرّ هذه الهجمات المتتالية عليهم، فتعاملوا مع كبرى القبائل إلى جوارهم وهي بكر، فعينوا رئيسها قيس بن مسعود الشيباني حاكماً على منطقة الأُبلة. قال المرزباني: «وكان قيس عاملاً لكسرى هرمز بن أبرويز على طفّ العراقيين والأُبلة.. وكان قيس ضمين

١ انظر Cambridge Med. History, ii, 329 وما بعدها، الأغاني ١٣٣/٢٠ : دائرة المعارف الإسلامية

مادة «بصرة» : صالح المي ١-٣.

لكسرى أحداث بكر بن وائل، فتعبث بكر بأصحاب كسرى فحبسه ببيوان حلوان حتى مات في حبسه»^(٣).

ولعل قبيلة بكر كانت تسعى للقيام بدور شبيه بما كان عليه الحال في الحيرة. فقد ذكرت المصادر أنه «لما هلك النعمان جعلت بكر بن وائل تغير في السواد فوفد قيس بن مسعود إلى كسرى فسأله أن يجعل له أكلاً وطعمة على أن يضمن له على بكر أن لا يدخلوا السواد ولا يفسدوا فيه فأقطعهم الأبلّة وما والاها وقال: هي تكفيك وتكفي أعراب قومك»^(٤). ولما وصل المسلمون إلى منطقة البصرة عام ١٢ هـ (٦٣٣ م) «لم تكن يومئذ إلا الخريبة وكانت منازل خربة وبها مسالغ لكسرى تمنع العرب من العبث في تلك الناحية»^(٥).

وقد كانت المنطقة مألوفة لدى العرب من ناحية هامة أخرى. فقد كان النشاط التجاري الذي يتركز في فرضة الأبلّة يجذب القوافل التجارية العربية إلى هذه البقعة التي عرفها العرب في جاهليتهم باسم «أرض الهند»^(٦). ومن المرجح أن بداية سوق البصرة الشهير بالمربد ترجع إلى هذه المرحلة المبكرة في العصر الجاهلي. وكون هذه السوق تقع إلى ثلاثة أميال غربي البصرة على طرف الصحراء^(٧) قد يقوم شاهداً على أن نمو هذه السوق كان مستقلاً عن المدينة سابقاً لنشأتها. ومن الجائز أن السلطات الفارسية في سعيها لدرء خطر هؤلاء المتبدين من العرب وإبعادهم عن الاتصال المباشر بالمنطقة المأهولة قد حددت مكان السوق على طرف الصحراء بهذه

٢ المرزباني: معجم الشعراء ٢٠٠ - ٢٠١، دائرق المعارف الإسلامية مادة «بكر».

٣ الأغاني ١٣٢/٢٠.

٤ الدينوري: الأخبار الطوال ١٢٣.

٥ الطبري ٢٣٧٨/١، الحمداي: صفة جزيرة العرب ٢٠٤، ياقوت: معجم البلدان ٦٤١/١، دائرة المعارف الإسلامية (الأولى) مادة (الأبلّة). وتسمى أيضاً «فرج الهند» الطبري ٢٠١٦/١، ٢٣٨٠.

٦ ياقوت: معجم البلدان ٤٨٤/٤.

الكيفية، ومن ثمَّ عرفت منطقة المريد بباب البادية^(٧).

ولا بد أن العرب المجاورين للفرس، خاصة بني بكر بن وائل، كانوا - لخبرتهم الطويلة في الإغارة على أطراف الامبراطورية والتحرش بها - أسرع من غيرهم في ملاحظة الضعف والخور الذي بدأ يتسرب إلى استحكامات الفرس وأدوات دفاعهم على الحدود، ومن ثمَّ بدأوا يستأنفون غاراتهم القديمة على المناطق الغنية إلى جوارهم قبل أن تصل الحملة الرسمية للمسلمين بقيادة عُتْبَةَ بنِ غَزْوَانَ بفترة من الزمن^(٨). وكان قائد بكر في هذه الغارات المبكرة سويد بن قُطَيْبَة العِجْلِي^(٩).

ومع أن عتبة وصل المنطقة في سنة ١٤ هـ (٦٣٥ م) إلا أن مدينة البصرة لم تُشَيِّدْ كمصر - أي مدينة حدود أو ثغر^(١٠) - قبل سنة ١٧ هـ^(١١). وقد تمَّ اختيار موقعها على تخوم الصحراء بعد محاولات ثلاث باءت جميعها بالفشل وتعرضت فيها حياة الجنود للخطر والمرض لوخامتها^(١٢). وقد أكدت تجربة ثلاثة أعوام من القتال المتصل - كان معسكر الجيش ينتقل فيها من مكان لآخر - المخاطر الكبيرة التي تتهدد العرب من غرسهم أنفسهم وسط هذا البحر العظيم من السكان المعادين لهم. وكان واضحاً أن موقعاً على أطراف الصحراء أضمن للسلامة. إن دعت الضرورة للاتصال السريع بداخل الجزيرة لمواجهة أي خطر داهم على ساكني مصر^(١٣). وقد تحكمت الضرورات العسكرية في اختيار الموقع وما تلاه من خطط. فقد كان هدف العرب الأول محاصرة القوات الساسانية في المنطقة ومنعها

٧ انظر الطبري ٢٣٧٩/١، شارل بلا: الجاحظ (ترجمة ابراهيم كيلاني) ٣٣، المقدسي: أحسن التقاسيم ١١٧.

٨ ياقوت ٦٣٨/١، الدينوري: الأخبار الطوال ١٢٢.

٩ البلاذري: فتوح البلدان ٣٣٧ - ٩، ٤٧٥.

١٠ أحمد صالح العلي: النظم الاقتصادية والاجتماعية في البصرة ٣-١.

١١ الطبري ٢٤٨٦/١.

١٢ الطبري ٢٣٨٠/١، ابن الأثير: الكامل ٤١١/٢.

١٣ البلاذري: فتوح ٤٨٣ - ٤، ياقوت ٦٤٠/١.

من إمداد القوات الفارسية إلى الشمال والتي كانت تواجه زحف المسلمين الكبير على موقعها^(٩٥).

وكان من آثار نجاح المسلمين السريع في الشمال أن اندفعت القوة الصغيرة التي كان يقودها عتبة مهاجمة حاميات الفرس في الأبلّة واجبرت المدافعين عنها على الفرار. وكان قد انضمت جماعات من قبائل بكر وتميم إلى جيش عتبة^(٩٦). وما إن انتشرت أخبار هذا النصر المؤزر حتى تقاطرت أفواج الأعراب من كل حذب وصوب وقد استرعتهم أنباء الغنائم التي ظفر بها إخوانهم السابقون^(٩٧). وقد كانت قبيلة تميم المصدر الرئيسي لكثير من هذه الأفواج المتقاطرة من الأعراب فيما تذكر الروايات^(٩٨).

وكان العرب في غاراتهم الأولى يعتمدون على معسكرات متقلة؛ وما إن تضخم عدد المحاربين ومن انضم إليهم من رجال القبائل حتى بدأ التفكير في إقامة مصر دائم لتلبية حاجات المحاربين المتزايدة وتنظيم أمور الناس الذين أخذوا يتكاثرون بازدياد الفتوحات^(٩٩). وكانت البداية متواضعة، فضربوا الخيام والقباب والفساطيط، ولم يكن لهم بناء^(١٠٠)، ثم بنوا مساكن بالقصب منها المسجد ودار الإمارة وفيها السجن والديوان، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا بناءه^(١٠١). ثم استعملوا من بعد ذلك اللبن والطين وسقف العشب. وذكر الجاحظ: «أنه لما بنى عتبة بن غزوان وأصحابه بناء اللبن كتب

١٤ ياقوت ٦٣٨/١، الطبري ٢٣٧٧/١ - ٨.

١٥ ياقوت ٦٣٨/١.

١٦ الدينوري ١٢٤.

١٧ ابن الفقيه: البلدان ١٨٨.

١٨ ياقوت ٦٤٠/١، البلاذري: فتوح ٤٨٣ - ٤.

١٩ البلاذري: فتوح ٤٧٦.

٢٠ البلاذري ٤٨٣ - ٤، الطبري ٢٤٨٧/١.

إليهم عمر : قد كنت أكره لكم ذلك ، فإذا فعلتم ما فعلتم فعرضوا الحيطان وارفعوا السمك ، وقاربوا بين الخشب^(٣١) .

وكانت أبواب الغنى التي تفتتح أمام الغزاة كلما أوغلوا في مسعاهم حافزاً قوياً لسيل متصل من المهاجرين من كل أجزاء شبه جزيرة العرب عامة والمناطق المجاورة ، خاصة من البحرين واليمن . وكان المقاتلون يأتون أولاً دون نسايتهم^(٣٢) مما يوضح طبيعة هذه الغارات الأولى ونظرة العرب إليها كأمر عارض محدود المدى والزمان . ولكن سير الأمور وتشعبها غير من هذه النظرة ، وجعل اختطاط قاعدة ثابتة لضبط التحركات الحربية في المنطقة وتنظيمها أمراً ضرورياً كما رأينا . فبنى المسلمون سبع دساكر في الخريبة والزابوقة وبني تميم ، وفي الأزدي في بعض الروايات^(٣٣) ، ووزعت الخطط على الناس بحسب انتماءاتهم القبلية^(٣٤) .

ومن المهم أن يلاحظ الدارس هنا أن هذه القبائل التي انساحت تغزو وتغنم وتوزع عليها الخطط في مصر لم تترك في شك من أمرها حيال السلطة الفعلية التي تتحكم في سير الأمور في هذه الأصقاع . فقد انتهز عمر بن الخطاب أول فرصة سنحت له وعزل مجاشع بن مسعود السلمي الذي وضعه عتبة خليفة له قبيل مغادرته البصرة إلى المدينة إلى غير رجعة عام ١٧ هـ وعين بدلاً عنه المغيرة بن شعبة الثقفي قائلاً « لعمري إن أهل المدر لأولى أن يستعملوا من أهل الوبر ، يعني بأهل المدر المغيرة لأنه من أهل الطائف وهي مدينة ، وبأهل الوبر مجاشعاً لأنه من أهل البادية »^(٣٥) .

٢١ الجاحظ : البيان ٢/٢٢٦ + البلاذري ٤٨٤ .

٢٢ كان بين جماعة عتبة التي بلغ عددها ستائة ست فقط من النساء ، ياقوت ٦٣٩ .

٢٣ ياقوت ٦٣٩/١ ، ٦٤١ .

٢٤ الدينوري ١٢٥ .

٢٥ ياقوت ٦٤٢/١ : ابن الأثير : الكامل ٢/٣٧٩ - ٣٨٠ .

ويكن تصور البصرة لتحقيقي يرجع في أصوله إلى ولاية أبي موسى لأشعري التي امتدت من عام ١٧ هـ إلى عام ٢٩ هـ (٦٣٨ - ٦٥٠ م) مع توقف لعدم واحد بين عامي ٢١ - ٢٢ هـ (٦٤٢ - ٦٤٣ م). وقد كان اجتماع كل هذه القبائل في مكان حصري واحد تجربة مثيرة بما تطورت عليه من احتمالات مصداق واشفاق بين هذه المجتمعات المتنافرة ولوقع أن جدّة النزع كانت قد بدأت ترتفع قبل وصول أبي موسى لأشعري إلى البصرة كما يفهم من النكتات التي ذكرها عمر لأبي موسى وهو يعينه وائياً على البصرة قديماً^(٣٦) في أعين بني أرض قد ماض بها الشيطان وفرح وأنرم ما تعرف ولا تستدل فيستبدل لك ذلك^(٣٧) ونرى أبو موسى المسحود والإمارة بالأسس وطير، وعُمرست محل لأول مرة، وكان أبو بكره أول من عرسه^(٣٨) وشبحت الأراضي التي يست من أرض نحاح للأفراد بررعوها بموافقة الخليفة عمر^(٣٩). وبدو أن الرغبة في حيازة الأرض وزراعتها كانت من بقوة بحيث صغر خيفة أن يكذب بني أهل البصرة لما سمع أنهم قد تخلو أصبح وعمروا لأرضين لا نهكوا وجه الأرض قبل شحمتها فيه^(٤٠).

ومن هذا التطور الحصري وسع يقف في تعقد في عهد المقدرة بشاة تقاعدة عسكرية التي كانت عينيها خدمة لأغراض الحربية لنجوش الغارية ومن وضح أن قسماً كبيراً ومهماً من ستفروا بالبصرة شرع منذ بدايه في إقامه أسس ثمة لمحاصرة حصرية مستقرة لا تؤثر عليها تحركات الحيوث التي تخرج بعرو. ومع أن المدينة صحت تحفظ على طبيعتها ووظيفتها العسكرية لأكثر من قرن، إلا أن هذا القسم المستقر من سكان ولدي لم يتأثر كثيراً بموجات الهجرة لميادين

٢٦ الطبري ٢٥٣١/١، ابن سعد: الطبقات ١/٤ ص ٨١.

٢٧ ابن الفقيه: البلدان ١٨٨.

٢٨ البلاذري: فتوح البلدان ٤٩٠.

٢٩ الحافظ: البيان ٢٢٦/٢.

عند وراثة في أرض فوسع عبيد يا أمير المؤمنين وردنا وصيفة تؤمنف عبيد ونعيش
 ١٠٠. مصر بن مازم التي كانوا بها إلى أن صاروا إلى ححر فبعضهم وأقضعهم.
 وكان لما كان الآن كسرى فصار فينا بها بين دجدة والححر واقتسموه^{٣١}.

قبائل العرب بالبصرة

وقد مترحت الحوالب مدينة من حيدة بصرة نحوائها عسكرية بحيث أصبح
 لنصل بينهم من صعوبة تمكن عظيم. فقد كان ازدهار الحجة الحصرية المطرد
 يعتمد بن حد كسر على مدخل الناحية عن شتوح الحديدة. وطل عادية سكان
 عرب. كم سبتصح بعد قيس، يابون عطاء متصلاً من بيت مال وابن ف يشركون
 في دفع فعلية في مبادئ القتال ولكن هذا العطاء كان يصرف لهم مقابل
 استعداد القبائل المحتقة لإمداد الجيش بالمحاربين متى طلبت منهم السلطات
 ذلك وقد ضمن هذا النص مدد متصلاً من الخوادم المحاربين الذين كانوا يدفعون
 - انزحف للإسلامي خطوط بن الشرق. وصمم في نفس الوقت سبلاً متصلاً من
 الأمور التي كانت تساهم في بناء المجتمع الحضري المتطور في مصر ونعم
 وحسب في هذه شائبة في شخصية بصرة تفسير صفني لتاريخها العاصف مليء
 - تدرت وحروب وألقه هذه القدائل البدوية من الانصياع لسلطان مركزي كاست
 لدولة حربية عن فرصة. فوتم سياسة نفس الدولة التي طلت تحافظ على التمسك
 التي لأعرص حربية ومالية وقد أضفى هذا التقصص باليق على شخصية البصرة
 حيوية دافقة ومنحها روحاً متمردة نائرة.

وكان طبيعة التكوين السكاني أثراً على حد امدية فمعظم من استقروا
 في مدينة وما حاورها كانوا من قذال شرق جزيرة العرب مثل تميم وكنانة وعبد

نقيس ما ثاروا على سلطة الدولة المركزية بعد وفاة الرسول ﷺ . وهذا يفسر في حد كبير استمرار الكثيرين منهم في تحدي معظم جهود الدولة تكسر شوكة منافس القبلي داخل مصر . وبما لا يدون ملاحظ في هذا المجال أنه على الرغم من أن الاحتكاك القبلي كان دائماً حضراً كما حتى في أيام عمر بن الخطاب لأبي ٣٢ . إلا أن تأثير الإسلام على العلاقات بين القبائل كان بعيد المدى وما حدث بعد حروب الردة حين أكدت حكومة المركزية في المدينة موقفها بفرص سلطاتها على القبائل المتمردة لم يكن أكثر من وحدة سكانية قامت بين هذه القبائل واستمرت حتى معن عثمان في عام ٣٥ هـ ٦٥٦ م . وكان لشعر الحماسة بقوة - التي استقطبت عواطف العرب ودفعتهم بذلك لحصول الأمور صورية سياسية - مفعولها الكبير في حمل هذه القبائل على نسي خلافاتها ببعض وقت ومع أن معظمهم لم يكونوا مدينين إيماناً دقيقاً بتفاصيل دينهم الجديد إلا أن حرطهم في جيش واحد بحرب باسم الإسلام وبتنقي أمره عن سلطة مركزية في مدينة كان في حد ذاته مفهومًا ثورياً سيغير مع الزمن وجودهم تعبيراً شاملاً وليس كان تنظيم الجيش يقوم على أساس الانتماء القبلي وذلك بوصف أفراد قبيلة المحاربين تحت قيادة قائد منهم . وإن لقيادة لعامة كانت في يد الحقيقة أو من بيوت عنه من قادة لعسكريين . وكانت قبائل المختلفة تحارب لا لتحقيق عديتها هي في مكان لأول كما كانت تفعل في ماضي . وإنما لتحقيق عديتها مع وتكمل هي مصدحة الجماعة الإسلامية التي تعبر عنها لخلافه . ولذلك تدارج العرب عن معيهم وسلطانهم وأصغر أنفسهم لسلطة دولة مركزية وأصبحوا يعملون كجزء منها . وتمثل هذا أنهم لصيغة علاقاتهم بالسلطة يصبح احتمال عث جديد "القبيلة على أساس الحاشي لقديمه حتمالاً بعيد الوقوع . وقد سعى الإسلام لإزالة بعض الأسباب التي كانت تدعو إلى المنافسة والحرب . فحصر في ولاءهم بالتدريج من

٣٢ عر لملاحظ - انبار ٢٣٣٠٢ حيث بشر في وصوح إلى لاحتكاك بين القبائل في خطاب إلى أبي موسى الأشعري ينصحه فيه بمعاينة المعتدين .

لقبيلة إلى الدولة وقسم الغنائم والأعطيات بينهم فتمتضي أسس عادلة تخضع
لنظام مالي صارم .

ونكر لقبلية م تلاش . وإن نجحت صروف الجديدة في تعييرها ونظويرها .
فقد - رت - إلى توحيد قبيلة جديدة في إطار إسلامي تحدة بحلاقة في الاعتبار
كقوة متوحد وترصد من حاسب ، وكعظمة لسراع وانصراف من جانب آخر ، ولكن
مدى نجاحها كان على وجه العموم محدوداً بعض عوامل السياسية والاجتماعية
والدينية النابعة من نمو الدولة الإسلامية وتطورها .

مقتل عثمان وآثاره

مثل هذه الأفكار العامة عن الوحدة الإسلامية بدفعت قتال العرب إلى
سرق وسكن بعضها بصره . وكنت سياسة عمر بن خطاب واضحة في أمر
مدغوى إلى الحذلية والقبيلة وأحد مدغوى إليها بالحزم ، وقد سمعت الإشارة إلى
حصاه لأن موسى الأشعري في ذلك . وقد كانت لجهود مشتركة لتي سدا الأفراد
من مختلف القبائل في الجيوش الموحدة التي كانت تبعث من البصرة ، والعلاقات
متددة بين مختلف المحسوعات داخل مدينة نفسها مدغوى من روح التآزر
والتكاتف بين ساكني المصر .

وكان هناك تصور بعينه يتدرج مع الزمن وقد بلغ عتق عمر في ٦٤٤هـ ٢٣
قمته فقد بدأ تدفع نفوى مدغوى أصراف لأمير طورية يحدث أثره على شبه جزيرة
العرب عامة وعلى المدينة سورة حصية . وحدثت لأمصار زبدة الشعب العربي
وأحدثت ذلك مرعاً هتلاً في قلب جزيرة العرب وبعد أن أصبحت هذه لأمصار
مراكز لبقوة عسكرية صارت مسندة القوة الحقيقية في الأمر طورية ويستتب
ذلك حصاً عظيماً من نفوذ مدينة الرسول بحسبها مقر لحكومة المركزية وقد
أردد موقوف شديدة ضعفاً باعتمدها المتريده على التدخل لدى كان يأتيها من لأمصار

حصّة عرق وقد عزّر ذلك من مركز لأمصّر وقلب ميرن تقوى نصالحه وهو وضع لا بد أن تسنعه في الوقت المناسب^{٣٣}. وقد كان لنظام عمر مديق ومبسنه حارمة أثرها كبير في تقدي كثير من المشكل أو تحيل صهورها بعض وقت وكنت انقصابا بني وكنت تصور الدولة في بداية عهده أقل حدة. وهو أمر طبيعي في كل البدايات .

وفي خلافة عثمان (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م) برزت كثير من الميول ونسب التني كانت تحتدر وتنحس طريقتها إلى ظهور فقد س دولاب العمل "الحكومي" يصحهم ويتعقد. وكنت حدود لأمر صورية تتسع بقدر بقوق الإمكانيات الإدارية للدولة في مدينه وقد بدأت مشاكل وملتق التي كان لعرب يوجهونها في ماضق استقرارهم الجديدة في الأمصار تظهر في أبعادها الحقيقية. وكان لا بد من تقديم حلول العجحة ها. وأهم من ذلك أن جيوش مسدين كانت نواحه مقاومة متزايدة في رحمتها إلى الشرق. وأصبح تحقيق نجاح في مباديں يقتال باهظ الثمن .

وبعد كان لبعض إخراجات عثمان أثرها على سير التطور عام بالأحداث. إذ ردت لصعوط وانزوت سحمة عن التحول لاجتماعي والسياسي حدة وعنف ففكرة ربيعة لإسلامية بني كانت تقوم مقام السباح لأمراضورية وتمثل نصمد موحده تعرضت في رمة محد حظير من ترايد قوة قريش عامة وبني أمية حصّة. ومن ثمّ تعرض ميرن المدي المديق الذي كان يضم علاقات قبائل العرب لهرة فقد وضع أن هذه القصة وهذا المزع مبه يستغلان جهد اجتماعي لمصحتهما^{٣٤} .

٣٣ انظر في ذلك طه حسين: القصة الكبرى .

٣٤ هجر عمرو بن معدى كرب شاعر اليمن وفارسها عن سحق العرب على تغول قريش حين خاطب عمر بن الخطاب بقوله :

وفي عام ٢٩ هـ/ ٦٥٠ م أبدل عثمان أبا موسى الأشعري بابن خاله عبد الله بن عامر . وفي عهده اشترك أهل البصرة في فتح إصطخر وفارس وخراسان وسجستان وبلغت حدود الدولة الإسلامية ما وراء النهر .

نظام الأحلاف القبلية

كان الوضع القبلي في البصرة بعد مقتل عثمان بعد ما يكون من الوضوح ولأحلاف بين مجموعات المختلفة كانت تبدو وكأنها وبلدة تصعط بحوادث التي تسببت عن البصرة أكثر من كونها نتائج لخط سياسي واضح . فمع أن البصرة عرفت بنأييدها الكبير بعثمان وكانت مقر أنصاره من عثمائية^(٣٥) إلا أن موقف جماعات فيها لم يكن موحداً وكان اميكل يميني بعدم دخل المدينة ودن بأحد شكبه النهائي . وحملت اسماءات قبائل ومروء حسب أصولهم المشتركة تقسيم المدينة بين خمسة مدائق قبلية عرفت بالأحماس ومع أن اصطلاح الخمس والأحماس ظهر لأول مرة قبل وقعة صفين (٣٧ هـ ٦٥٨ م)^(٣٦) ، إلا أن تقسيم فعلي حدث في أغلب الظن قبل ذلك بكثير . فكان خمس نجيم وخمس أهل عالية يمثلان القبائل المصرية ، وكان حمسا بكر وعبد شمس يمثلان القبائل الرعية في حين كان خمس الأزدي يمثل القبائل اليمنية^(٣٧) .

وكان عام ٣٦ هـ/ ٦٥٦ م حدثاً فاصلاً لا في تاريخ البصرة وحدها بل في تاريخ

إذا قتلنا ولا يبيكي لنا أحد قالت قريش: ألا تلك المقادير !
 تُعطي السوية من طعن له فخذ ولا سوية إذ تعطي الذنانير عقد ٢٩٨/١
 ٣٥ مفر عقد الصريد ٢٨٠/٧ وقد كان هذا المصطلح يدل أولاً على الجماعة التي كانت تناصر الخليفة
 عبور وتدمع عن حقه ، ثم تطور مع الزمن وأصبح عموماً مذهب مسمي ديني كتب عنه الملاحظ كتابه
 المشهور «العثمانية» .

٣٦ انظر نصر بن مزاحم : صفين ١٣١ ، وانظر أيضاً الطبري ٣٤٥٥/١
 ٣٧ انظر بلا (الفرنسية) ٢٢ - ٣٤ لتفصيل أوفى عن الأحماس .

لإسلام كنه. إذ وقعت عليه مصر ما خلا بني سعد من تميم مع قبيلة الأزد اليمنية
تناصر عائشة وسموا عثنية هذا نسب. بينما وقعت أعسة ربيعة من بكر وعبد
لقيس تناصر علياً. ومع أهمية الاعتدال الديني وبروره إلا أنه لم يكن اسبب لأساسي
وراء هذه التكتلات. إذ كان لمصالح خاصة لقبائل والجماعات نصيبها الكبير
في تحديد الموقف وسنحط منذ هذه المحطة استمرار بعض عادات الجاهليين
وحياة عرتهم مما أصبح له قوى لأثر في تشكيل نوصع انسياسي عامة ففي
لوقت ندي دفع الراعي يديي فمة من لأفرد ليقيموا موقف جدد من الصرع نديم^{٣٨}
دفعت روح لتكتف قتي بني سعد من تميم برئاسة الأحف بن قيس لوقوف عيدا
عن كلا معسكرين متحاربين مع أهم كانوا من عثنية^{٣٩}. وذلك لأن نصير
عثر صير حجة حرقوس بن زهير من بني سعد الذي اصطلح بدور كبير في
قن حبيفة عثمان وحارو أحدهم وبنك حازوا عن تحلف قبلي تكبر الذي
بني كانوا يرتبطون به وقد شعرت ربيعة (بكر وعبد لقيس) بالخطر دحق
بكم في النقاء مصر ولأرد حين تصدت قواتهم لسفر استمئة الذين حرحو
من نصرة على عثمان وقتلهم مئة قتلة^{٤٠} وقد أظهر ضجة وزير تفصيدها لمصر
حين حصدها على الأعصاة وحررو ربيعة بني قنلت ذلك دهجوم على بيت
س. ولكنها ردت على أعقابها وقد تكبدت كضم الحسائر^{٤١} وبنك أصحت
بكر وعبد لقيس بعد موقعة لرتوقة قبل وصول علي في حكم المهي من النصرة، وكان
عليهما أن ننظرا وصول علي حارج النصرة^{٤٢} وقد حدثت هذه لموقعة التي حدثت
دخول مدينة شكل التكتلات القسمة في موقعة الجمل. وكانت تقسام نصرة

٣٨ انظر ابن سعد ١/٧ ص ٨٢ ؛ ٢/٤ ص ٢٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ١٧١/٣ .

٣٩ الطبري ٣١٣١/١ ؛ ابن الأثير ١٧٨/٣ .

٤٠ الطبري ٣١٥٦/١ .

٤١ الطبري ٣١٣١/١ .

٤٢ ص ٢٢ .

في معسكرين متحاربين، ربيعة في مقابلة مضر ولأرد، ولكن هذا الانقسام لم يسع من لحظة ملءاً تنقلص معه بعض عوامل الهدنة الأخرى التي كانت تعمل في ذات الوقت وانتهت. كما سيوضح لنا، بانقسام كثير من قبائل الكبرى مما زعزع من روح التكاتف الجماعي الذي كان يصل بينها^(٤٧).

وكانت معركة حُمل (٣٦ هـ/٦٥٧ م) لبوثة بني نقيت عندها جمع العاصر وتشكل بعدها بمودح لعقد لانتقاء قبائل نصرية وتحالفها الذي استمر خلال عهد الأموي. فهي لبقة بني كانت نقاش فيه تحارب الحجاب دون الآخر بحسب موضوع عام كأمير بحلقة، كانت تسعى بشنن طرق ولأسانل لتأمين مصالحها خاصة. وكان لا عذر لأول في منصرفه لأي من الحسب المتنافسين على بحلقة مع الحدة التي يمكن أن تحببها من تناصره في حابة فوره بالحلقة وكان مدى لثقل في حيار القبائل بالأحلاف نقائمة تعبيراً صادقاً عن تدهر المصالح للمجموعات المختلفة وتناقضها داخل المدينة.

ونتهت هزيمة عائشة وبصريه من أهل البصرة بوضع المدينة في يدي علي بن أبي طالب الذي عين عبد الله بن عباس والياً عليها وكانت النتيجة مباشرة لهزيمة هرب بعض العثمانيه للجزيرة التي كانت في سيطر معاوية^(٤٨) وحيار عدد كبير من بصريين لعلي حصة بني سعد الذين كانوا قد وقفوا قبيلها على حيد^(٤٩) وفي موقعة صفين (٣٧ هـ/٦٥٨ م) وقف ممثلو الأحباس البصرية تحت قيادتهم بن حبيب علي^(٥٠). وقد خرج نقراء الذين سسمع عنهم بكثير - من هذه المعركة مجموعة متميزة بقيادة مسعر بن فدكي^(٥١).

٤٣ الطبري ١/٣١٦٨ - ٩ : ٣١٧٨ ، ٣١٧٩ ، انظر ص ٢٥ - ٢٨ من هذا الكتاب .

٤٤ صفين ١٦ ، ٣٩ .

٤٥ الطبري ١/٣٤١٤ .

٤٦ اللبنوري ١٧٦ ، صفين ١٣١ - ٢ .

٤٧ صفين ٢٣٥ ، الطبري ١/٣٢٨٣ .

وكانت معركة صنب من أعنفها من مهرة التحكيم وما نجم عنها من مجزة
 يهرون التي قتل فيها حجاج وكان معظمهم من نبصرة^(٤٨)، مما أكد اقتناع كثير
 من عرب أن صراع بني كندة بدور من أجل الخلافة كان صراعاً لصالح هذا
 فريق من قريش أو د. وقد وصح فتور أهل نبصرة عمدة حيان هذه القضية
 في تردد وامسح كلا عنابة ونصار عي من الاستحسان إلى الخاب الذي دصروه.
 فلم تسبح بداءت عي متكررة لأهل نبصرة مدته بالمحاربين إلا في حدث ما يقرب
 من ثلاثة ألف محارب من حملة لستين ألف محارب الذين كانوا بانبصرة كما
 يذكر ابن عباس ولي عي على النبصرة^(٤٩) وفي عام ٣٨ هـ ٦٥٩ م بعث معاوية
 عبد الله بن الحضرمي إلى نبصرة لإثارة أهلها على عي^(٥٠) ومع أن هذه الحادثة
 انتهت بإحراق ابن حنظل^(٥١)، إلا أن أهميتها المعينة كانت في تضييق ذر
 صراع قبلي وتوسيع شقة الخلاف بين الأصناف المختلفة فاعثمانية من مضر
 ولأبد كانوا منقسمين في موقفهم حيال ابن الحضرمي. فنهض عي هو قيس من
 مضر لميل رعيهم فصعدت بن قيس لعلي، يسما ناصرتهم تميم فصرية لأنه لح
 بينهم وصب منهم الإحارة أم ربيعة التي كانت ناصر علياً من قبل فقد منعت
 عن نبصرة زياد بن أبيه نائب بن عباس ومثل علي لأن زعيم بكر مالك بن مسعود
 كان يمين إلى بني أمية^(٥٢). بينا أحارت الأردن - التي كانت محالفة لعلي - زياداً
 لأنه لحا إليها للإحارة^(٥٣) ودصر أبو سعد - ندين كانوا على حيان من قبل -
 الأزدي لأن زعيمهم جارية بن قدامة رأى في ذلك صلاحهم^(٥٤).

٤٨ الطبري ٣٣٨٢/١ انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة الخوارج وخط Watt I ٩٤-101

٤٩ الطبري ٣٣٧٠/١ - ١ .

٥٠ نفسه ٣٤١٤ .

٥١ نفسه ٣٤١٥ - ٧ .

٥٢ نفسه ٣٤١٤ .

٥٣ نفسه .

٥٤ بن الأثير ١٥٦/٣ - ٧ : الزهري ١٧١ - ٧ .

وهكذا انتهت حرب الإسلام لأهبة تكبد دور قبائل في صراع من أجل خلافة وندّ نظرها بصرف إلى هذا موضوع من إاوية مصالحتها لقبليّة. وكان عدم لحظ السياسي الواضح الذي يسيطر على حو مدينة وبكسها صرناً من يتوحّد. كما كان الحول في الكوفة أو شام أو الحجاز مما دفع بصرة إلى حماة صرع وجعل منها مسرحاً لولاءات المتنافرة أصبح بعده حفظ الثور بين قبائل داخل مدينة من صعوبة يمكن عظيم. وقد أدى اشغال أهل بصرة بقصديهم الداخلية وصرعهم حو إلى تقيص شترتهم فعاد في قضايها عصر كبرى. وكان تطور داخلي لمدينة يحدث مشاكله الخاصة. ولكنه كان في نفس الوقت تحت ظروف مؤتية لمواصلة إقليمية موحدة تتحصى سيج اضيكن القبلي القائم .

العصر الأموي

شهد عهد معاوية ويريد (٤١ - ٦٤ هـ ٦٦١ - ٦٨٣ م) إقرار اسلام ونظام في بصرة بعد فترة ولاية عبد الله بن عمر القصرة (٤١ هـ ٦٦١ - ٦٦٤ هـ) التي تسمت بالهوصي وتشار الفساد^(٥٥) وحضع المصر في زمن ريد (٤٥ - ٥٣ هـ ٦٦٥ - ٦٧٢ م) وبه عيّد لله (٥٣ هـ ٦٧٢ م ٦٨٣ م) لإجراءات دربية حرمة غايتها وضع حدّ لكل أنواع شمر وحرور على سلطة حكومه وكان هذا يعني في المقام الأول إخضاع قبائل وتقسيم ظاهرها تبعها من إحياء عدتها بصحراويه القديمة في تحدي السلطات ونحوها قووين لدولة ولم تكن تلك النهضة هينة. وقد كتبت محاولة إدارتها بهط الأئمة^(٥٦) وكانت حصّة

٥٥ الطبري ٦٧/٢ .

٥٦ من الأثير ٣٨٤/٣ حيث يذكر أن سمره بن خديك نائب ريد قتل ثمانية آلاف رجل في سنة شهر ربيع الثاني ١٠٠ هـ تكوي بنت ريثاً فقال أو قتل معهم مشهم ما حشيت وقال أبو سؤر العدوي قتل سمره من قومي في عداة واحدة سبعة وأربعين كلهم قد جمع القرآن. وركب سمره يوماً ألفي أوائل =

رياد من أبيه الشهيرة^{٥٧} دليلاً حياً على مبيع القوصى والمعحر الإداري منه بني
صابت إليه البصرة منذ وقعة الحمل عام ٣٦ هـ ٦٥٧ م وقد بدأ ريادة مصر
بحصر الماء على مدينة وحتمكم إلى السيف في حانة كل مخالفة. وقد أتى هذا
العنف الإداري أكله مع رومن. يد ساعدت فترة العشرين عاماً من الرقعة الإدارية
نصيرته على وضع بصرة في صريق التقدم لحصاري من جميع الوجوه. فنظرت
مدينته نظراً عصبياً في سكان وأثروة وثقافة. ووجهت المدينة صافاتها العسكرية
المشتركة لحرب الخوارج الذين كانوا يهددون حياتها.

ولكن موت يزيد الأول في عام ٦٤ هـ ٦٨٣ م وما تبعه من أزمة حادّة خلافية
أصق كل ما كان حبيباً في قلوب المصريين من عصب وحقد على سياسة الحكم
ولإذهاب التي كان يسكنها الحكم لأمويين في بصرة هرب عبيد الله من ريادة
من البصرة. ووقعت مدينة مرة أخرى في أيدي القبائل. وكان هذا أصفى على الصراع
من أجل السلطة داخل المدينة بعداً حديداً زده تعقيداً ظهور عمل خارجي هام
في ميدان الصراع فقد بدأ النصر يحرق بانتدريج بن حمزة لحرقات قسبة بني
كاست يستمر في المشرق. وبدأ الميكان شرقي بني يعرب عنه حيرة أحمد مصري^{٥٨}
بسبب البصرة من قدر كبير من حريتها ومقدرتها على أخذ زمام المبادرة في كثير
من قضايا العصر فقد أحدثت لحرارات وأوجه لصراع التي كانت تقوم بين قبائل
مصرية في حراسن وهي مثل أعنية الجيش هناك. تترك آثارها على البصرة. وتفسد
علاقات بين المستقرين من مختلف فروع القبائل وقد أدى ذلك. كما سيسبب
بها فيما بعد. بن تقصص الأثر لعدم العصر منحصر الأخرى التي كانت تعمل

= حيلة رجلاً فتنوه مرة بتمه وهو تنحط في دمه فذل ما هذ قبل أضده أوّل جيلك فذل يد سمعته
ما قد ركبا هاتوا أستانا.

٥٧ الطبري ٧٣/٢.

٥٨ الطبري ١٢٩٠/٢ - ١ حيث يذكر أنه كان على أيام قتيبة بن مسلم ٤٠,٠٠٠ من أهل البصرة و ٧,٠٠٠
من أهل الكوفة و ٧,٠٠٠ من الموالي

في رفضه لإزالة نسب لنزاع بين ساكني مصر وهكذا أدت لأهمية متريدة لأحداث الحجة شرقية. والأثر لعديم الذي صدرت تحدثه على سير الأمور في الحصرة. بن صرف نصر مصريين مرة أخرى عن مسائل العامة ونوحيه كل ضدهم بالانحراف في صرعهم الداخلي. وقد قيل هـ . كما لاحض من قبل . من أهمية نصرة كقوة يحسب فاحساس في أي صراع كبير يتعمق موضوع خلافه

وقد دفع بعض أهل نصرة حكم بني أمية معصية لأطراف ندبة عبد الله ابن رستم^{١٥٩} وأقروا عبد الله بن لحارث الهاشمي وبني عليهم^{١٦٠}. ولكن الأحداث في خراسان تحدث تنقي بطنها الكثيف على حياة البصرة في هذه فترة عالت قد وقع عبد الله بن حرم السلمي مصري من قيس ربيعة في هرت وهرمهم هزيمة منكورة^{١٦١}. وقد أحياء ذلك العدو القديحة بين عرعي عدى ربيعة ومصر وكان إذ لمع مباشر ذلك أن حمل مصريين من مصر وربيعة سلاح وتهاو بعد انتصار لإخوتهم في خراسان ولكن قوة مصر وعلى رأسها قسمة تميم الكبيرة كانت تدفق قوة ربيعة. فاضطرت ربيعة لاجء بن لأرد ضامة الحصرة وتحدد الخلف قدسهم الذي كان قائماً بينهما في الدهلية^{١٦٢}. وهكذا تحدد لحلف بين بكر بكر فروع ربيعة ولأرد. وحاربت قوتها المشتركة تميم وحلافها لمدة تسعة أشهر^{١٦٣}. ونسحت مسرحاً للحرب والدمار والسلب والنهب وميراث وعوصى شاملة. وتتهر لآرقة من الحورج الذين أضيقوا من سجون نصرة^{١٦٤} الفرصة فوجهوا بن المدينة صربت عيفة ردت نسيء سوء ودق جميع لأطراف لأمرين عن يديهم

٥٩ البلاذري: أنساب الأشراف ١٨٨/٥ .

٦٠ الطبري ٤٤٤/٢ ؛ الدينوري ٢٩٢ ؛ انقائض ١١٢ .

٦١ ابن الأثير ١٣٠/٤ ؛ انقائض ٧٢٧ .

٦٢ الطبري ٤٤٩/٢ - ٤٥١ ؛ انقائض ١١٣ ، ٧٢٨ - ٩ .

٦٣ البلاذري: أنساب ١١٥/٤ .

٦٤ الدينوري ٢٩٢ .

وشغل الناس ثمر حورج الذين صعد حصرهم على كل مديح سوه. وقد كانت حدة هجماتهم المرادة التي أصبحت تهدد وجود النصر كمنصر هي التي جعلت موقف المعارك بين أطراف النزاع في البصرة. وقد ضاعف انتشار وباء عنيف في هذه الفترة من سوء الأحوال^(٩٥). واستجد أهل بصرة بعد الله بن الرزق الذي بعث إليهم بالحدوث بن عبد الله الملقب بالقصاع ولياً عليهم^(٩٦) وتم الصبح بين الأضراف المتحاربة وتوجهت لجهود تحريك الأربعة. وكان يقود أهل البصرة المنهب بن أبي صفرة وقد سبغت هزيمة لمحتار ثقفني في الكوفة عام ٦٧ هـ/ ٦٨٦ م^(٩٧) بخضوع كل عرق لسلطان مصعب بن زياد. يسما وصفت معركة مرج رهط بين كلب بمنية وقيس مصرية كل نشام تحت إمرة عبد الملك بن مروان ومناصريه من أهل اليمن وأصبحت لمواجهة بين المصاليين بالخلافة من الرزيين والمروانيين قرب قوسين أو دى وكعدة أهل مصر ثم يكن موقفهم حيار هذه الأحداث موحداً. ومع أن معصمهم ناصر مصعباً على المختار ثقفني وبايع بن الرزق، إلا أن عدداً منهم تذكر ذلك حين دخل حديد بن عبد الله بن أسيد بصرة من وراء مصعب يدعوا الناس بني أمية^(٩٨) وقد دخل قبيلها بعض كبار حالات البصرة في مفاوضات سرية مع عبد الملك^(٩٩) ولكن جميع هؤلاء لم يقو بما عهدوا عليه بني أمية من تقديم دعوى ملكيية لشعبية خارج البصرة حين هجمها مصعب وهزمها في موقعة الجفرة عام ٧١ هـ/ ٦٩٠ م^(١٠٠).

وقد باغت محاولة الأمويين بالمثل لأن خلافتهم أهل البصرة لدالية قد

٩٥ الطبري ٥٨٠/٢ ؛ البلاذري: أنساب ١٢٣/ب٤ ؛ ابن الأثير ١٧٣/٤ .

٩٦ البلاذري: أنساب ١٨٨/٥ ، ٢٢٠ .

٩٧ الدينوري ٣١٢ - ١٤ .

٩٨ الطبري ٧٩٩/٢ ؛ البلاذري: أنساب ١٥٥/ب٤ .

٩٩ البلاذري: أنساب ٢٨٠/٥ .

١٠٠ الطبري ٨٠٠/٢ ؛ ابن الأثير ٢٣٥/٤ ؛ البلاذري: أنساب ١٦٠/ب٤ - ١ .

صحت على موضوع النزاع الأصلي. إذ وقف التميميون يناصرون عبّاد بن الحُصَيْن تميمي بلدي كان قائماً على شرطة ابن معمر نائب مصعب في البصرة. وبصر لريحون والأزد ملك بن مِسْمَع رعيم بكر الربيعية الذي أحرر حالد بن أسيد مبعوث بني أمية. واستمر القتال بين الطرفين أربعين يوماً قبل أن يتفقا على إبعاد حالد من البصرة كحل وسط للصراع^{٦١}. ومن انهم أن ملاحظ هذا أن التميميين لم يناصروا حليفينهم البصريين تميم كما فعلوا من قبل أيام فتنة عام ٦٤ هـ حين وقفوا بحزبها يحاربون قوات ربيعة والأزد مشتركة وقد جاء هذا الانقسام في الصف البصري بالبصرة نتيجة لما كان يحدث في حراسان من صدام. وقد تحكمت نفس العوامل لأولى بني أحدثت انقسام أهل البصرة إلى معسكرين كبيرين متنازعين في الموقف مرة أخرى. وحدثت انقساماً كبيراً في المعسكر البصري. فنفس عبد الله بن خازم القيسي الذي تسبب في إحداث لحظة الأولى عاد مرة أخرى يهاجم حلفاءه لسابقين من تميم الذين ردّوا الصراع فتنة^{٦٢}. وهكذا ردّاد الموقف السياسي في البصرة تعقيداً من جراء تحديث الجبل ومنذ هذه اللحظة يصبح الصراع الداخلي صراعاً بين أربع مجموعات هي القيسية والتميمية ولربيعية واليممية. وذلك أدق تعقيد مما كان عليه وضع السياسة الأموية عامة التي كانت تقوم على الصراع بين المعسكرين الكبيرين. عرب الحبوب من اليممية للذين تمثلهم كعب. وعرب الشمال من العدنانية الذين تمثلهم قيس عيلان.

وقد سهت هزيمة مصعب ومقتله عام ٧٢ هـ ٦٩١ هـ بوضع البصرة مرة أخرى في قبضة الأمويين الذين استعصوا بحلقات القيسية لصالحهم وقد وجدت سياستهم في التمكين لسلطانهم تشجيع الصراع القبلي وصرب سبب بعضهم بعضاً تربية حصنة في البصرة كما نرى من سير الأمور في ولاية بشر بن مروان القصيرة المدى

٦١ ابن الأثير ٢٥٢/٤ - ٣.

٦٢ ابن الأثير: الكامل ١٧١/٤ - ٣، ٢١٠، ٢١٢، ٢٨٢، الزهيري ١٧٨.

(٧٤ هـ ٦٩٣ م). وفي هذه الأثناء كانت هجمات الحوارج تزداد عنفًا وتشتد على حاكمين وعلماء على سوء. وكان مهلب يعاني من نقص رجال ويُعتد بعبرة بشر من مروان وسعيه بحيث لا يضل مساعاه وفصح قومه آل المهلب^{٧٤} وبرز موت بشر عام ٧٤ هـ ٦٩٣ م برداً وسلاماً على أهل البصرة الذين كانوا يحاربون الحوارج فنسب من مبادئ قتال في البصرة. وبلغ الحصار مسلماً دعى إلى حراة تكتت و"لعف التي طشقها لحجاج (٧٥ ٩٥ هـ ٦٩٥ ٧١٤ م) الذي حلف بشر وقد وقعت حطت الحجاج ضعيفة وقتل بعض من تكتت فعلها في نفوس الناس. ففرغ أهل البصرة فحرقوا حتى تداكوا على لعرض بقصرة مهترم. وقاتل المهلب حء ساس رجل ذكر " فيما يروي الطبري^{٧٥}. وقد الحجاج نفسه كنية يحيى - شهر لهلب ونكر معه لزيادة التي زده بن الربيع في عطيات الناس. واتى أقرب مصعب^{٧٥}. أثارت عليه ثورة أهل البصرة. فخرج عليه عبد الله بن الحارث من عند نفس في جماعة من وجوه قومه. وأصبح لحجاج على شفا اهلاك. فحدثت عصية قومه قيس في وقت مسس. وقدرته من موت محقق وأعلنوا لهم أن يدعو قيساً يقتل ويسب^{٧٦}. وقد أعطى ذلك الحجاج الفرصة لتنظيم قوته واصعد معارصه وهزمتهم وقتل رعمائهم^{٧٧}. وكانت هذه الثورة في حوهرها عكس بانفس الثقلي فقد رأت ربيعة ولأرد في توبة لحجاج انتصاراً لمصر. بينما رأت فيه تميم انتصاراً لقيس. وقد كان هذه الشكوك والمخاوف ما يبررها. إذ لم يخلص من برمن إلا التنبيل حتى دأل لحجاج على نحيه قومه ونقصيه إياهم على الآخرس^{٧٨}. وقد أصبح حلياً أنه لا يمكن انخافضة على سلطة

٧٣ شارل بلا ٢٧٠ ، Weilhausen - Arab Kingdom, 227-8

٧٤ الطبري ٨٧٣/٢ - ٤ .

٧٥ فقه

٧٦ ابن الأثير ٣١١/٤ .

٧٧ الطبري ٨٧٣/٢ - ٤ ، ابن الأثير ٣١٢/٤ - ٤ .

٧٨ انظر المبرد: الكامل (المصفي) ١٧٩/٣ - ١٨٠ مثال على هذه العصية المضربة .

الدولة إلا عن طريق سند قبلي قوي .

وقد أدت سياسة العنف التي سلكها جحاح وما نجم عنها من هزات اجتماعية ودينية إلى حاد تصبيله قيساً إلى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث عام ٨١ هـ/٧٠١ م ومهرجته سيطرت قيس على كل العراق وشرق سيطرة تامة. وسدد جحاح شحنة يزيد بن المهدي من حراسان ووضع فتية بن مسلم "الهلي" قيسياً في مكانه. وتعرض آل المهلب بالنعديب وسجن حتى عام ٩٠ هـ/٧٠٩ م. حين هربوا من سجنه واستحوذ سليمان بن عبد الملك حاكم فلسطين حينئذ. وشنع ضد سليمان عند الحنيفة فبيد فعفى عنهم^(٨٦). وفي هذه الأثناء بنى جحاح عاصمته في واسط بين نصرة والكوفة^(٨٧) ومن هناك أخضعت الحامية الشامية بقيمة كل المذاق التي كانت تحت سلطانه إلى أن توفي عام ٩٥ هـ/٧١٤ م.

وسهت السياسة الأموية باز أصبح الحنفاء في أواخر عهدهم رؤساء لأحزاب بعينها أكثر منهم حلفاء لأمير سورية موحدة^(٨٨). فاعلاء سليمان عرش بني أمية عام ٩٦ هـ/٧١٥ م أحدث انقلاباً تاماً في سياسة الدولة. إذ كان انتصاراً لحزب المهدي على حزب قيس. وأحدث هذا آثاره تبعيده على العراق وحراسان. وكان من نتائج أول نجم قيس بنى دامت سيطرته لأكثر من عشرين عاماً فقطت قوات اليمن وربيعة وتميم مشتركة فتية بن مسلم في حراسان^(٨٩)، وأعيد يزيد بن المهلب والياً على العراق^(٩٠)، ثم على خراسان عام ٩٧ هـ/٧١٦ م.

وما كان لجهود عمر بن عبد العزيز الذي جاء عام ٩٩ هـ/٧١٧ لإصلاح

٧٩ ابن الأثير ٢٠٧/٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ .

٨٠ الطبري ١١٢٥/٢ - ٩ .

٨١ انظر Hitti: History of the Arabs, 281 .

٨٢ الطبري ١٢٨٩/٢ - ٩٨ .

٨٣ نفسه ١٣٠٥

انحل وبث دماء جديدة في لحسد المنصب. أن يكتب في محتاج يد كل نفس
 قد استشرى بحيث لا يرجى صلاحه. فسجن يزيد بن المهلب، وجهد في صد
 نزار بن القلي جراف. ونكس دون حدود وبوفاته لبكرة عام ١٠١ هـ ٧١٩ -
 ٧٢٠ م صعد يزيد بن عبد الملك إلى عرش. وكانت أمه مصرية متعصبة لقومها.
 وتحت تأثيرها احتضن لحزب قيسي. وفي هذه الأثناء تكهن يزيد بن المهلب
 بما ندره له الأيام وما سكت له لحبيعة الحديد. فقلت من سجنه وهرب إلى عراق.
 وحدث الاستيلاء على أنصرة أمم مقاومة عنيفة من قيس وتميم. وأرت هزيمة على
 يدي مستمة بن سعد بن حطر بصر يمي في شرق لامرأطورية. وهو حطر
 حقيقي دفع بالأطراف المشاهدة من قيس وتميم لتسوية حلاقاتها مواجعة العدو
 مشترك ولكن علاقات بينها عدت إلى ما كانت عليه من شدة حين عي
 يزيد بن عبد الملك عمر بن هيرة وهو قيسي من فرقة ولياً على العراق وشتاق
 هشام بن عبد الملك عام ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م إلى محور اليمن تيبور نصرة واحتد
 بين معسكري عدن وقحطان. وعزل هشام عمر بن هيرة عن عراق ووفد به
 حاد بن عبد الله قسري من اليمن ولياً على العراق. وعلى حراسا عام ١٠٦ هـ
 ٧٢٤ هـ^(٨٤). وكان القسري متعصباً على مصر. فسجن سلفه قيسي ابن هيرة
 والشاعر التميمي نمرودق. وقتل عمر بن يزيد الأسدي^(٨٥). واضطهد أخوه أسد
 الكبير من مهم نخوس. وأمام هذا الحصر اشتد نفقت قيس وتميم مرة أخرى
 في معسكر مضرى وحالوا جهة اليمن ورسعة. وهدد بقتل شاعر كان نمرودق
 حين مدح ابن هيرة عنده هرب من السجن. وكان قد تعرض له بهجاء قبلها^(٨٦).
 وبصرف قيس إلى استعصفت هشاماً ليطبق سراح نمرودق. واتحد الطرفان في
 شكوى من سياسة سكت والإرهاب بني سار عليها القسري اليمني واستجاب

٨٤ الطبري ١٤٨٤/٢ .

٨٥ نفسه ١٤٩٥ .

٨٦ نفسه ١٤٩٧ - ٨ ابن الأثير ٥٦/٥ .

هشام لم يترك يعرف خولد نقسري عن حراسه. ولكن المصريين واصدو سعيهم حتى عزله عن العراق أيضاً عام ١٢٠ هـ/٧٣٨ م. واستعدت مصر مركزها القيدي بتعيين يوسف بن عمر الثقفي (١٢٠ - ١٢٦ هـ/٧٣٨ - ٧٤٤ م) والياً على العراق^(٨٧)، ومصر من سبار وياً على خراسان.

وهو نجح الكبير في مرون القوي الذي جعل من مناطق الغنية في شرق المركز عبي نشاط سياسي مما قلص من نفوذ المصرية وقصر دورها في توحه الأحداث على مجرد توريد صدى المعارك البعيدة. لم يكن يحبو من آثاره حميدة على تطور الحياة الحضارية في مصر^(٨٨).

٨٧ نفسه ١٦٥٨/٢ ، ١٧١٧ ، ١٧٢٥ ، ابن الأثير ١٦٣/٥ ، الزهيري ١٨٢ - ٣

٨٨ انظر عن الحالة السياسية الزهيري ١٦٩ - ١٨٤ .

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

قد وصح من عرصه نعلم لثيـرت سيـسية تي تعـورت على حية الجماعة
دانسرة مدى تعقيد والنصاع تي صاحت تطور المصـر ولازمت تقدمه لاجتماعي .
ونكر ذلك لا يؤخذ بمعرف عن لتطور اعم في المدينة، ولا خرج بحث صورة
هاتمة من صور لاضطراب اعم وفساد لا تتفق وواقع الحث . ولكي توضع بصورة
في إطارها الصحيح لا بد من اعتبار العناصر الأخرى التي أسهمت في نمو المدينة
مصدر رعم كل القوى تي كانت تقف في سبيل تطورها كمركز حضري

القبيلة في إطار حضري

وكانت عناصر البدوة والتقليدية التي صلت تعمل لخدم أسس لحياة المدينة
تضطر مع قوى أخرى حفية تعمل من حثها لإحداث التماهي والاستخدام داخل
مصر ، وكان نموذج هذه القوى التقليدية يتنصص مع ارمس بازدياد المتحضر والاستقرار
وقد تضمنهم عدد نسكن الذين كان يكفهم في بداية أمرهم لحم حرور واحد .
وتكثروا مع تيسع امتدحت وفي مدى عشرين عاماً تبع عدد من أديحوا في
ديوان ما يقرب من الستين ألفاً عند النساء والأطفال والموالي والعبيد^(١) ودا استثنى

١ ياقوت ١/٦٤١ .

٢ الطبري ١/٣٣٧ .

قمة من وجهاء قومه كصحابة الرسول وبعض كبار الشخصيات. فإن الغلبة
تعضى من هؤلاء قد هاجروا مع قبائلهم، واستقروا في مصر على أساس شنائهم
القبلي كما لاحظنا من قبل .

وبعد لاحظنا من قبل عبء عنصر العدائي البدوي الذي كان شديد التمسك
بعداته البدوية وعصبية قبلية، وفي هذا معارضة كبيرة لما كان عليه الوضع في الكوفة
حيث كانت أعبية قومه من فئدة بسمية الأصل بني ثعلبة بن حذاف ما فكرة
الخضوع المنظم للسلطة بحكم موروثة القديم^(٣) .

وقد أشرنا إلى أنه رغم تحطيط المدينة على أساس الأحياء لقبية فقد وصفت
سلطات إدارية في يد حاكم مصر الذي كان مسئولاً للحكومة المركزية .
وكانت لأحساس ذاتها نتيجة حتمية للظروف سائدة في مصر آنذاك. وكان
بلاغات إدارية والعسكرية أكثر نصيب في شأنها. إذ كانت من بعض
لوحده وحدات إدارية. مثل أسع كوفة، وعلى أساسها أيضاً قامت الوحدات
عسكرية. وكان على عرب تنويع مصهم بدوية لصروف الحياة المستقرة في
المدينة. وكان نظام « عشيرة » تقديم أداة صالحة لتطبيق العملي من ناحية
الإدارية ونسبسية. وقد تعدل إلى يناسب المفاهيم الإسلامية العامة وطق في مصر
هؤلاء عشيرة نسوة في الحقوق والواجبات عدم لقانون. فهم على سبيل المثال
يرثون من لا وريث له من أفراد عشيرتهم. ويدفعون لدية عن أي فرد منهم ركب
جريمة قتل غير متعمد. ولكن هذه المسئولية لا تتعدى أفراد عشيرة المدرجة أسمائهم
في ديوان الأعصيت بمصر^(٤). وكان معنى ذلك في واقع الأمر انحصار هؤلاء
عن حوامهم في الصحراء الذين يتمون إلى نفس العشيرة^(٥) وسنة لأن هجرة عشائر

٣ ماسنون: خطط الكوفة ١٢ - ١٣ .

٤ انظر الشيباني: الجامع الكبير ٢٠٩ - ٢١٠ ؛ أبو يوسف: آثار ٢٢١ ؛ صالح العلي ٣٠ .

٥ ابن سلام: الأموال ٢٢٧ ، Welthausen, Skizzen, iv, 25 .

ومما لم تكن منظمة فلم تتخذ هذه وحدات في البداية أساساً لتوزيع الأعطيات وكان التفاوت في عدد أفراد العشائر المختلفة نابعاً عن اضطراب حركات زعمائها لا تعد نظام العزوف أساساً لتوزيع الأمور فيوكل لكل عشيرة قدر من مال قومها على مستحقه وكانت الأمور تُسَمَّى برؤساء الأحباس (أو الأساق في كوفه) ومن ثمَّ يسلمها هؤلاء لعزوة ومساعديهم لتوزيع^٦. وقد أدى هذا الضرورة إلى تسيير قبائل كبيرة إلى وحدات صغيرة تلبية لمجتمعات لإدريّة لتوزيع الدخل

وكانت الموصى التي تعقبت موت عثمان قد بلغت درجة كادت تعطل سير المجتمعات وحالت دون شباب الأمور من المناصب الشرقية إلى نصرة وقد أعاد ريد تنظيم الإدارة في مصر بأن جعل عشيرة هي الوحدة فيما يتعلق بتوزيع الأمور. وعين عريضة مسئولاً عن توزيع العشاء لكل عشيرة. فطابق حديث مدين نظام دني وضوء لاحتاجي القائم على العشيرة والقبيلة وكان اعزوة مسئولين عن التوحيد إلى دعاة المدن^٧. إلى جانب مسئوليتهم المالية. وقد أكسبهم وضعهم كعمال للحكومة مركزاً قوياً في قومهم^٨.

وقد حقق نظام المليون صرناً من الوحدة بين قبائل عرب التي كانت تساند أعطيات متساوية في عمومها من الدولة. ولكنهم لم يكن يشمل في حكمه بكثرة عدسة من غير عرب وعرب نذير لم تدون مسؤولهم في الديوان^٩. وكان على أهل أعضاء الخدمة في جيش. وكانت العشيرة وحدة التوحيد، وعليها تقدم تعدد مضروب من المحاربين عند اندروم وهكذا أصبحت العشيرة أصغر وحدة حرية

٦ الطبري ٢٤٩٦/١ ؛ العلي ٩٨ - ٩٠ .

٧ الطبري ٨٩٦/٢ ، ٨٧٠ ، ٩٠٢ ؛ انظر العلي ٣٧ وما بعدها .

٨ ابن سعد: الطبقات ٢٩٣/٥ .

٩ طبري ٢٤١٤، ١ حيث قد عبر العلي لأهل هؤلاء لأصهار ونس لحق بهم وأعيانهم وقدم معهم ومن يفرض عليهم^٥ .

في جيش وقد تمت الاعتبارات لتحريره جميع هذه العشائر في مجموعات أكبر يصل بينها نسب المسرة^(١). كما ظهر في واقعة اخمل حيث برزت ثلاث مجموعات كبيرة هي تميم وبكر والأرد^(٢) وكانت كل مجموعة ثلاث بطون على رأس كل بطون قائده.

وكان نصيب الحديد الذي أحراره ريدد يسي على تقسيم نصرة إلى أخماس يشمل كل منها مجموعة من بطون وعشائر لكل منها رئيسها الذي يحدث مسؤولياته ولكن سلطة القمية الأم لم تكن في كل الأحوال غالبة على شروعاتي صلت تشكل وحدات أساسية في النظام الاجتماعي والسياسي والإداري، وصل أفرادها يتمون في أسامهم وسماتهم إلى حدهم اقرب المشترك لا إلى أصلهم القبلي البعيد. وكثيراً ما أدت الخلافات ومشاجرات بين هذه الفروع القمية متنافسة التي تنسب إلى أصل واحد إلى إضعاف تضامن المعسكر القبلي الأم. كما حدث لتميم حين سلفت إلى ثلاث فرق في واقعة الحمل^(٣). ولكن التجميع القبلي كان، كما توضح من بحث سياسي، ذات أهمية خاصة في المعارك الكبرى نظرية التجميع الكبير على حسنة فريده وفعاليته في الدفاع عنهم مما لا يتيسر للفروع الصغيرة منفردة ووفق ذلك كان يعمل مع مثلي لتجمعات الكبرى أسرع وأكثر فعالية بالنسبة للحكومة القائمة

وقد لاحظنا من قبل كيف أضعف تضام البدو روح النضال القبلي حين قصر بعض على بعض العرب دون الآخرين وقد سندعى هذا النضال تدوين من كان في خدمة الجيش الجمعية دون سواهم. وكان العدد الفعلي من في البدو حاصلاً بحاجة إلى مزيد من الحد. وكانت هذه الحاجة خاضعة لبدورها لتجهود

١٠ Wellhausen: Skizzen, IV, 27.

١١ الطبري ١/٣١٦٩، ٣١٧٩، ٣٣١١.

١٢ نفسه ٣١٧٩.

تي يحتجها موقف في مبادئ القتال^(١٣). وكان لا مخلص من أن تعد الأعداد المتزايدة من المأجورين حدوداً شسها حرج. طار السلطة المعوية للعشيرة أو فرع القبلي، وكل ما قل داخل عن استعداد لزيادة مطردة في السكان قل عدد أصحاب الأعطيات في نديوان. لمدي هو روح ندوة ومصدر فعاليتها. ولذلك عصرف كثير من سكان البصرة إلى كسب رزاقهم عن طريق التجارة وما إليها. وكانت صعبة كثير من أهل التي امتنعت تحتهم عليهم إقامة علاقات جديدة مبنية على المصالح المشتركة بينهم وبين أسس آخرين لا يمتنون إليهم بمسند رحم. وترتبطهم بهم علاقة دم. وكان عمو مثل هذه العلاقات الحصرية كثيراً يدفع الكثيرين من ساكني البصرة للتخلص من كثير من رواسب حياتهم القبلية.

نمو الجهاز الإداري :

كانت الحياة المدنية وما تتضمنه من ضوابط ولوائح كثيرة باخذت أعمق التعديرات في حياة القبائل العربية التي استقرت في البصرة وفي علاقاتها العامة، فقد أدى ربط النظم بقيادة عامة للحزب الإداري للدولة بضرورة أن تدهور وأصبح في سلطة قبائل ومراكزها مستقر هذه القبائل في البصرة وبخضوعها سلطة الأمير الحاكم الذي لم يكن يستمد سلطته من علاقة الدم التي تربطه بالآخرين أضعف من فعاليتها الأساسية. وقبل من شأن لربطه التي كانت تقوم بين أفرادها على أساس صلة الدم وانقرسى وكان هوذا الأمير الذي كان يشمل كل البصرة ويتبعدها في بعض الأحيان. مما قلص من دائرة نفوذ رعماء قبيليين الذين كانوا في معظم

١٣ : كان يضاف بين وبة وأخرى إلى أهل البصرة عدد ممن لم يكن يأخذه وحده عدم يكون المصلح وواً وبنت لهذا قدر على دفع أو عدم تشدد الحاجة إلى المقاتلة وكانت هذه الأصوات تحدث بكثرة ولا يفتوح ثم حدثت في زمن ديار عندما بنى ٤٠ ألفاً إلى حرمان والرحح أن الدولة لم تغير الاسم على أن يكونوا من أهل البصرة وبما كانت تتطلب ممن يأخذ البصرة أن يسكن البصرة وأن يني الدعوة إذا ضرب عليه البعث صالحي العلي ١٤١ - ٢ .

الأحرار يخصصون في توليهم مصالحهم لتحكمهم المركزية^(٦٤). وهكذا صارت الريادة مضمرة في سلطة الأمير على حساب القبائل التي فقدت بالتدريج حريتها على الحركة.

وكانت مهمة الأمير في حفظ الأمن ونظام داخل مصر مهمة شاقة تصعبه في مدينة خموص متدين من الأعراب وتمسكهم بحدتهم العرقية وكلمة ردت سيطرته وكتبت الفعالية للارمة أصبح مركز قوة الحقيقية التي يدين بها الجميع بالولاء. وقد دفعت سيطرته على النظام المدني ونموه على رعاة لقائل هؤلاء الزعماء سداسي فيما بينهم ليكسوه حصه وليسألوا ما تلي قدراً كبير من السلطة على قبائلهم من جراء ذلك وقد أدى ذلك باضرورة إلى اضعاف قوتهم الفعلية وتبديد ما كان هم من أهمية. وما كان من منسك للمجتمع البدوي أن يحافظ بصرامة وبدى صويل من زمن على الثوار بين خصمه موروثه وسلطة الأمير المساعدة التي لا تقهر^(٦٥) وكان نمو مصر يدعو لإقامة جهاز إداري يتنصب ستخدم لموظفين لإدارته وكان معظم هؤلاء يعيشون في لندية من غير لعرب. ولم تكن هم دلتلي قبائل تحميهم. ومن ثم كان ولاؤهم للأمير وحده. وكان ذلك مما دعم من سلطة الأمير وكانت الشرحة من لأدوت اضافة التي اعتمد عيما الأمير لتركيه سيطرته. ونوع من أقده اشوهد على ذلك السياجة لأرعمدة الذين أوكل إليهم حرسه بيت المال والسجن منذ أيام أبي موسى الأشعري^(٦٦). وقد انشأ زياد حرساً من خمسمائة يقوم عليه ثلث من كبار رجالات العرب^(٦٧) وكان لعمدة دورهم الكبير في تعيين أوامر الأمير. وكان رؤساء لأحماش خاضعين لسلطته^(٦٨). وما تبقى لهم من نفوذ

١٤ الملاحظ: البيان ٢٠٠/١ - ١٠٤/٣ : ابن عبد ربه: العقد المريد ٢٩٦/١ .

١٥ البلاذري: أنساب ٢٩/ب.

١٦ الطبري ٣١٢٥/١ .

١٧ نفسه ٧٩/٢ .

١٨ البلاذري: أنساب ٢٩/ب .

لم يكن يتعدى دائرة قبائلهم .

وكان أوائل الأمر يتوون قيادة حيوش بأنفسهم . ولكنهم مع توسع الفتوح .
وارتدوا مسئوليات لإدارية . صاروا يتحنون - يتدربون - على هذه المهمة ، ويكثرون
في رجال بارزين يتم تعيينهم بقدر كفاءتهم شخصية ومركزهم في قبائلهم
وكان هذا مما دفع بمثل هؤلاء لرجاح للاحتماء بحاص مصالح قبائلهم التي يستمدون
منها بعض عيولهم . وياكثرون في الأمر ضرورة ونقص غشوح كانت حاجة الدولة
للإداريين الأكفاء لوسط الأمور في البلاد مفتوحة أكثر منها للقادة العسكريين
وكانت التقدير لإدارية على وجه العموم أهم في الاعتبار من السند لقي الذي
يتمتع به "شخص المعني" وكانت العوائد والامتيازات التي تضمنها هذه الوظائف
على محالها عظيمة وحياة^(١٩) . ولم يكن سبيل لحياتهم سبيل العشائر أو القبائل
بل كان سبيل الأمير . وقد عظم هذا من شأن الأمير وأمنه قوة جلده ووضوح
كل من يتصلع من - منصب من المناصب لإدارية مثل - عمل أو "العرف" أو
مناصب أو سواها في حاجته لانتصاب "وثيق بحاشية الأمير أو بشارته وقد تبع
من قوة هذا الاتحاد أن كتب زياد بن أبيه خمسمائة من شيوخ البصرة في يديون
في صحاباتهم وزيادهم ما بين ثلاثمائة وخمسمائة دينار^(٢٠) . زياد على إعطياتهم
في أعين الظن . وسعدت بعدة من أصحاب رسول الله وآله بعض المناصب^(٢١) .

وكل ذلك مما رد من عدد رجال البارزين الذين أصبحت مصاحبتهم الشخصية
تزداد ارتباطاً بمصالح الأمير وإدارته . وكانت قوة هذه الفئة الإدارية الحاكمة
ترداد مع الزمن ، وتطغى على المجتمع القبلي وغيره من الفئات التي كانت تفقد

١٩ صار الناس يتدرون في أيام زياد بقولهم "حيذا الإمارة ولو على الحجارة" فتوح ٣٩٠ .

٢٠ الطبري ٧٨/٢ .

٢١ نفسه ٧٩/٢ .

نقوذها بالتدريج. ولم تعد هذه العناصر ذات وزن كبير إلا في أوقات الأزمات
والمعوصى حين تفرض عقد صدام، وتتحلى قصة لإدارة حديدية عن السيطرة،
وعندها تجد هذه العناصر فرصتها في فرض وجودها على طريق الثورة والصدام
والتمرد.

وقد بعث فوه الأمر وفعالية جهاز أمنه مرتبة في أرم ريد وسمه عبيد لله
(٤١ - ٦٤ هـ / ٦٦١ - ٦٨٤ م) والحجاج (٧٥ - ٩٥ هـ / ٦٩٥ - ٧١٤ م)
لم يعد معه بحسب عقد السداسة الرسمية إلا عن طريق العنف كما تشهد بذلك ثورات
مجموعات المنحرفة من حوارج وشيعة وسوءهم وقد ساعد بحكم في سبيل تدعيم
سببهم بكل وسائل الترغيب والترهيب. واستعملوا الشعر والنصائح^(٣٣) في الدعاية
لأرائهم ومحمد حبيبهم وكان يتوسع في شعر المسيح ستجدة لحاجة حقيقية
في المجتمع وحوالته كما تهدد^(٣٤) والسحر الذي يرى فيه عرب عاراً، ونفلي^(٣٥)
وغير ذلك من صنوف القهر لكسر حدة المقاومة في مصر.

وإذا تذكره هذا أن حماسة الحوارج في مجموعاتهم محتقة بالحروج على
حكم بني أمية أصادت مصرة بأصرار داعة، فأوقفت هجماتهم المنصبة حركة
تجدة وعرضت حديد المؤمنين للحظر وهلاك وتسوى في التأثير بذلك أعبيد
الناس وقتراؤهم. ومهد هذا حفرة لجارحي السبيل جمع شتات التفرق بتدبره
في كثير من المناسبات، مما قوى من سلطة الدولة.

٢٢ انظر: Geza de Memorial Volume Pedersen, Q. sas 1.2.3 (Budapest, 1948).

والقريري: الحفظ ٢/٢٥٣، بلا ١٠٨ - ١١٠.

٢٣ البلاقي: أساب ٨٩/ب.

٢٤ ابن سعد: الطبقات ١/٧ ص ٧٧، ٧٩.

أثر البادية وخراسان

وكان هناك عنصر آخر يزيد هذه الصورة تعقيداً، فلم تكن حياة في مصر، مستنة الصلة بصحراء البصرة، حيث ظلت الحياة تسير على وتيرتها السابقة غير متأثرة إلا في ضعف الحدود كمؤثرات الحصار، مشتقة من حياة مدينة واسميرت 'حراء كبيرة من القائل إلى استقرار بعضها بمصر تحوب بصحراء طبا بماء والكلا' وهذا تأثير أسلوب حياتها بطورة التي أحدثها لدى الحديد، فظنوا على تمسكهم بعدتهم الخديعة لا يردعهم عنها أي سيطرة رسمية فعنة وإذا ستنسب سعة الذين يأتون إليهم في فترات معينة من السنة جمع الضرائب وتركوات فيهم نادراً ما يحسون بالوجود الرسمي في حياتهم^(٢٥).

ولكن هؤلاء البدو كانوا على صلة بالمصر من عدة وجوه، فقد كان نشاط مدينة السجاري يخدم جمهورهم. وكان سوق المزد السهري الذي يقام سنوة حاشيتهم شاهداً حياً على الدور اهام الذي كانوا يصطلعون به في حياة المدينة التجارية. وكان هم أقدمهم وخوهم من أفراد قشهم الذين يتقدمون بالمصر ويفرق ذلك كمو مصدر لا يصب مد احسن بخراس وكوا في وقت الأزمات حين تضعف سلطة دولة كثيراً ما يزحمون صفوف من يتمنون إلى قشهم من سكن مصر ويشتركون معهم في قذمة^(٢٦) وكان مرد كثير من موحات نصف

٢٥ انظر كامل المبرد (المصنف) ١٣٠/٢ نرويه عن شيخ من العرب م يكن على علم بموت الحليفة عمر ابن الخطاب في فترة ما بعد عام ٤٦٥ هـ وانظر الحماسة (تحقيق فريثاق) ٨٠٠ لرواية عن بدوي لم يكن قد سمع بالأذان قبل حضوره للبصرة.

٢٦ الكامل لمررد ١٢٩/٢ حيث نتحدث عن أعرب تمه الذين ردوا تميم البصرة في وقعة نرس بعد موت يزيد بن معاوية. انظر أيضاً الطبري ٣٠٨٠/١ حيث يذكر الأعراب في معرض الحديث عن مقتل عثمان. وانظر كامل المبرد ١٢٤/٢ لرواية عن حرب بدأت في البادية ثم انتقلت إلى البصرة.

وموضي التي تم بالبصرة وتهدد وجودها في تكاثر أعددهم في مصر بدرجة تفوق حدود الديون ومقدرة على استيعابهم وكان تعاون هذا بمصر البدوي على حياة البصرة السنية كثيراً ما أضعف من فعالية العوامل الأخرى التي ذكرناها في معرض الحديث عن عناصر الاستقرار

وكان مما يضاعف من أثر شد الصحراء وجذبها على حياة المصر أثر خراسان لعبادة وقد سبها من قبل في النتائج السياسية والاجتماعية المترتبة على ذلك وذكرنا أن لأعداد الكبيرة من حدة البصرة الذين استمروا في حميت الشرق ومعسكراته أصبحوا مهياً للشرق والفرقة من حراء اتفقت قبلي والعصبة. وكانت خدمة جيش، التي تضمنت هنما حاصلاً بالانتساب قبلي. مما عدى من روح لعبية القبية وكانت ظروف سياسية التي وجد فيها هؤلاء عرب أنفسهم تدفع بهم تدريجياً إلى تحي عن كثير من رويدات ووصلات التي اكتسبوا من إقامتهم بالبصرة وقد تلاشت في هذه الأصقاع كل عوامل تنحصر التي أثرت على حياتهم. انصهرت تلك من آثار الاحتكاك القبلي وحيث محلها ظروف جديدة شبيهة بظروف حياتهم في الأهلية من ناحية تحلل من مسار السيطرة الرسمية والحرية على الحركة وشن هجمات^{٢٧} وكان إغراء الترويض الضخمة التي تنصروهم وشعورهم بقوتهم بذية وبعدهم عن سيطرة دولة المباشرة، مما عدى من روح تنكاف القبلي ورشح ليصبح من أكثر سبل فعالية لصناد مسندة وتأكيد الحصية في هذه المساحة السياسية. وقد رأينا أن معظم الأمون التي تهتم على البصرة كانت نتيجة مباشرة جهه هؤلاء رجال. وهذا يفسر إلى حد كبير الأثر القوي الذي كان لأحداث الشرق على حياة البصرة اليومية.

٢٧ نظر الضري ١٣٠١/٢ حيث ورد قصة وكيع بن أبي سواد تميمي الذي أمر بصرب عرق رجل سكر وقد ناله السكر ليس عليه النفس وذي عليه الحد، فأجابه لا أعاق بالسيوف ولكني أعاق بالسيف كما يجري بذلك العرف الجاهلي.

وفي بعض الأحيان كان يسو وكان أثر هؤلاء الأعرب القريبين والبعيدين على حياة "نصرة" السبسية والاجتماعية يتوقف أثر المجموعة المستقرة منحصرة. بقي كثيراً ما وجدت نفسها أسيرة الصدام بين تحاهي مداوة والحضرة والتناقضين. وان وقع أنه تمكّن عتد ربح "نصرة" انعاصف خلال عصر الأموي صراعاً متصلاً بين هديين لائحهمين. وكثيراً ما كان هذا الصراع يتشكل بالظروف محطّة، وكانت نتيجته لذلك شديده التعقيد. مستعصية على الفهم. لتشكل التوتّر مصصرعة وبعدها وتدين مصادرها في الداخل والخارج وكان هذا التناقض عداوي يتجلى في وضع المدينة اعريب فهي بوقت لندي كانت فيه مسرحاً لنصرة ولثورة كانت ستعطيها بدت تقوية قوية دينية وأدبية تزداد قوة مع الزمن وتشكل حياة المصر وتدفّعها باطراد في سبيل التحضر والرقى .

القرّاء

كانت تعليم لاسلام بني تدعو إلى وحدة العقيدة دون اعتبار النسب تحدث ثارها انحميده على سبيل الحياة في المصر في قضاء واصراد وتعلّم هم مجموعة برر فهي هذا الأثر يصوّر هي مجموعة اقرّاء الذين كانوا يتنوّون لقرآن ويتدروسوه. ومن صفوفهم خرج كثير من محوّرّج وكان أبو موسى الأشعري من أوّل الذين عمّموا القرآن بالمرصر وقد ساءت عسر من محضات أن يبعث معه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ بعثون الناس دينهم فبعث معه عشرة^(٢٨) أو تسعة وعشرين^(٢٩) من أصحابه وكان أبو موسى نفسه من اقرّاء، ولذلك كان شديد الاهتمام بشعر لقرّاء. وليحقّق ذلك على ذلك اقترح على عمر أن يزيد من أعطيات لقرّاء

٢٨ الدينوري: الأخبار الطوال ١٢٥ .

٢٩ الطبري ٢٥٣١/١ .

نصرف نصير عن قائلهم أو شتراكهم لمعني في العتوج^{٣٠}. وقد شجع ذلك كثير من عرب والموالي الذين دحسو في الإسلام حديثاً عن لاصرف لدراسة غزال وبلاوية. حتى صاروا مع الزمن مجموعة متمسكة به بقية قوي. وقد لعب هؤلاء دوراً هاماً في حياة المدينة السياسية والاجتماعية فحاربوا كمجموعة متميرة في صيفين. وكذا هم النسب في قضية التحكيم المشهورة. وتحسبوا قضية المسلمين من بني ودود عن حقوقهم كما شهد بذلك وقتهم صد إخراج الحجاج لني أمر راجع بنولي إلى قراهم^{٣١}. يد انضموا إلى اس لأشعث. وكانت لهم فرقة مستقلة في هذه الثورة بنموذ أحد قوادهم^{٣٢}. ونكس فشل هذه ثورة رعن من مركزهم في المدينة وعرضهم لعقاب الحجاج وتأديبه^{٣٣}.

الموالي :

في ثوب لذي كانت هذه العاصر لعربية تنصارع من أجل لسيطرة على مدينة وكساب الشخصية لعربية لتمييزة بالكثرة لعدية في مرحل الأولى من نصير نصرة. كان هناك عصر آخر يعمل من جنبه في صمت وضاد لتعديلات هذه الصورة. وقد كانت رعة لعرب احمحة في لحفاظ عن شخصيتهم لالاعد عن السعوب التي حصعوها^{٣٤} عسرة لتحقيق في الواقع. فقد نيت بمستوطنين الأوائل في نصير ضرورة الاستعانة بكل صفوف حريين ومهيين الذين لا تستقيم حيه لحاصرة بدوهم وكان تحررهم من رقة الكدح اليومي ضرورة لازمة لإفراع

٣٠ ابن سعد ١١/٤ ؛ أبو نعم: حلية الأولياء ٩٤/٢ ؛ الدينوري ١٢٥ ؛ فرض عمر للناس على منازلهم

وقراهم للقرآن ابن سعد ٢١٤/٣ ؛ عقد ٢٩٧/١ .

٣١ الطبري ١١٢٢/٢ ؛ البلاذري: أسباب وأهلاروت ٣٣٦/١١ .

٣٢ البلاذري: أسباب ٣٣٦/١١ .

٣٣ ابن هدرمه: العقد ٣٦٧/٣-٨ ؛ واطر تولدكة: تاريخ القرآن ١٦٣/٣-٩ ؛ بلا ٧٣-٨٠ .

٣٤ الطبري ٢٥٤٥/١

جهودهم في ميدان القتال وفوق حاجتهم لبساتين وعمال مهرة تُشق الثوب
وعقد الحسور فقد كانت هناك ريدة مطردة في امتلاك الأراضي الزراعية حول
بصرة وكان معظمها من لأراضي لعشرية^(٣٥) التي يحق للمسلمين امتلاكها بمقاربة
بالأراضي الحراجية التي ستمت في أيادي مالكيها لسنين كما كان الحال
في بكوفة^(٣٦). وقد خفف هذا حاجة ماسة للعمال الزراعيين لا يمكن تبنيها إلا
فتح باب هجره للملاحين الموضيين من المدايق المجاورة. وفوق ذلك فقد ورث
عرب حجاز الإذنه الساساني وورثوا معه موصفيه وعماله الذين كان معظمهم من
أصل فارسي. وكان سيل العبيد وأمري الحرب لا ينقطع عن المدينة.

وهكذا وبعد سبعة أحدات حركات من هؤلاء الموالى تشترك اشتركاً فعلياً
في حياة البصرة لاحتراعية ونسبسية وكان عددهم يزداد مع الزمن. وقد أسلم في
ولاية أبي موسى الأسعري حوالي أربعة آلاف من الأسيرة وكانوا فرقة من الجيش
ساساني وفرضهم في أعضاء كجند المسلمين وسمحوا لهم بالإقامة بالبصرة وحاشوا
قبيلة تميم^(٣٧). وكان برهم وسباخة الذين كانوا في أغلب الفن من أصل هندي^(٣٨)
يقومون بمهمة حفظ الأمن وحراسة السجون. وقد وكل إليهم حراسة بيت المال
سنة ٣٦ ٦٥٧ هـ في أيام حين بني أعققت موت عثمان. مما يدل على تقدير
حكماء العرب لخدماتهم في هذا المجال وكان ميدان نشاط انتحادي يفتح
مجالاً واسعة نكر أنوار مهارت والمهنة. وقد بلغت نسبة استقرار هؤلاء الموالى
ببصرة مدى أفرح بحاكمين وبنذكرون أن معاوية بن أبي سفيان أفضى إلى
الأخيف بن قيس وسمره بن خندب وكلاهما من البصرة بعونه من عنة هؤلاء

٣٥ الإصطخري؛ مسائل ٨٠؛ ابن حوقل: صورة الأرض ٢٢٤.

٣٦ الإصطخري نفسه ٨٢.

٣٧ البلاذري: الفتح ٥٢١.

٣٨ نفسه ٥٢٢؛ قرن ٣٧ - ٨.

مولي وحشيتة من وثبتهم على العرب ووزة سنطهم . وحتتهم به يوي قتل نصفهم
 ت ك نصفهم الآخر نقيام على لأسوف وبصرف . فـ فـ «الأحف عنهم دفاع»
 مؤثر بين وفق سمره عن خصة معوية . وأخذ معوية بري الأحف^(٣٩) . وبدو
 أنه اكتفى بنقل عدد كبير من الزط والسيابة إلى سواحل الشام^(٤٠) .

وفي من مجتمع بصورة توائم على لعصية وتحترب حيث كانت انعية فيه
 بعضهم العربي . كـ السيل الأواحد لتحقيق مصالح غير عرب استغلال نظام
 الولاء . وحدث بأن يربط الفرد نفسه بـ يحدى قبائل أو عشائر عربية فتحمية
 وتدفع عن حقوقه وكان نظام الجور يقبل إلى حاب نظام الولاء سائدين في
 مصر . وكان على لأفراد والجماعات النجوة إليهم إن ردوا الاشتراك المعلي في
 أي مظهر من مظاهر الحياة بسدية وكان نظام الولاء نجع لسبل لتحقيق ما
 يصبو إليه غير العربي .

ومن أهم أن ملاحظ هذا أن لفظة «مولي» صطلح عام يشمل مجموعات
 مختلفة من سـس فهو يشمل معتقين من لعبد الدين فصور الإقامة مع ملكيهم
 سابقين على أسس مشروعة . كما يشمل الأحرار من غير عرب ندين حجازوا
 الارتداد بأسرة عربية بعينها . ولكيهم جميعاً يحمون أسماء العرب الذين يرتضون
 هم مسبوقة بكلمة «مولي» يستدل أسس على أن علاقه التي بين طرفين علاقه
 حترعية ويست علاقه دم وكان هذا نظام فؤنده التي لا تسكر ولكنه كان في
 نفس الوقت يفرض الالتزامات والشروط فكان معظم مولاي لا يستحقون العضء
 وإن استحقه بعضهم فحصلهم منه دون حظ «عرب»^(٤١) . وكان مولاي الأحرار
 يسكنون معظم صقات مهيبين الذين متقرو بانصر ووضعوا أنفسهم تحت حماية

٣٩ النقد الجديد ٣/٣٦٤ .

٤٠ البلاذري فتوح ٥٢٤ .

٤١ المسعودي: مروج الذهب ٥/١٧٤ ؛ البلاذري: أنساب ٤/٥٨ - ٩ .

بعض الأسر العربية تقوية نفوذ، وهو وضع أكسبهم كثير من نفوذ، وكانت هذه الصبغة من مواني كثرهم فعالية. فهم يرجعون بأساسهم إلى أصول كريمة وكانوا دون شئ ثمرة ثقافة ناصجة وأتاء حضارة عالية وأسلم الكثيرون منهم وكانوا يشعرون بمساواة مع لعرب وأخذوا يتدارسون القرآن ويتعمقون لعربية في حذسة وشدط. وما كانوا في معظم الأحيان يحضرون لخدمة لعسكرية سسة لثرييتهم مديية. ولم تكن علاقتهم خديية بموليهم لعرب من القوة والإبرام بحيث تحتم عليهم لاشتراك معهم في حروبهم. ويدلو أن عدد هذه طبقة من مواني كان كبراً في تديية حين كانت قوة القبيلة العربية في عقونتها. ويزيد سطة الأمير ومو حية الحضرية بمرد تعبر احول سبباً ولم تعد من حاجة مدحة لطلب الحماية من أي قبيلة عربية .

وقد استفادت المجموعات المنحدمة من غير العرب من فرص لحماية والخور هذه في فترة مسكرة فقد أصبح الأسورة مواني لبني سعد من تميم^(٤٢)، وأصبح رظ ولساحة مواني لبني حنطة من تميم^(٤٣). وقد بنى زياد ساحة هم أسكن فيها أربعة آلاف من البشارة كما يعرفون سحارية زياد^(٤٤). وقد اتصل بعض لعرب لذين خالطوا الفرس مثل بني العم من الأهواز بتميم أيضاً^(٤٥) .

ولم يكن هذا الصدم مقصوراً على المجموعات وحدها بل كان يشمل لأفراد أيضاً فقد استفادت منه صفوة لمجتمع ساسني التي لم تقع في الأسر ولم تستعبد، واستفادت الصبغات سقفة ولإداريون والمهيمون لذين كان لعرب في أمس حاجة لخدمتهم. وستألف هؤلاء بضمهم عن هذا سبيل تحت لإدارة الجديدة وعلى

٤٢ البلاذري: فتوح البلدان ٥٢٠

٤٣ نفسه .

٤٤ ابن الفقيه: كتاب البلدان ١٩١

٤٥ الطبري ٢٥٣٧/١ - ٨ .

اربعه من أن سعة هارسية صلت لغة نديوان لأكثر من نصف قرن^(١) إلا أن المؤي
لا حصو في فترة مبكرة من تعاملهم مع الوضع الجديد أنهم لم يحضروا بمكانه حقيقية
في مجتمع عربي الإسلامي دون انقود أولاً إلى داخل كيانات اجتماعي، وكانت
صيتهم بمواليهم من العرب هي المقدمة، وتبين ضم أن انخراطهم في المجتمع الجديد
يعتمد إلى حد كبير على درجة لتعرب وتشرب روح الإسلام التي يحققوها. وكان
لا بد لعلاقة الولاء بين العربي وغير عربي التي يصفى عنها الحب العربي من أن
تسع عديتها منطقية من التعرب لتخلص قبل أن يقف غير عربي على قدم المساواة
مع مولاة عربي على الأقل في مجال التفاهم العربي ولديني وقد قدح هذا الإحساس
في نفوس الموالين رغبة حامية لتحسين مستواهم والأحد نصيب من لامميزات
التي كان العرب يتمتعون بها، وذلك بالتوفر على دراسة عربية والدين الإسلامي
ولاحد بصينتهما .

وه بمحض طويل وقت حتى تبين لهم أن سبيل إلى مساواة لم يكن بالنسبة
تي صوب أول مرة. فقد كان تافص المصالح وصدمها في غير صالح المولي في
بداية الأمر وكان العرب على وعي تام بمركزهم المتنازل فقد وضعهم نصرتهم
على ليزنطين والسلايين في القمة كضفة حاكمة تحسب إليهم كل حيرات
لامرأورية، وذلك بمد قوتهم من ثقتهم بأنفسهم كصفوة محدرة بالتقياس إلى
رعايهم وقد دفعهم هذا لشعور إلى التمييز ضد المؤي في المحالات الاجتماعية
والاقتصادية والسياسية ليحافظوا على موقع القوة الذي يحتلونه .

وكان تناقص الظاهري في هذا الموقف به حوالي عام ٧٠٠ م لم يعد دين
محمد حكراً على قومه، بل أصبح لمسلمون من عرب قلة تقيس إلى غيرهم
من الشعوب المتهجرة خاصة الفرس. وكان هذا التحول يحدث تعديلاً سريعاً وبعيد

٤٦ ينسب تعريب النديوان إلى الحجاج (٨٥ - ٩٥ هـ). انظر الجاحظ: البيان ٢٦/٣ هامش ٣ .

مدى ليس في تاريخ مصره الاجتماعي والسياسي وحسب. بل في تاريخ الامر ضرورة جمعاء. فقد كانت مصالح العرب اداة كطقة حاكمة تتعرض تعرضاً تاماً مع مداهم نفس لتحقيق ولا امتيازات التي تمنعون بها إلى هذه المصالح بحاشدة من غير عرب ورغم أن هذه المصالح كانت حقيقية ومحسوسة إلا أنها لم تكن قائمة إلا على أوهى الأسس وأضعفها. إذ كان عند العرب وتعتهم محناً تعليم الدين الحبيب الذي سماه هو الامر ضرورة وندعو لرعاهاهم. وكان لأهل في تحقيق المسودة التي دعا إليها الإسلام هو الدفع الأساسي لتبوء أعداد كبيرة من غير العرب لعقبه الحديدة. فقد كان قولهم الذين الحديد يشتر شفتح آفاق حديدة في حجة لم يكونوا يستطيعوا تحقيقها أو احتفظوا بعقدتهم اسقة. وكانت الامر طورية عربية على أي حال دوة ديبية من ناحية نظرية. لإسلام فيها تقسم مشترك بين العرب وغير العرب. وبقبول غير العرب الإسلام اكتسبوا نظرية حقناً مدنية لتحقيق عرب. وإن كان هؤلاء في الواقع يقومون هذه المرامم ويرفضونها وسرعان ما تبين لغير العرب أن الإسلام وحده غير كاف لتحقيق صوحهم في مجتمع يعلى عليه عرب وكان عليهم فضلاً عن الإسلام أن يحدوا من حذر عصبية عربية. وسرى فيما بعد أن يصار هؤلاء وسيل نكثيرة التي سعى بها هؤلاء، تقوم نسبة أنفسهم للعرب كلها قد فشلت في تحقيق بعض ما كانوا يؤملون. وإن مهدت لهم الطرق لتحسين أحوالهم ورفع مستوى حياتهم.

وكان تأثير هذه الحركة بعيد المدى. فقد وصل ضغط الموالى على المصر كما رأينا حد الحصر في بعض فترات. وكانت سيحة ذلك هبوط عام في سنة سكن اريف مما حكم سنة اسير في لزراعة انتهى مهوض حاد في مستوى لدخل عام وقد دفعت الأزمة لاقتصادية الناجمة عن ذلك الجحاح للحواء إلى تلك التداين الصارمة من زده أهل قري إلى قريهم التي جاءوا منها بالحمة وإحصاءهم لضرائب التي رفعت منهم بقولهم لإسلام. وجاءت تدبير عمر بن عبد العزيز بمصدرة لإصلاح ما فعل من جحاح وعادة بعض الأمور إلى صوابها. ولكن المراد

التي خلفتها هذه التدابير في النفوس كانت عظيمة ودفينة .

وقد كان ضعف هذه المجموع على مورد مصر ومزاجتهم عسفة يُعرب في كل بوحى حية مما وُثِدَ الخوف ولحقه في نفوس هؤلاء العرب وأشعرهم بالحصر الذي يهدد مكنتهم في الحياة وقد أُحدث تحوُّلهم المنفرد من طمعة عسكرية إلى رعب عديدين كبقية رعب لامرأطورية، أثره كبير في ميراث قوى. يد سرعان ما زالت من أيديهم كثير من مظاهر قوته التي كانت وقتاً عليهم وفي سبيل وقف من انبالي صاعد وتعويق تقدمهم فرض نعر عليهم صوته من تدبير المهينة نميرة^(٥٠) فلم يسمحو لهم مثلاً بشغل بعض المناصب العامة التي تكسب شغلها بعض نفوذ السلطة كمنصب القاضي^(٥١) وقد وجد الجيوش ولم يحدث أن عين قاص من سويلاً في بديهة ثمر انبالي ضحري حتى عين لحسن المصري أن قاص من سوي على نصبة أيام عمر بن عبد العزيز^(٥٢). وكان محروماً عليهم لزواج من العربيات، والمصادر حرة لمشاهدة المهانة والإدلال التي يتعرضون لها إن تحضروا ذلك^(٥٣).

٤٧ العقد الجديد ٣/٣٦٤ - ٨ لبعض الأمثلة .

٤٨ حين عين الحجاج سعيد بن حبيب قاصياً على الكوفة صاح بس ١٠٠٠ أصبح سقواء بلا عربي كامل المرد (صحة رايت) ١٨٢ .

٤٩ الطبري ٢/١٣٤٧ ؛ ابن سعد: الطبقات ٥/٢٥١ ؛ وكيع: أخبار القضاة ١/٢ وما بعدها .

٥٠ لأمثلة على لمولي الدين تروحو عربيت عديدة بطر انساب الساجسين من هذه الكتاب وانظر لسيد العرب ج ١٠٣:١١٠ لعمرة من خطاب عمر بن عبد العزيز بشأن هذا تزوج حيث يقول: لا تزوج من عربي في حرب إلا لأشتر نضر ولا من انبالي في العرب إلا لطمع صبيح . وكانت ردود الفعل بعرة عسفة في كثير من الأحيان كما حدث في حالة البصري الشهير عبد الله بن عبد ذي تزوج عربية فجلده بلال بن أبي بردة (ابن سعد ج ٧ ص ٢٦٦) ؛ انظر الأعمش ١٥/١٤ مثل آخر ؛ وقد تعرض الحجاج بن يوسف ذي كبر متهم في سبه لفسس بعملة حين أوعمه عبد الله بن مروان على تطبيق روحته قرشة (العقد ١/٣٠٢) .

وكان قد ينص من فعالية هذه الأدوات لدفاعية ميل العرب إلى خروج من
سوء المولى واتخاذهم سري. وقد بيع هذا الزواج منهم مبلغاً عظيماً كما يشهد
بذلك دفاع الأحف من قبيل زعيم تميم عن أموي مدم معوية الذي سمعت الإشارة
بنيته^(٥١). وقد قال: «أرى أن نفسي لا تطيب، يُقتل أخي لأمي وخالي ومولاي وقد
شاركناهم وشاركوا، في سب»^(٥٢) وقد ضمت ثمرات هذه المصاهرات تعمل فعلها
في تشكيل لأسس اجتماعي وثقافي مستقر وكان من الصعبي أن يتأثر لأسس
ثقافة أمهاتهم وعاداتهن ومن الأمثلة المكرة في هذا النجاء شخصيات درزة
كعبد الله بن زيد بندي سرت لعجينة بن نسانه العربي لكثرة مخاضته للمم
د كن يعيش وسط أحواض الأساورة، ومنه كثيرون كعبد الله بن حارم^(٥٣) وعبد
الله بن أبي بكر^(٥٤) وسحر بن القبايع^(٥٥) وخالد بن أسيد^(٥٦) وخالد بن قسري^(٥٧) وقد طغى
عنصر فارسي على حضرة في نهاية العصر الأموي إلى درجة تحولت في شخصية
المدنية وصفتها بصفتها وقد روى أن أب عمرو بن العلاء لقّبه للعوي سي كان
عربياً قال لأهل الكوفة: «لكم حذقة البسط وصلفهم، ولنا دهاء لقرس وحلامهم»^(٥٨)
وقد ضمنت كثيرتهم العددية استمرار دور الحجة الإدارية والاقتصادية والثقافية
في المنصر دون توقف حتى في أكثر الأوقات اضطراباً حين كانت القدائل مشعونة
بقتل بعضها بعضاً.

٥١ انظر ص ٤٤ أعلاه

٥٢ العقد ٣/٣٦٤.

٥٣ انظر ابن الأثير: الكامل ٣/٣٠٥؛ وانظر ابن حجر: تهذيب التهذيب ١٤٤/٢ مثال آخر.

٥٤ ابن سعد ١/٧ ص ١٨ - ٩.

٥٥ نفسه ١٨/٥ - ٩.

٥٦ البلاخي: أنساب ٤ ب.

٥٧ انظر الباب الرابع من هذا الكتاب.

٥٨ المحاط: البيان ٨٦/٢

التجارة

كان تصور البصرة إلى مركز تجاري مزدهر مبني على أساس ثابت تقوم عليه مهنة المندبية وتمهيد المتصل. ويضمن استمرار ذلك حتى في الوقت الذي استنفدت فيه أغراضها كقاعدة حرية، ولم يعد هناك من مبرر لتوسيعها وتقديمها على ذلك الأساس وقد كان لسلط التجاري انصباب الأوفر في دفع حركة التحول بحصاري وتعتبر تلك القوة العسكرية التي يغنيها سلاح سميك من مداوة يد مجتمع مستقر يفيض بالخير والبركات .

وقد أعظم لإسلام من شأن التجارة، ولذلك صرف كثير من صحابة الرسول وغيرهم من ستر البصرة جهودهم لها. ووجد عدة من قرشيين وثقفيين الذين أقاموا بها البصرة ساحرة لإبرار ملكاتهم في هذا المجال. وقد جمع رجل مثل أسد بن مالك^{١٥٩}، وبر بكره. ووقع بن الحارث^(١٦٠)، وزيد وأسد ثروات ضخمة وقد أصبح يصد «سل» الذي يستطيع الرجل بمقتضاه أن يعثب «بديل» عنه ليقتل في الحش، الفرصة لعدد كبير من ذوي النفوذ يستقروا بالبصرة ويشاركون بصعوبة في حياتها لتجارية. وكان مثلهم في ذلك الأمر وعمهم وموظفهم الذين كانت طبيعة أعمالهم تقتضي إقامتهم بالمدينة. فاشتهروا بالتجارة واحتدوا واهل الأرباع^(١٦١). وشهد الرندليون والتجار والمهيبون من الفرس وأداروا أعمالهم في حرية تحميهم ندوة أو نضام الولاء. واستخدمت الحكومة بعضهم في مصالحها المختلفة كسك العملة، وحج الأمور، والنوفاة المكتبية والإدارية التي أتاح لها الفرص للاشتغال بالتجارة إلى جانب أعمالهم الرسمية .

٥٩ ابن سعد ١/٧ ص ١١ حيث يذكر أنه من أحرص أصحاب محمد على المال: وانظر ابن العماد.

شهرت ١٠٠١ - ١

٦٠ ابن سعد ١/٧ ص ٥٠ .

٦١ ابن قتيبة: عبون الأخبار ١/١٧٥ ؛ صالح العلي ١٣٩ - ١٤١ .

وفي أيام الولاة المذكورين كعبد الله بن عامر الذي سعى السوق^{٩٢} ورياد^{٩٣} وعبد الله بنه ولجرح شقت القنوت وأحرقت الأهرار وزدهرت لمواصلات المذبة وسرعد ما حثت بصرة محل فرصة الأئمة القديمة كأعظم مركز تجاري على انصريق تحاري تقديم الذي كان يربط الشرق والحد وروم. وازدهر سوق لمربد واحتدب نخارة بدو إلى درجة أحمت معظم الأسواق التي كان لعرب يتجرون فيها في سوق الجزيرة أيام حاضيتهم وقد أصبح هذا السوق إلى حطب أهسته لتجارية مركزاً يتجمع فيه عرب على اختلاف ألوانهم ودرجاتهم من سدو ولحصر .

ما ملدى لندى أثر به هذا النشاط التجاري على اوضاع قبلي في انصر تأثيراً مباشراً فدنك مما يصعب تقديره. فمن بعض اسوحي كان ردياد عدد الأعيان في فرع من الفروع عامل قوة لفرع أكثر منه عامل بضعاف؛ إذ كثيراً ما كانت عشائر مستفيد من ثروات أفرادها الأعيان الذين كانوا يعطون الفقراء والمساكين من قبائلهم ومن عبيدهم، ويبدلون الأموال في سماحة وكرم. مما ساعد على توزيع ثروات وتبديدها في كثير من الأحيان^{٩٤}. ومع من حقق طفقة مستقرة من كبر زعمائهم. وعمل هذا بفسر مدرة لأحبار لمروية عن أي عداء ظهرو للأعيان في البصرة من ناحية. واستمرار ضرب من نكيان القبلي فيها بفترة طويلة رغم صهور مجموعة كبيرة من الأعيان في حياتهم. والواقع أن الاعتبارات السياسية كانت على وجه عموم أكثر العوامل فعالية في محافظة على بيع بضم تقبلي الذي كان سائداً بالضرر وهذا بالنصع لا يعني التقليل من شأن مدرة كعامل حصري في مجتمع مختلط كمجتمع نصرة. خاصة حين يقدار مجتمع آخر كمجتمع مكة قبل الإسلام حيث مرر نشاط التجاري لوضع القبلي^{٩٥} فقد كانت كل العوامل

٩٢ ابن سعد ٣٣/٥ .

٩٣ ابن الأثير: الكامل ٣٧٦/٣ ، الطبري ٧٧/١ - ٩ .

٩٤ ابن سعد ١٥٦/٣ - ٧ ، البلاذري: أنساب ٣/٤ ، ٢٥٧/٥ ؛ ابن قتيبة: عيون ٢٣٩/١ - ٥٠ .

٩٥ Watt Muhammad at Mecca; Integration, 5.14 .

وفي أيام الولاة المذكورين كعهد الله بن عامر نذري بنى "سوق"^(٦٢) ورياد^(٦٣) وعبيد الله ابنه والحجاج شقت اقنوت وأجريت الأنهار وازدهرت المواصلات المائية. وسرعان ما حلت النصرة محل فرضة الأئمة القديمة كأعظم مركز تجاري على الطريق لتجاري قديمه الذي كان يربط الشرق والغد ولروم وازدهر سوق العرب واحتذب نخارة لبدو إلى درجة أحمت معظم الأسواق التي كان العرب يتاجرون فيها في شرق الجزيرة أيام حداثتهم. وقد أصبح هذا السوق إلى جانب أهميته التجارية مركزاً يتجمع فيه العرب على اختلاف ألوانهم ودرجاتهم من البدو والخصر.

أما المدي نذري أثره هذا سيطر تجاري على الوضع لقمي في مصر تأثيراً مباشراً فذلك مما يصعب تقديره. فمن بعض النواحي كان رديد عدد لأعياء في فرع من الفروع عامل فيه لفرع أكثر منه عامل إضعاف. إذ كثيراً ما كانت عوائل تستفيد من ثروت أفرادها الأعياء الذين كانوا يعطون لفقراء ومسكين من قبائلهم ومن غيرها. ويبدلون الأموال في سماحة وكرم، مما ساعد على توزيع ثروت وتديدها في كثير من الأحيان^(٦٤). ومع من خلق طبقة مستقرة من كبار رؤسائهم. ولعل هذا يفسر ندرة لأخضر مروية عن أي عداء صاهر للأعياء في مصر من ناحية. واستمرار صرب من تكوين لقمي فيها لفترة طويلة رغم ظهور مجموعة كبيرة من لأعياء في حياتها. ووقع أن لا اعتبارات النسبية كانت على وجه العموم أكثر لعموم فعالية في عداوة على نوع الصدام القمي الذي كان سائداً بالمصر وهذا مانع لا يعني نفيس من شأن التجارة كعمل حصاري في مجتمع محتفظ كمجتمع لنصرة. خاصة حين يقارن بمجتمع آخر كمجتمع مكة قبل الإسلام حيث سر نشط لتجاري نوضع القبلي^(٦٥) فقد كنت كل لعمام

٦٢ ابن سعد ٣٣/٥ .

٦٣ ابن الأثير: الكامل ٣٧٩/٣ ، الطبري ٧٧/١ - ٩ .

٦٤ ابن سعد ١٥٩/٣ - ٧ ، البلاذري: أنساب ٣/١٤ ، ٢٥٧/٥ ، ابن قتيبة: عيون ٢٣٩/١ - ٥٠ .

٦٥ Watt Muhammad at Mecca 1 - 14 .

عن المصدر قد أدى ضرورة إلى إضعاف روح التضامن القومي التي كانت سائدة حين كان الشمل مجتمعاً. إذ واجهت هذه الجماعات ظروفاً مختلفة في بيئاتها الجديدة التي استقرت فيها. وقد صعدت هذه الظروف انبثاق حياة المجموعة لوقعة تحت تأثيرها بطريقة تجعلها مختلفة عن حياة أي مجموعة في أي بيئة أخرى. وإن كانت تحت تأثيرها أقرب للأسباب وهكذا صارت ظروف لحظة هي التي تحدد مصير هذه المجموعات وتتحكم في تصرفاتهم. وقد تصوع هذه الظروف مصاح مجموعة بعضها بحيث تجعلها مدقصة لمصاح إخوانهم في منطقة أخرى.

وكانت مثل هذه الاعتبارات على وجه العموم هي التي دفعت فئات الكوفة مفتاة إخوانهم من فئات مصره الذين يسمون إليهم في معركة الخمل. فقد كانت تميم الكوفة تحارب تميم مصره وهكذا كان شأن بقية القبائل^(٦٨) وكانت نفس الدوافع تعمل عملها في معركة صفير^(٦٩) وغيرها من المعارك، حيث كانت المجموعات قسبية تحارب المجموعات التي تسمى إليهم في الحاح الآخر. إذ كان الاعتدال لأوب للإقليم والبرغم السياسي الذي يؤمنونه وحين استنفذ القصر قسبي في حرسه، وأحسن قسبته بن مسلم الماهي المصري دن سليمان بن عبد الملك مفيداً على تحجته من ولأيه، أخذ يسب جميع القبائل، وكان معظمهم من فئات مصره. فلامه قسبته بأهله بقوله «مأربنا كأيوم قض». ولله ما اقتضت على أهل نعلية وهم شعارك وذيابك حتى تناولت بكرهم أنصارك. ثم لم ترص بذلك حتى تناولت تمياً وهم حركك. ثم لم ترص بذلك حتى سولت الأرد وهم يدك^(٧٠).

وكانت الضرورات الاقتصادية تضطرهم أحياناً لوقوف كعصرين حصة

٦٨ الطبري ١/٢٢٠٢ - ٣.

٦٩ نقه ٣٢٨٧.

٧٠ ص ٢ ١٢٨٩.

في مدسنتهم بعيفة مع تكوفة^(٦١). وقد عثر الأحنف بن قيس عن هذه الواقعة الجماعة حين تحدث بسار بصرة أمام الحليفة عمر بن الخطاب كما مرَّ من قيس^(٦٢) وقد تحلَّى هذا التضيُّم في مناسبة أخرى حين وقف أهل بصرة وقتة رحل واحد في راعهم مع أهل تكوفة حول مكية بعض مدحوق بني أشركو معهم في اختناحها^(٦٣).

وكل هذه الميول والاتجاهات تبرز مدى التحول الذي طرأ على مفهوم عصية. فقد أصبح السروع إلى المدينة يحل تدريج محل السروع إلى القبية. ولكن الآثار النسبة لتصورات لأخرى كثيراً ما عاقت من اضطرد هذا التحول إذ كثيراً ما تعرضت ناسك المحتجج المصري لمصعب من جراء التحاليل وصحبه. أوهم تنوع المصالح الخيرية وحملاتها. فقد حالت هذه دون بروز اتجاه سياسي واضح في المدينة ستره به عالية السكان وكان انقسام تقبل الكثرة إلى فروع صغيرة مستقلة إلى حد كبير عن بعضها يحور في ذات الوقت دون هذه التبدل وروز قيادات قوية لها فعالية يقسمها الجميع وذلك حسارة على انصر أيضاً. فقد كسب مهلب - ألع شخصيات بصرة - شهرته من قتله لجوارح. وكان بفصي معصه حياته اعمدة خراج نصرة في ميادين لقتل. وجهل لأحف بن قيس^(٦٤) رعيم بني سعد من كيم في بعد نفسه وقومه عن الاشتراك في المرحمت التي كانت تحدث. وكان دئم دعوة إلى لحد وعله لندرة القعدة حمة قوية كان معصه حكام نصرة من خارجها وحتى حين أتيحت لأهل بصرة الفرصة لاختيار حاكم منهم

٦١ انظر الثعالي. لطائف المعارف ١٦٧ - ٩ ؛ المقدسي ٣٣ ؛ ابن الفقيه ١٤٤، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٩٠، ١٩١، ٣١٥ ؛ البغدادي. تاريخ بغداد ١/٤٩، ٤٤٤.

٦٢ انظر ص ١٣ أعلاه

٦٣ الطبري ١/٢٦٧٢ - ٣.

٦٤ دائرة المعارف الإسلامية مادة الأحنف.

عد هروب عبید الله بن زیاد حاکم بني أمية عام ٦٤ هـ، ٦٨٣ م استقر رأيهم على قرشي قبيل الحضر هو عبد الله بن الحارث. وهذا نسب استطاعت الأرستقراطية القرشية وثقافة الحاضرة على التوزن بين قبائل البصرة رغم ضعف سندهم قسلي^(٧٥)

الفصل الثالث

الحياة الثقافية

كانت حياة مصر الثقافية انعكاساً حقيقياً لأوضاعها السياسية والاجتماعية. فقد كانت التيارات المتصارعة التي صاحبت نقاب العرب سطياً من حالة لدولة إلى مرحلة لحياة الحضارية الواضحة تحت بدورها ضرورياً محتفلة من التيارات الفكرية تمثل في عمومها كل وجوه تعقيب وشاقص في المجال الاجتماعي وقد تبين لنا من قبل أن تصور مصر الاجتماعي لم يكن متساوياً في كل الأحوال. وكثيراً ما شهدنا مراحل محتفلة من التصور تتجاوز عن الصعيد الاجتماعي لوحد بصورة مصر التي تمرقها احلاوت سياسية وثقافية. وتبي تمثل في جوهرها قبضة احياة ثقافية المدونة على حبه مصرية. وشدها لنوراء لفترة ضوينة من الزمن. لا تستقيم مع واقع إلا حين نقرها بصورة مصر الأخرى حيث تشهد أسس لحياة اجتماعية وثقافية الراسخة وهي تفوق في ثقة وإصرار عهود مجتمعتها لمحتاط وشاطئة. وفي المجال الثقافي كان بحث لشعر الحاهي وتأثيره العميق على الشعراء الأمويين الأوائل يصاحبه ويؤثر فيه حركات ثقافية أخرى انتهت بتحويل وجهة مصر الدينية والأدبية والفلسفية.

الانجازات الدينية

كان محر أهل الكوفة حين دعموا أن سبعين ندرياً من صحابة الرسول أقدموا

بين صهرائهم في حين لم نحط النصره بغير غشمة بن عزوار^(١)، فحراً تعوره الدفة. ولكنه على أي حال يشير إلى ضعف الأثر الذي حمله عليه الصحابة الذين أقاموا نصرته في الأحياء للاحقة ومع أن ابن سعد يحور بعددهم المائة والأربعين^(٢) إلا أن لنا حديث لا يعد عن الحق إن ذكر أن معظم هؤلاء لم يروا النبي إلا عرضاً حينما شهدوه ضمن وفود قائلهم في عام الوفود سنة تسع للهجرة^(٣)، وأن أكثرهم لم يسكن نصرته بل أقام بدلتها^(٤)، ويسو أن بعض من بعثهم عمر بن عبد العزيز ديبهم لم ينسحب في حمل ناس على مواصلة الاستنجاب إليهم كما كان الحال مع هشام بن عمرو إذ كان رجل من بني يتحطونه إلى عمرو بن الحصين وغيره من أصحاب رسول الله. فكان يقول: يكتم لتحتطوني إلى رجل لم يكونوا أحصر لرسول الله ﷺ ولا أوعى لحديثه مني^(٥).

ولعله هذا لضعف المكر في العلم لديني يعزى فقد ان النصره لأي قيادة ديبية فعنة تميز ناس طريقهم وتوجههم لموجهة الامت الكثرة التي تعرضت له ديبية. وقد برز ذلك في أوضح صورة في موقف أصحاب الحمل فقد كان عبي حريصاً على ابتعاد ضجة والنزير عن الكوفة لأن «فيهم رؤوس العرب وأعلامهم»^(٦)، سيما كان ضجة والنزير حريصين على عوصور للنصرة لأنها «البلد المضيق»^(٧) في تصورهما، إذ تفتقر إلى القيادة الفعالة.

١ ابن الفقيه: كتاب البلدان ١٦٦.

٢ ابن سعد ١/٧ ص ٦٤-٦٥.

٣ وردت أسماء ٢٥ منهم في وفد تميم و ٧ في وفد عبد القيس. انظر ابن سعد

٤ بطر ابن سعد حيث يذكر أسماء عدد من الصحابة من تميم بالذات

٥ ابن سعد ١/٧ ص ١٧.

٦ الطبري ٣١٣٨/١.

٧ ص ٣١٠٠، ٣١٠٤.

وقد ضل تعميم مرقن الكريمة 'لدي بدء' أو موسى في فترة مسكرة من عهد ولايته بدون عمر من بحساب وتشجيعه هم أوجه النشاط الثقافي بالمصر وأبقاها وقد أخذت هذه الحركة تزداد بازدياد تطور المصر. وقد بلغ عدد القراء حوالي ثلاثمائة قبل أن يعاد أو موسى بصرة عام ٢٩ هـ / ٦٥٠ م^(٨). وكان نشاطهم سياسي المشهود دليلاً على أهمية الدور الذي كانوا يقومون به في حياة المصرية السياسية والاجتماعية.

وفي هذا المجال لا بد أن نلاحظ أنه على الرغم من أن مسحي تطور ثقافي في بصرة كان على وجه العموم عكساً لتكوين سكانها مختلط إلا أن رغبة غير العرب للاشتراك معي في حياة المدينة على صريق متلاك حصبة عة العرب وديتهم تبدو واضحة في مثل القدرة عدم أكثر العرب واحتقارهم في بعض الأحيان من هذه المبرسات المنظمة^(٩) وكان شعاعهم بالحروب وعدم بصرةهم لأي فائدة محسوسة يمكن أن يجود من مصرافهم لدراسة الشؤون الدينية والثقافية قد ترك المجال للموحي للسيطرة على هذه الميادين سيطرة تكاد تكون دمة. ويمكن لنا بحث ملاحظة نشاطهم بتريه في حقل نظر النبي بإبقاء السيطرة السريعة على حرية لأسماء التي يوزدها من سعد غلبات شعب لأربع الذين استقروا بالمصرة. ولطيفة لأول التي تحوي واحد وعشرين منهم فيها مؤيداً^(١٠). ونصبة ثاسة التي تشمل خمسة وخمسين فيها سعة من المؤي^(١١). وفي النصبة الثانية التي تضم سعة عشر مؤيداً^(١٢). بينما تشمل النصبة الرابعة ثلاثين من مؤي من حملة الأربعة ونستين

٨ أبو نعم: حلية الأولياء ٢٥٧/١ بلا ٧١ - ١٠٨

٩ الجاحظ: البيان ٣٠٦/١ - ٧

١٠ ابن سعد ٦٥ - ١٠٢

١١ نفسه ١٠٣ - ١٦٦

١٢ نفسه ٢/٧ ص ١ - ١٣

تبعاً^{١٣} ولم تكن أهمية لموالي ثقافية، أمراً يقتصر على لقوة عددية. إذ لا بد من نسبة هذا إلى أن عدداً كبيراً من موالي البصرة الأول كانوا من سبي عين التمر التي كانت مقر المسيحية شمال كوفة. وافتتحها حديد بن الوليد عام ٦٣٣ هـ. وقد عُدَّش بعض هؤلاء بعض بوقت في جزيرة العرب قبل أن ينتقلوا إلى البصرة. فسير بن مولى أسد بن مالك عُدَّش بعض الوقت في مدينة^{١٤}، بينما نُعِبَ حُضْران ابن مولى عثمان بن عفان دوراً شطراً في خلافة مولاه^{١٥}. وكان محسن البصري قد ولد بالقرب من مكة وتربى في وادي القرى^{١٦}. وكان أبو العالية رُفيع بن مهران (ت ٩٠ م) يحضر حفظة نقرآن بعد وفاته برسول بغير سنين^{١٧}. ويُعدُّ في المنطقة الأولى من السَّعْي. وم يقف طموحه عند نقل الحديث ندي كان بروى بالبصرة من سائر المدينة سورة لتسمع من النصيحة وشاهدهم^{١٨}. وذلك لا عجب أن سيطر هؤلاء الموالي على حقول الدراسات الدينية والثقافية في البصرة في مرحلة مبكرة وقد اكتسبتهم مساهمتهم الفعالة في كثير من وجوه الحياة الروحية والثقافية للمدينة احترام الجميع وتقديرهم فكان ابن عباس يرفع أبا العالية على السرير فيما تحس فريش أسفل^{١٩} وكان الصحابي الجليل أسد بن مالك يقول للناس سنو محسن (المصري) فيه حفظ وسيد^{٢٠} وكان تأثير الحسن يتعدى المجال الثقافي كما يشهد بذلك تأثيره على الحياة السياسية في بصرة. فقد بلغ من تأثيره في هذا السبيل أن قالوا لاس الأثعث حين ثار على الجحجح. «إن سرُّك أن يُقتلوا

١٣ نفسه ١٤ - ٥١ .

١٤ نفسه ١/٧ ص ٨٦ - ٧ .

١٥ ابن سعد ١/٧ ص ١٠٨ .

١٦ نفسه ١١٤ .

١٧ نفسه ٨١ .

١٨ ع ٨٢ .

١٩ ابن الصماد: شعرات الذهب ١٠٢/١ .

٢٠ ابن سعد ١/٧ ص ١٢٨ ؛ ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢/٢٦٤ .

من حولك كما قُتِلَ حور حمل عائشة فأخرج الحسن، فُرْسِلَ إليه وكرهه^(٢١).
وكان نفوذه كبيراً في ثورة يزيد بن المهلب عام ١٠١ هـ / ٧٢٠ م فقد كان يقود
المعارضة ويشبط الناس عن آل المهلب^(٢٢).

وبما تجدر ملاحظته أن معظم هؤلاء أعضاء سواء أكانوا من الموالي أو من
عرب أكدوا في تعاليمهم ولاءهم لفكرة الجماعة كما يتبين من نشاط أفراد منهم
كعمران بن حصيش (ت ٥٢ هـ / ٦٧١ م) ومطرف بن شحير (ت ٨٧ هـ /
٧٠٦ م) اللذين عثرا عن هتاهما البالغ الجماعة وضرورة الوقوف بحسب حين
تعرض وحدتها للخطر من جراء تهاجر الأحداث والجماعات^(٢٣). واعتزل مطرف
في فترة ابن الأشعث وفي فترة ابن الزبير. ودعته لحرورية لمسهها فرص وقال
عمران بن حصيش: «لا حديث حديثاً لعل الله أن يفتح له في الجماعة إني أراك
تحب الجماعة؟ قد قتلت. لأنك حرصت على خسارة من الأرملة، لأنني إذا كنت
الجماعة عرفت وجهي^(٢٤)» وكان اعتداهم وتوسلهم في المسائل الدينية والسياسية
قد ساهم في إكساب شخصية متميزة تلك مساحة السيرة التي تميل إلى الطاعة
والأخذ بناصر الجماعة ما أمكن. وكانت هجماتهم متولبة على نحواً وشيعة
وعنصرية وكرهيتهم معضمة من سموهم «أهل الأهواء» وهم كل المخالفين لأهل
السيرة تخفف من حدة تأثير السياسي والاجتماعي ونظف من تأثيره على حياة المدينة
المدنية، وتجذب نحوهم عواطف قسم كبير من السكّان. وهذا الموقف المعتدل
بصير إلى حد كبير بعداء أي شعور قوي بالكرهية نحو العرب مسمى
بشعوبية بين الموالي الذين وهوا أنفسهم لدرست لدينية بالمقارنة بالآخرين

٢١ ابن سعد ٧/ ص ١١٨ - ٩.

٢٢ الطبري ٢/ ١٣٩١ - ٣ : ابن حبان ٢/ ٢٧٤ - ٥.

٢٣ ابن سعد قصة ١٠٤.

٢٤ قصة ١٠٣ - ٤.

من اشتغلوا في ميادين الثقافة الأخرى^(٢٥).

كان تداعيل ثقافات متعددة مصدر من فريسية وهندية ويونانية وغيرها مما كان له مجتمع لمصر المحيطة بمحنة لوثقة، عند لأحرب انسياسية الأولى سوء كست نك أحزاب النشعة أو الحوارج أو لعناية أو المرحنة أو غيرها مدهيت معتدة كـ لها الفصل في تحويل طبيعتها نسياسية الأولى بالتدريج إلى مرحلة كثر شمولاً من القطر عسسي المتعمق، الذي يتعرض لكثير من اقتضابا ومن بين مسائل لدينية في إضر المذهب المتكامل وكان مذهب المعتزلة بالذات قد أخذ في الظهور كمذهب واضح قبل نهاية العصر الأموي^(٢٦).

ومن الخدير بالذكر هـ أن عدم اهمهم للأمويين لسياسة الأفكار وميراثها في نفس ما دمت لا تعرض لسلطتهم أو شكل تحدياً لدولتهم. قد ساعد عسوم على حرية تبادل الآراء خاصة في المجال الديني، فتركت لتيارات المسيحية ويهودية أثرها على رواية الأحاديث وتفسير تفرق ومدارس الكلام. وأحدث لذيانات المدريسة القديمة تطل برأسها على استجاء وحفاء بعد أن زالت انضمامه العيمة التي واجهتها عصور الإسلام في المدينة ويجب أن لا ننسى بكرة المبعومت عن هذ المصدر ومضى تأثيره عن تصور أهميته الحقيقية، فقد كان تأثيره عظم على لحيه الفكرية، وقد نجم عن عدم اهتمام الأمويين بحماية أخلاق الناس ودينهم كما حاول لحلفاء العباسيون من بعدهم. أن وجدت كل ألوان العقائد والديانات تربة خصبة للنمو والانتشار ولم تنجح العديدة لم يحدث في هذ مجال إلا ظهور عباسيين الذين كست سياستهم ترتكز على استغلال شعور لدي لا عرض السياسة. وعندها تبين لناس مدى انتشار هذه المذاهب الأحسية

٢٥ ابن الأثير: نزهة الألباء ١٧ ، ٨٤ .

٢٦ W. C. Hill, Political Attitudes of the Marazban, Journal of the Royal Asian Society, Paris 1-2, April, 1963, pp. 38-57

ونسره في مجتمع لإسلامي. وفي هذه الفترة تقييد صصلاح أهل لأهواء: الذي كان يطلق على أصحاب مذاهب الدينية المتفرقة في أواخر العصر الأموي. وأصبح لاسم الجليل الذي يشملهم في أوائل العصر العباسي هو «الزنادقة» واتخذت الدولة كل التدابير اللازمة لصمد مدتهم الطاعني.

الدراسات اللغوية والنحوية :

دعم ان لدراسات ندينية وثيقة الصلة بالدراسات النحوية إلى درجة يصعب فصلها، إلا ان إسهام النصارى الحقيقي كان في مجال لدراسات اللغوية والأدبية أكثر منه في مجال الدين قطعيان العصر الأحمي على المدينة. ودرغنه الخامجة في تعمقة الحكم حدد، كان مبدء لسبيل لحركة لا تفر مع الزمن فقد تعم عبر عرب الأوئل مبدء نغمة عن العرب. وشرعوا بدورهم في تسهيل مهمة تعم نغمة على احوهم المواني بوضع القواعد وتصميم أسس الدراسة. وسرعان ما كشفت هذه لحركة عن امشاكل وتعقيد لذي يحفها. بد كانت ترتبط بقضايا أساسية لا بد من وضعها في الاعتبار. فرغم ان حركة كانت حركة تطوعية، إلا انها لم تكن تخلو من آثارها المحصورة على المجتمع والدين. وكان تعم للغة وسيلة لعاية هي قدرة على فهمهم في منحازين لاجتماعي وديني. وكان الجواب لديني أكثر ثارة للإلهام إذ كان حصر تحريف النص قرآني وفساده بواسطة هؤلاء المواني مسلمين لذين يخفون العرب عظمي وحقيقياً وقد استدعى استمحاء الموصي النحوية تدحل نرمني. وكانت لحضرة التي خطها ريد (٤٥ - ٥٣ هـ / ٦٦٥ - ٦٧٢ م) حين اقترح اتخاذ التدبير لإرساء القواعد لصبط تعم اللغة، استجابة لحاجة حقيقية محسوسة^٣ فقد كان مد تعمق من مسألة مواني قصية الأميين من الأعرب لذين أحوو يتعمون كتابهم شمس في أعداد متريدة وكان قصور الخلف العربي

٢٧ ابن النديم. الفهرست ٩٠ ؛ ابن الأثير: التزمة ٣ - ٤ ؛ أما الحديث عما قام به علي بن أبي طالب في هذا المقام فنثار جدل طويل .

ومع عدم علامات الإعجام وأشكال يضعف من المشقة التي يواجهها المعلمون والمتعلمون على السواء، وإلى هذه الفترة ترجع المحاولات التي تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٦٧ هـ / ٦٨٦ - ٧٠٧ م) من أنه سهل المهمة بنقط المصحف وأبرز علامات السكك^(٣١). أو يوضع أسس النحو عمدة^(٣٢). أو بإنجازه مهمتين معاً^(٣٣) وبماض في كتب الأقدمين لا يخفى عليه فتشوا للنحن من حرء محاولات المواني الأوتس بس اضطروا إلى تعلم العربية وهم في مقتل العمر. ولكن لأحيان التي جاءت بعدهم كانت أحسن حالاً إذ ولدوا في مصر وتربوا في محيط عربي وكانت فرصتهم في تعلم اللغة ووجدتها أكثر. فقد شعر الساس بأبعاد قضيتهم وأحسوا بالحاجة لبدل الجهود لمساعدتهم في امتلاك ناصية لغة وكانت أساليبهم في استعمال لغة التي تثير صحت عامة لغوب وسخرينهم في بعض الأحيان، تقابل بحذبه ولاهتمام من قبل بعض العلماء والباحثين^(٣٤) فتذكر المصادر في هذا المجال اسم أبي الأسود لدؤلي مرة أخرى، ونقره بالمحاولات الأولى لتعليم لغة عربية تلياً مصصاً^(٣٥) وكان أشهر تلامذه عسمة بن معاذ وميمون لأقرن من لمرس^(٣٦) وإلى جهودهما وجهود قرابهما نصر بن عاصم (ت ٨٩٩ هـ ، ٨ - ٧٠٧) وبجيسى بن يعمر (ت ١٢٩ هـ / ٧٤٧ م)^(٣٧) يرجع الفضل في إقامة الأسس العلمية لسحو العربى وقد استعان المولي بموروثهم ثقافي وصقوا طريقة المهجية المنظمة التي استفادوها من ثقافتهم المدرسية على دراسة سحو العربي وحصص السحو بالتدريج لتعقيد لصدوم وصار بالمقارنة بمروع الأدب الأخرى أكثرها تنظيماً وبمحيء الخيل

٢٨ ابن النديم: الفهرست نفسه ؛ السيوطي: النونية ٢٧٤ ؛ المهرز ٢/٢٤٦ - ٧ ؛ بلا ١٢٨ - ١٣٥

٢٩ الفهرست ٦١ ؛ ياقوت: ارشاد ٥/٢٦٣ ؛ الترهة ٥ ؛ الرازي: الزينة ١/٧٣ .

٣٠ ياقوت: ارشاد ٦/١٠٠ ، ٧/٢٠٠ ؛ Haswood: Arabic Lexicography, 11-16

٣١ الفهرست ٦٠ .

٣٢ المهرز ٢/٢٤٧ .

٣٣ الفهرست ٦٢

٣٤ المهرز ٢/٢٤٧ ، ٢٤٩

ثاني من السعويين قرر أن يوجد كضام علمي سوي. وبلغ تعلم شدة على يدي
عبد الله بن أبي إسحق حضرمي (ت ١١٧ هـ / ٥٧٣٥) وعيسى بن عمر الشافعي
(ت ١٤٩ هـ / ٧٦٦ م) وكلاهما مؤلف. وأبي عمرو بن العلاء فارس حضرمي
وسّع القياس^(٣٥) في محاولة لمصطف القواعد وتوسيع دائرة تطبيقها غرض السيطرة
على علم النحو كمعيار شديد الانضباط. ونذكر المصدر أنه ذهب بعد من
دبت مبحث في فائدة النحو شرحه للعلل النحوية^(٣٦). وكان عيسى بن عمر
من أول علماء الذين سجلوا علمهم بالكتابة. فقد كرون أنه كتب ما يريد من
سبعين كتاباً في النحو لم يبق منه سوى الجامع وهو مصنف صحيح في النحو
والإكمال (أو المكمل) مختصر له^(٣٧).

وقد صرف هؤلاء علماء الأوز كل ضيقهم لدراسة القرآن ولغة العربية ودلوا
اعتراف العرب بهم ككثافات في ميادين اللغة والنحو. وقد اضطر بيع مشهور وخطيب
مؤثر كالحجاج بن يسأل يحيى بن يعمر عن فصاحة كلامه^(٣٨). مما يدل على
عيد هؤلاء العلماء من جهة وميل كثير من العرب الذين استقروا في الحصرة إلى
فقدان فصاحتهم وسبقتهم النحوية من جهة أخرى. فقد وجدوا أنفسهم تحت
صعصعة متواصل لتعني عن قدر كبير من قاموس الصحراء والخضاع لغتهم ضرورات
الحياة المدنية وسرعان ما أصبح الاتجاه لحفظ سلامة اللغة وفصاحتها بالتقعر
وتصيب الألفاظ الحوشية ونحوية ندي قد يصل أحياناً إلى الاحتراع ووضع^(٣٩).
مدعاة للسحرية وتندر. وقد ترك أساس من هذا النطع لبعض علماء عرب

٣٥ اسيري أخبار النحويين النصريين ٢٥ و الترهة ١٠ .

٣٦ ابن الأثير نزهة الألباء ١١ ؛ السيوطي ، بقية الوعاة ٢٨٢ .

٣٧ السبويي الزهر ٢/٢٤٨ .

٣٨ ياقوت : إرشاد الأريب ٧/٢٩٦ .

٣٩ الزهر ٢/٢٤٦ ؛ السرياني : نمرة ١٩

كبيحيى بن يعمر وعيسى بن عمر النذير كانت أساليبهما المتكثفة مصدر متعة وتفكه^(٤٠).

وكان هذه الحركة تتركز في ميدان آخر فقد أخذ بعض هؤلاء العلماء لأوائل على عاتقهم مهمة إخضاع فن الشعر الذي كان أهم شرط عقلي للعرب، للتقنين والتقييد وكان هجاء الفرزدق لعنيفة لعنسة^(٤١) وعبد الله بن الحضرمي^(٤٢) وسخريته منهم كموثيين. رد فعل طبيعي لندحهم في فن كان العرب يرون أنهم أصحاب الكلمة الأخيرة فيه وفي تقويمه.

الدراسات الأدبية :

نمت الحركة الثقافية التي بدأت بمحاولات الرواد الأوائل المتواضعة في دراسة تقرير الكرم واسعة العربية شأوا بعيداً وقرن الأول لم يسلع مداها. ففي الوقت الذي كان فيه شعراء المحول يشتمون أستاذ حماهيرهم في مرند بإشياء قصائدهم أو بدقصور بعضهم بعضاً ويحجرون بمصائل قائلهم ويعين على حصومهم نقائصهم. مرددين بذلك صدى الصرخة وحلفاء الذي كان يستعر بين الأطراف التي يستعمل إبيها. كان مسجد البصرة شهيراً يتحول إلى مركز ثابت للعلم والدراسة. وقد توسعت بحققت صغيرة المتواضعة التي كان يحس فيها رجال كعمران بن حصين في بداية حركة^(٤٣) وصور اتساع مجال المعرفة يدفع العلماء لتحخصص، وفي أيام الحسن البصري (ت ١١٠ هـ / ٧٢٨ م) أصبح غمساء اللغة (هل عربية) جماعة متميزة لها حقائق الخاصة بجانب حقائق المحدثين ورواد الأشعار وانقراء

٤٠ إرشاد الأريب ٢٩٦/٧ + الزهرة ١٢ + الملاحظ : البيان ١٧٣/٢ .

٤١ السيرافي ٢٤ + الزهرة ٧ + إرشاد ٩٢/٦ + البية ٣٦٨ .

٤٢ الزهرة ١١ + البية ٢٨٢ + وانظر الباب الخامس من هذا الكتاب .

٤٣ ابن سعد ١/٧ ص ٥ - ٦ .

ولمخصص وسوهم^{٢٤} وفرق ذلك انضم لنحخص دراسة لفنون الأدبية المختلفة رغم ضيعة التعليم الموسوعية في هذه المرحلة التكوينية وقد كان هناك من لدواعي وتدويع الاحتجعة وثقافة ما دفع بالدراسات الأدبية خطوات إلى الأمام

وقد حكم هذا الاهتمام الناجع بالذعة وشعر من احتياج عامين مهمين. أولهما رعة قدش عرب في حياء أيجاد ماضيها عرض رسم صوية مشرفة لحضريها في محل المقارنة لخصومي السبسيين وقد أدى ذلك إلى ستهلال واسع لشعر الجاهلي وغيره كوسيلة للذعية. ونهى ذلك جمع لشعر الجاهلي كما سينصح له في فصل ثان من هذا الكتاب وفيهما رعة درسي القرآن نكريه ولغويين في إيجاد استوها. فقد كان هؤلاء في مساعيهم لشرح كلمات القرآن وتفسير معانيه واستمدح قوم على الحق يردون نفس المورد، ويستعينون بالذعة الشعرية كمصدر لشوهاهم. وكان تدفق هؤلاء العلماء الأوائل في معجزة مادتهم الجاهلية وتقديرهم لها الذي يكاد يصل درجة سفسيس يرجع في بعض ما يرجع إلى التقدير كبير الذي كانت قدش العربية تكلم موروثها الشعري الذي تنحلي فيه أصداء ماضيها لأثير، والذي كان ما يزال ذا معنى في حياتها في بداية عصر الأموي ولكن استخدام هؤلاء نرواد لشعر كذمة لغوية. أي تحده وسيلة لغوية، ترك آثاره البعيدة على دراسة الشعر وتذوقه لآماد طويلة.

وكانت أهم شخصية في حقن الدراسات الأدبية أبا عمرو من علماء معاصر من الحضرمي وقد رتقت الدراسات الأدبية على يديه درجات سامية. وكان أبو عمرو إلى جانب تفوقه في الحق متصلعاً في لدرست انقراية والشعر^{٢٥}. وذكروا أن كتبه التي كتبت عن العرب المعصحاء قد ملأت بيتاً له في قريب من اسقف.

٢٤ ٤٤ ياقوت: أرشاد ١٣٥/٤.

٢٥ ٤٥ السيوطي: المهر ٢٤٧/٢؛ انظر الباب السادس من هذا الكتاب؛ دائرة المعارف الإسلامية.

يتقد في قلوب فقهاء النقة وعقوبهم ، فاستمروا في تسجيلهم ودراستهما . ولكن الشعراء الذين كانوا من قلم مصدر المادة اللغوية التي يعتمد فقهاء النقة عليها ، أصبحوا يسورون في مهابة لمضاف حول محور لعلماء وينتقون عنهم الهداية والمصحح . وأحدث مدارس الكلامية تسمعين ثم ترحم عن بيوت وشمس والخنود . كل هذا في حجاب منحول كبير في محال ثقافي ولاحتياجي صالحي المروي ثم أحبت آثاره العميقة في جو البصرة الثقافي .

البَابُ الثَّانِي

مَنْزِلَةُ الشَّعْرِ فِي مَجْمَعِ الْبَصَرَةِ

الفصل الأول

تفرّد الشعر البصري

لا يبدو شعر البصرة مقدّسه بغيره من شعر الأمصار الإسلامية لأخرى محلياً
فحسب بل متفرداً في أكثر من وجه ومع أن هذا القول قد يصح عن كل إنتاج
أدبي يدّعي لأدبي لأي مصر من الأمصار متفرد من حيث هو إنتاج لتفاعل
عصر متميزة اجتماعية واقتصادية وسياسية وغيرها عاشها المنطقة معاً، إلا أنه
يصفى على بصره أكثر من انصافه على أي منطقة أخرى. وهذا متفرد لا يقف
عند حدّ الشعر وإنما عند شمل الصور الذي لعمري في حياة البصرة والبصرة لسريعة
لتسوق لأدبي البصرة في الأمصار الأخرى كهيئة موضع البصرة في موقعها
الصحيح .

من تصوّر ظروف الحذر الاجتماعية وسياسية شأن شعر العزل وروح شعراء
سوء في المدن أو سودي في تجويد آله فهمه . فحجم عن ذلك لودن من العزل.
وكان ظهور طبقة من الشباب "الفرشي" يعني تدارج في المدن مخروم من كل نشاط
مسيحي . ولدي كتاب الأمويين يعدّون عنه الأمل ويشجعونه على الانصراف
لبنو وانعش . قد سعد في اساح النون بتحقيقي من شعر نعل "وكان ففر

١ انظر طه حسين: حديث الأربعاء ج ٢ 1236-8. Nicholson Literary History of the Arabs

السانية نسبي الذي جعل فيه الإسلام فعنه. صافحة إلى اندفاع أعرب الخيرية إلى
الأمصار مع الحبوس العربية وما يحدثه ذلك في توسعهم من لوعج لحرفة وأحيان
وتشويق إلى ديارهم. كل ذلك فتح المنح وسعاً لشعر المدرسة عذرية وكلا
لحسوعتين المحققية وعذرية أسهمت في تصوير ذلك شعر الذي تنحى فيه
شخصية الشاعر وفرديته إن حسب تصويره نروح العصر والعاطفة المسيطرة على
بيئته سواء كانت المنعة الحسية والسحت عن المدة في المدة أو لحرمان المصبي.
ولشوق لحرين في غيرها. وكان هذا الإشغال شعر حب والمدة من جانب
آخر يصيب من دائرة النوع شعري من حد من تأثير الشعر عامة على مجتمع.

أما في الكوفة، صنو البصرة، فقد ساعدت غلبة القبائل البينية الجنوبية
مصادرة على القنائل الشمية النورية في تخفيف حدة الصراع القبلي لا صراع
السياسي وشعر الذي عثر عن هذا الوضع له أهمية الخاصة من حيث تصويره
لعقائد الأحزاب الدينية السياسية خاصة الشيعة والخوارج.

أما بيئة الشعر الثالثة: الشام حيث كان البلاط الأموي، فقد كانت تردّد
على وجه عموم أصدا الشعر في المناطق الأخرى ولم يكن هذا من فصل على الحركة
الشعرية في عصر بني أمية إلا في أضيق الحدود^(٧)

وفي البصرة دون غيرها نجد لوان شعر التي تنحى فيها بطريقة أقرب إلى
الشمول وجه التطور الاجتماعي المختلفة ومرجده. والتي كانت من الحيوية ونقوة
بحيث تركت آثارها التي لا تنحى على المصاق الأخرى في الأمر ضرورة الإسلامية.
وواقع أن لعلاقة حميمة بين شعر البصرة وحياتها اليومية كانت من القوة بحيث
يحس المنع لما ترويه مصادر العربية عنها وكأنه لم يكن لتصريين من شأن

بشعرهم غير قول شعر ورويته وهذا "الإحساس الذي تركه هذه الروايات في نفس معنصره وهذه الواضح عن الوقوع يؤكد حقيقة هذا الشعر ولدور هذا الذي كان يقوم به في حياة "نصره" وبالنظر إليه كحرف من النشاط العقلي لعدم حيث زدهرت هذه التقصاص والوعاظ وغيرهم وأحدث تصديق وتناسل تحت اسم الناس وسيطرة على عقولهم وأدواقهم. فإن الشعر كان قوة حثيثة فعلة وكان يؤثر على حياة نصره وشأنه على بحري فيها إن درجة لم يعدها أي مصر آخر .

ولكي تصور أهمية هذا النشاط الشعري ومدى إعجاب جميعات المختلفة به وإكبارهم له فلا بد من إشارة سريعة لأهم العوامل التي لمع بها هذا الشعر مكانته العالية في مجتمع البصرة .

غلبة النزارية :

إن منزلة نصره بحكمة مفرقتا بل يعجب عليها نعصر مرري . وهذا كان منه في شرق مغربة بدات وعلى رأسه نجم . هذه البرلة تنسج ما إلى حد كبير كثير من الاتحادات ومظاهر الخاصة - نصره . فعلة نجم بدات كان هذا أثر بعيدة المدى على المجازي الاجتماعية والأدبي وأول هذه الآثار استمرار التقليد الخاهني في قول الشعر عند توقف قصير بسبب أثره العبيد التي أحدثت ظهور الإسلام في حياة عرب . فقد عرفت نجم تراثها الأدبي ثم وسم الاعتراف بها كمستودع شعر عربي في الإسلام ولم يكن التمييز بين رده لقد صرح من شعر حامي فحسب^٣ بل كان فيهم خير شعراء الإسلام قال أبو عبيدة معمر بن أشج . « كان اسعراء في خامسة من قيس وليس في الإسلام مثل حصه نجم

٣ انظر الفصل السادس من هذا الكتاب ص ٣٠٠ - ٣٠٢ لقصة القرزقي . وانظر زكي ٢٢٣ - ٢٢٥ .

في الشعر^(١) وكانت فروع هذه القبيلة تمثل من نواح متعددة تقاليد العرب الأساسية في محل الاحتجاج والأدب. ومن ثم كان حرصها الشديد على إخفاصه على الأسلوب الخفي في نظم الشعر وفيه لم يضع مصرة موضعاً متميزاً من غيرها من الأمصار. وكان قرب مصرة من السادية العربية مما قوى من هذا الاتجاه. وكما لا يُغفل في هذا المجال لعمل المحقق لأخرى^(٢) التي كانت تحول نمط الحياة العامة وتحدث آثارها في درجات مختلفة ومتفاوتة على نطاق الشعراء فقد كانت الآلام المصاحبة لفترة الانتداب الحضاري وصحة في اتجاهاتهم وآثارهم الأدبية. ولعلّ ما يبدو من هذه الآثار متشوّساً ومضارباً في بعض الأحيان كان صورة صحيحة لزمائهم لشيء كان شديد الاضطراب. فالمشاكل العديدة التي صاحبت تحول المدوين لشيء إلى طور الحصار وما لزم ذلك من مضاعفات المعارك السياسية الأخرى في الداخل والخارج قد أثرت في مجرى شعر الذي قبل تحت هذه الظروف وحددت صيغته فتركت لخلافات القبيلة المتوطنة وما نجم عنها من عديد القصايا التي تصوّر عدد لنمو وتمردهم، بصماتهم القوية على كثير من شعر العصر. وأصبح الشعر نظراً أكثر من أي وسيلة أخرى أداة لتعبير الأولى عن الاتجاهات السائدة والوعاء الأمثل لضموم العصر الملحة.

وبسبب أصدق من كلمة محمد بن سلام الحكيم عن الشعر لعربي عامة في حديث عن البصرة. فقد قال: «وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون وجاء الإسلام. فتشاعت عنه العرب. وتشاعروا بالجهاد وعرو درس والروم. ولُهِت عن الشعر ورواياته فما كثر الإسلام وجاءت فتوح وضمائم العرب بالأمصار، راحوا روية لشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتب مكتوب وأنفوا وقد هلك من العرب من هلك بلموت ولقتل. وحفظوا

١ الأعرابي ٦/١٩، ياقوت: إرشاد ٢٥٨/٧.

٢ انظر الباب الأول ص ٤٩ - ٥٥، ٥٩ - ٦٩.

أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير^(٦). وكانت قمة الشعر في أيام الإسلام الأولى واضحة. وقد منع لأمر في هذا الشأن أن الشعراء الذين عرفوا بحسامهم في الجاهلية ثم هجروا إلى مصر لم يعجزوا عن المحافظة على مستوهم القديم فحسب بل تزلو عنه درجات حين قالوا الشعر في الإسلام. وأصبح كثير من الشعراء المجيدين كالنمر بن تـؤلب^(٧) والمجـلـ نـعـدي^(٨) وعمرو بن الأهم^(٩) وغيرهم لا يدكرون إلا بمجادهم السابقة في جاهلية. فقد قلَّ ظهور الإسلام وما نجم عنه من اهتزاز مصدر المجتمع الذي عهده من حدٍ عمق ريتهم شعيرة^(١٠). ودعت الظروف الجديدة سوء في سادبة أو بلدية ترو حيل حديد من الشعراء يختلفون في تحاياتهم ومشرهم اختلاف مصدر حياة مصر ناعصة. وقد ظهر هذا الخيل بعمل يعتر عن الوضع الجديد بكل ما فيه من تنوع وغنى.

الأمويون والشعر :

بانحسار آثار الصدمة الكبرى التي تعرضت لها الحياة العربية بظهور الإسلام، وبعد أن اتضح أن النضام القديم يمكن تطويره ببعض التحوير ليناسب الظروف الجديدة ويخدم عايتها، انتظمت المجتمع الإسلامي حركة عيفة هدفها وصل لماضي بالحاضر وتبنيته لللائم متطلبات الحياة الجديدة. وقد وضع من دراستنا السائلة أن نقاات لحارة الناحية عن تصافر جهود القبائل العربية، ولتي توجهت لإعلاء كلمة الإسلام داخل جزيرة العرب وخارجها، سراعاً ما أصابها الوهن بتبديدها في ذلك الصراع الطويل لحسم موضوع الخلافة بعد مقتل عثمان. وكان تنصر بني أمية الذين اشتهروا بتمسكهم بتقاليد الجاهليين فاتحة لعهد جديد

٦ ابن سلام: الطبقات ٢٢ - ٢٣.

٧ الأصفهاني: الأغاني ١٥٧/١٩، المبرد: الكامل (المصنف) ١٩/٣ - ٢٠.

٨ "الأعني" ٤٠، ٤٥.

٩ المبرد: الكامل ٦٨/٢، ابن قتيبة: الشعر ٦١٤/٢ - ١٥، الخاقاني: البيان ٥٣/١ - ٤، ٢٧٨، المفضليات ١٢٥، ٤٠٩.

١٠ انظر ابن قتيبة: الشعر ٢٦٥/١، المرزباني: الموشح ٦٢ لأثر الإسلام على الشعر.

وبسبب لبعيدات بعيدة المدى في نظرة الحاكمين والمحكومين على السواء إلى الشعر. وليس عيباً هذا أن ندحض ما يوجه إلى الأمويين من تهام بالاحتراف عن تعاليم الإسلام وعملها في معاملاتهم وحكمهم. ولكن الأمر المؤكد أنهم شجعوا بمختلف الأساليب والسبل إحياء تراث العرب التقليدي وثقافتهم وعلى رأس ذلك الشعر. وعلمهم كانوا في ذلك أحرصاً لظاهرة عامة أكثر منهم سبباً، فهم يستحيون بداعيها دون أن يكون لهم سلطان عليها وتفسير ما حدث من رجعة إلى تراث جاهلية عن عهد بني أمية بأنه نكوص عن الإسلام وردة إلى حيدة الجاهلية تفسير قاصر يبرز النتائج عن أسبابها ويهمل في تعينه لمظاهر دوافعها لحقيقة رجعة العرب على عهد بني أمية إلى تراث الجاهليين كانت رجعة موجهة بتأثير الإسلام. عرضها لغوص في أعماق الماضي لأحد حير ما فيه. ثم لرجعة إلى الحاضر لإثراء الشخصية. وذلك بوصفها بجذور ماضيها بحيث يكون حاضرها المشرق متداداً لماضيها مجيد. كانت الشخصية العربية محتاجة لتأكيد عنصر القوة فيها لتتحمل أعباء الرسالة التي ألقيها على كاهلها دين الإسلام ومن هنا جاء هذا الاهتمام الكبير بتراث الجاهليين. أدى هذا الاهتمام بالأمويين إلى اضطراب إلى الشعر نظراً لتكاد تحلّف بصره من سبقهم فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم صحيح منه»^(١١). وكان يعني بذلك أن لقرآن قد حلّ محله في الإسلام، وذهب أحد من ذلك تنحريمه كل ألوان الشعر التي تذكر الناس بالجاهلية، فكان يسجن من يحلف أمره من شعراء^(١٢) أحياناً. ويقتص عطاءهم أحياناً أخرى^(١٣).

١١ ابن سلام حدثت ٢٢

١٢ نظم بن قنطلة الشعر ٢٨٦١١ نسخة المخطوطة

١٣ خبر لأدي ١٦٥٠١٨ حيث يخصص عطاء الأعجب محيي حسنة دهم ويذكر مع ذلك لا يمدح شارات في المصادر لتشجيعه الناس على رواية الشعر فقد ذكروا أنه كتب لأبي موسى: «أمر من قللك شعر شعر فيه يد عن معدي لأخلاق بصوب تري ومعرفة الإسلام». وأوضح أنه مدح شعر الفاضل. «وإن من مدح حق قومه خبر صاعدت حرب أيتب منها رجل بين يدي حديثه يستعمل به بكرة ويستعطف بها اللثم البيان ٨١/٢».

وسلك عثمان بن عفان مسلكه فسبح شاعراً تخمياً من نصوص العرب هجائه أم
 حصومة^(١٤) وكان عبي بن أبي طالب على براعته في الشعر فيما رعموا سيء لص
 - شعر فقد ذكروا أن عدساً أب هرردق جاء به إلى علي بعد الجمل منصرة فقال :
 «إب ابني هذا من شعراء مضر فاسمع منه قل: «علمه القرآن». فكان ذلك في
 نفس الهرردق فقيده نفسه في وقت وأتى أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن^(١٥).
 وقد توعد ابن عباس وأبي علي على البصرة الشاعر ابن قسوة وسجده يوماً وحداً ثم
 طرده من البصرة^(١٦) ونعمه لعمور هؤلاء الحكم الأول من الشعر يعرى بعض السبب
 في قلة الشعر الذي يمتدحونهم ويمدحهم في حين كان ذلك ديدن أشعر قبلهم
 وبعدهم إذ ما أكثر ما مدحوا من سقهم في الخاهلية ومن جاء بعدهم من الزلا
 وكان اتحاد الأمويين كما يمثله معوبة بن أبي سفيان مخالفاً لذلك محاولة نكاد
 تبلغ مرتبة المدقصة فقد ذكروا أنه كتب إلى زياد - إذا جاءك كتابي فأوفد إلي
 ابنك عند الله فأوفده عليه فما سأله عن شيء إلا أنعه له حتى سأله عن الشعر
 فهو يعرف منه شيئاً قال : فما معك من رويته ؟. قال : كرهت أن أجمع كلام
 الله وكلام الشيطان في صدري. فقال : أغرب ! والله لقد وضعت رجلي في تركب
 يوم صفتين مراراً ما يجمعني من الانهزام إلا أنيات ابن الإطدبة حيث يقول :

أبت لي عفتي وأبى بلاتي وأخذني الحمد بالثمن الريح

وكتب إلى أبيه : أن رؤه الشعر - هرؤه فما كان يسفر عليه منه شيء^(١٧).

وكان عند ذلك بن مروان أوضح سبيلاً في تشجيعه حفظ شعر وروايته
 حين قدم الكوفة فجعل يعرض أحياء العرب لسبعة فقام إليه معبد بن خالد الجديني

١٤ البلاذري: أنساب ٨٤/٥ - ٥ : وانظر الباب الخامس أدناه .

١٥ الأعاني ٦/١٩ .

١٦ نفسه ١٤٤/١٩ : وانظر الباب الخامس أدناه .

١٧ السيوطي : المزهرة ٣١٠/٢ - ١١ : ابن رشيقي : العمدة ٢٩/١ .

وكان قصيراً دميماً وقام إليه رجل آخر طرير حسن الهيئة وسأطما عن دي الإصبع العدواني وكان منهم وطلب إنشاد شعره فم يحب الرجل الطرير وأحاب معد قال معد. فقال عبد الملك لصاحبي كم عطائك قال سبعة ثم قال لي: كم عطائك؟ قلت أربعة قال أنت أحق بالسبعة. خذوا من عطاء هذا ثلاثمائة فريدوها في عطاء هذا فاصرفت وعطائي سبعة وعطاء صاحبي أربعة. قال: فرغب الناس من يومئذ في الأدب^(١٨).

وكان الحجاج يسير في نفس الاتحاد باستشهاده بعرب الشعر خاصة الحاهلي منه أكثر من استشهاده بآيات القرآن الكريم في خطبه وكانت الغنية متجهة لتشجيع رواية الشعر وقوله وكثيراً ما عصت السلطة نصرف عن نظرف الشعراء ونزقهم ما داموا لا يوجهون ذلك لنظام الحكم القائم

الشعر والقبائل :

ولم يقف تأثير الأمرين على المجال الأدبي عند هذا الحد بل تعداه إلى جوانب أخرى فقد عمقت سياستهم في استغلال الخلافات لقبية لصالح أسرهم الحاكمة أسدب اسرع بين مختلف لطوائف والجماعات وأسهمت في انتاج أنواع من الشعر عاتها لأساسية إعلاء شأن المجموعة التي ينسب إليها الشاعر^(١٩) وكانت نتيجة هذه سياسة في ميدان الشعر ازدهار المهجاء والمدح وانحصر ازدهاراً لم يسبق له مثيل. صحيح أن هذه المنون الشعرية كانت بضاعة الشعراء المزحاة قبل الإسلام. ولكنها لم تبلى المنزلة التي بلغت في زمن بني أمية وفي البصرة بالذات من حيث الكثرة والحيوية. وتعميل ذلك يسير فقد أخذ الشعر يصبح باطراد من أهم وسائل الدعاية السياسية التي يعترف الجميع فعاليتها وكانت الفصائل التي تنصارع في بعض الأوقات

١٨ العسكري: المصون ١٦٩ - ١٧٢ + الأغاني ٣/٣ - ٤ .

١٩ سمعيل القول في هذه المسألة في الباب الثالث

نعمهده لنفسه مكاناً في حبة المعتك السباسبى كثير ما حوت إلى شعرائها تعضد
مهم دعاويهم وكان هؤلاء يطعنون في ذكر اتحادها ومساوىء خصوصها وكان نتيجة
ذلك أن الشعر أصبح أكثر من أي وقت آخر شديد الالتصاق بمجرى الحياة
يومية في النضرة إلى درجة بدأها في بعض الأحيان كما ذكرنا من قبل وكأنه
سعل ناس تشعل

وقد بلغت اهبة شعر كوسيلة لاءلاء شأن النفسية وتصخم صورتها درجة
دفعت كثير من القائل التي وجدت حصيتها من الشعر قبلة إلى تريف شعر
لديهم ونحو شعراءه قبل الإسلام^(١) وبلاحظ هما أنه حتى هذه النعمة الشخصية
لقوة التي تظهر في كثير من شعر الحياء هذه الفترة متفرعة عن تيارات التنافس
القبلي لسائدة. وعنصر الشحفي فيها مظهر للشخصية الجماعية لكمنة

ولكن رغم هذا نوصع فلا بد من الحذر في معالجة العلاقة بين كثير من هذا
شعر وحقائق الحياء. فإن حظ الشعر كان يتأرجح مثل حظ القبائل بين طريقي
نقص. وقد ذكرنا من قبل أن قوة الشعور القبلي وضعفه يعكس من بعض الوجوه
مدى سيطرة الدولة وحظ ذلك من القوة والضعف فحين تضعف السيطرة المركزية
وتنهز يبع "شعب القبلي" حياءً درجة الحرب الفعلية ويسري شعراء للتعبير
عن صدى هذه المعارك في أشعارهم بحكم وضعهم كمتحدثين مناس لأطراف
المتحاربة التي يشتمون إياها وفي أوقات سلم حين تفرض الدولة سلطانها وتكبح
حماس الثمرد والثورة. تستكين القبائل كأحزاب لحكم نقابون وتخضع لسلطة.
ويحدد الشعراء مثلها نهديء والسكية ويصرفون إلى ذلك اشط العادي من منافستهم
لعضهم بعضاً في ذكر مآثر قبيلتهم وتصوير اتحادها العبرة. وبذلك يقون قضيا
الصراع القبلي الكثرى حية في عقول الناس وفلوبهم. ويستمررون بذلك الصراع

على نطاق صِيق لا يتجاوز في بعض الأحوال مستوى الشخصي كما كان الشأن بين جرير والفرزدق اللذين كانا من تميم ولكنهما ينتميان إلى فرعين مختلفين. وكان أمرهما شامداً قوياً في مجال الشعر على ذلك الشرح بين جدّي الجدية المفرطة ونعنية مصحكة للنشاط القليل حين يُدار تحت سلطة مركزية. فعلى الرغم من أن النزاع بين الشعريين الكبيرين كان يصطبغ في بعض مراحله بصعنة العداء الشخصي الحاد حيث يكل الشتم والسباب الفاحش وتقذف النساء من كلا الجانبين بأقبح تهمة. فإنه في صميمه صدى لصورة من تنافس القليل أعمق جذوراً وأوسع مدى. ولأمر المؤكد أن العلاقات الشخصية التي كانت تقوم بين معظم الشعراء غير هذين في هذه فترة كانت حرة لا يتحزأ من أوجه نصراع كبير بين القليل، وكانت الظروف السائدة هي التي تحدّد درجة الانحياز حيث تترجح العنصر الشخصي بالعنصر الخدمي فعلى الرغم من أن مفهوم الوحدة العنصرية القديم للقبيلة كان يتعرض لضغط متصل في حياة المحاصرة إلا أنه لم يتلاش كثيئة وبقي حياً في نفوس العرب حتى بعد أن دانت القليل نفسها في إطار المجتمع الحضري. وهذا المفهوم لا يقيم حداً وصحاً بين الفرد والمجموعة التي ينتمي إليها ولذلك فالحياة التي يوحه لفرد لا يقف تأثيره عند فرد المهجور بل ينظر إليه كحياة للمجموعة التي ينتمي إليها. فعندما سمع الحسن البصري قول الشاعر .

لولا جرير (٣١) هلكت بجيله نعم الفتى وبثت القبيلة

سأ سامعية إن كان نيت مدحاً أم هجاء. وعندما أجابوه بأن الشاعر مدح الرجل وهجا قومه قال لهم « ما مدح من هجي قومه » (٣٢) وهذا يصر الجهد الكبير التي كان شعرا وعبرهم من شعراء القبائل يبدلون في ذكر مآثر قبائلهم وتعداد فصائلهم حتى في أكثر المدققات مساساً بأشخاصهم كأفراد كما سيتبين لك بعد قليل .

٢١ جرير بن عبد الله البجلي صحابي مشهور .

٢٢ الأغاني ١٩/١٤

الشاعر بين القبيلة والدولة :

كنت الصنعة لوثيقة بين هذا لشعر والحياة البصرية مثير جدل كبير ومصدر تكهنت حول حدية دور الذي كان يصطلح به في مجتمع البصرة. هل كنت عابته امتع المتفرجين من أهل البصرة. ويرد به إلى التسمية وقصع أوقات الفراغ قبل أن تغرب التي ستقرب في العراق. ولم يكن يرد به جداً ولا ما يشبه الجدل^(٣٣) ؟ أم أنه كانت له حوب عمسية متعقبة بحياة الناس ؟ وكل هذا التساؤل يُبقي بدوره تساؤلاً آخر عن علاقة الشاعر بمجتمعه ومعنى ذلك إذا محتاحون في تفويده لأهمية الشعر الحقيقية في مجتمع البصرة لتعيين مقام لشاعر اسمه وتتمتع طالع حفظه في مجتمع الذي يتبع له شعره. فهكاه الشاعر في المجتمع تعكس بوضوح مكانة الشعر في ذلك المجتمع. وما أن الشاعر البصري ليس إلا حلقة في سلسلة التطور للشعر نعرفي فلا بأس من إشارته سريعة لمزلة الشاعر لسابقة خاصة في الحاهنية. إذ أن ما مره في البصرة لا يعدو أن يكون امتداداً لما كان في ذلك الماضي قار أبو عمرو بن العلاء : « كانت الشعراء عند العرب في الحاهلية لمزلة لأسياء في الأمم حتى خلطهم أهل الحضرة فكتسبوا بالشعر فزلوا عن رستهم. ثم جاء الإسلام ونزل القرآن تهجين الشعر وتكديبه، فمروا رتبة أخرى. ثم استعملوا المنق وصرع فقتلوا واستهان بهم الناس^(٣٤) » ويفصل الملاحظ القول في ذلك حين يذكر أن « الشاعر كان رفيع قدرأ من الخطيب وهم إليه أحوح لردّه ماثرهم عديهم وتكبرهم بأبيهمهم، فما كثر الشعراء وكثر الشعر صار لخطيب أعظم قدرأ من الشاعر^(٣٥) » وهذا التدهور في مكانة الشاعر كمنحدث لسان قومه الذي بدأ في أواخر الحاهنية يستفحل مع الزمن كما توحى بذلك كلمات أبي عمرو السلفي وظهور للإسلام تعرض استقلال القبيلة لتدهور مصدر. وحلّ

٣٣ شادي صف بصر. واتحاد في شعر لامي.

٣٤ الزاري: كتاب ر. ١٠٦٩٥

٣٥ الملاحظ: البيان والبيان ٣/٢٧٢.

محله تحكم الدولة الذي كان يتطلب - على الأقل من ناحية نظرية - خصوي
عرب وتقديم ولائهم كمواسين وليس كقبليين وقد ظل الكيان لقبلي يتحوّل
وبشكل ضوّل فترة بني أمية ولفترة كبيرة من عهد بني العباس بحيث يتّسع مجتمعا
حضريا أكثر تجاساً وتربطاً وصارت القبلية حتى في البصرة التي عرفت بتمردّها
تتصرّح باطراد في إطار حماد يفرضه الإسلام وترعاها لحلافة التي يدبّس لها العرب
كسببين لولاء وفي بعض الأحيان وشيعة للسياسة لأمرية المرسومة. كانت
هذه القبيلة تلعب دورها كحزب من إطار السياسة العام. ولكن اتصافها الذي لا
ينفصم بكيار المجتمع الأكبر م يكن موضع شكّ بأي حال من الأحوال. وكان
انصراف حتى في أوج استعاره موجهاً في المكان الأول للحصوص على أكبر نصيب
من السلطة أو الخطوة لدى الحليفة لحاكم أو ولاته وقد كان هذا الوضع مصدر
حيرة كثير من الشعراء الذين وجدوا أنفسهم في حانة تمزق بين ولائهم لقبائلهم
وحولهم من الحكام ورجال الإدارة الذين كان همهم شغل تميم أطراف القبيلة
وشل حركتها وقد برهنت سببه الدولة في نهاية المطاف على تفوقها. وتخضع الشعراء
عن تدوت فيما بينهم لإعراء الأمراء وإرهاهم فبما صرف بعض شعراء كل
جهودهم لخدمة الأمير وكادوا أن يصلوا في معيته إلى مرتبة شاعر البلاط كما
كان شأن يزيد بن مفرّج في حصرة عبّاد بن زياد بن أبيه. جمع بعضهم كما
كان أمر حريز مع الحجاج. بن وطيفة الحامي عن شرف القبيلة ووظيفة شاعر
الأمير فما شعراء الذين كانت تستبدّ بهم نعتهم القسبة كالفرزدق وذين كانوا
يعدون من أنفسهم دافعا قويا لبصرة قومهم في كل حانة فد تحلّيتهم لسلطة لدولة
القاهرة كان دائما كما تبين للكثير منهم، باهظ الثمن (٣١).

ورغم كل هذا فمن الممكن أن نلاحظ مصالحة بين موقف الشعراء عامة من
الدولة وبين معنى لتطور العام الذي كان البدو يخضعون تمقتصاه في اصرار وتلازم

نسنة الدولة فسين شعورٌ قوياً بالتمعة وبحرية والاستقلال الذي قد يصل أحياناً
درجة تحدي لسور لدى بعض شعراء في بداية العصر الأموي. فقد وجه الشاعر
مهرزدق في قصيدته قصيدة لمعوية بن أبي سفيان يؤنبه فيها على احتجاره ميراث
الحنات المجاشعي أحد زعماء تميم ويقول له فيها :

أنا كل ميراث الحنات ظلاماً وميراث حرب جامدٌ لك ذاتبه
أبوك وعمي يا معاويَ أورثنا ثراثاً فيحتار التراث أقاربه
فلو كان هذا الدين في جاهلية عرفت من المولى القليل حلايه

وهو لا يسي أن يفاجر الحليفة ويتحداه ويخاطبه باسمه دون تصحيم أو لقب
ولو كان هذا الأمر في غير ملككم لأدبته أو غصصاً بالماء شاربته
وكم من أب ي يا معاوي لم يكن أبوك الذي من عبد شمس بقدره (٣٧)

فما كان من معوية إلا أن أدى إلى أهل الحنات ما معه عنهم أولاً وهو
رعم (٣٨) ودخل مهرزدق على سبيان بن عبد الملك فقال له: « من أنت ؟ » .
وتحهم له كأنه لا يعرفه فقال له الفرزدق: « وما تعرفي يا أمير المؤمنين ؟ » قال
« لا » قال: « أنا من قوه منهم أوفى العرب، وأسود العرب وأخود العرب، وأحلم
عرب، وأفرس نعر، وأشعر العرب » قال: « والله لتبين ما قلت أو لأوجع
ضهرك ولأهدم دارك » فذكر له في تفصيل ذلك حاجب ابن دراج. وقيس بن
عصم، وعنتاب بن ورقاء الرياحي، والحريش بن عبد الله السعدي، وقال وأما
أشعر العرب فهناد بن بدك يا أمير المؤمنين ! فاعظم سبيان ما سمع من فخره ولم
ينكره. وقال: « ارجع على عقبك فإليك عبد، شيء من خير » . فرجع الفرزدق وقال
أبينك لا من حاجة عرضت لنا إليك ولا من قلة في مجاشع (٣٩)

٢٧ ديوان الفرزدق ٤٥/١ .

٢٨ نظري ٩٧، ٢ . لأبي ١٩ ٣٧ . بعض ٦٠٩ . من سلام ٢٥١ . دائرة المعارف الإسلامية مهرزدق

٢٩ العقد الجديد ٦٣/٢ - ٤ .

وهذا شاعر تميمي آخر يدعى أبو حُرّة ألح عليه قومه في نذهب للحليفة
وقالوا له: لو أتيت يزيد بن معاوية لمرضك وشرفك وألحقك بعية أصحابه
هلست دونهم؟ وكان أبو حُرّة يومئذ علامة حدثاً وكان معاوية حيناً أميراً يرمذ.
فلما أكثر عليه قومه في ذلك وفي قوطم: «بك ستشرف بحصرك إيه» قال:

بشرفني سيفي وقلب مجانب لكل لئيم باخل ومعلج
فما أكثر عليه قومه وعموده في تحره أتى يزيد بن معاوية فأقام سبعة أشهر
لا يصيب إيه فرجع وقال: والله لا يراني ما حميت عبي الله إلا قتيلًا أو أسيرًا،
وأنا يقول:

فوالله لا آتي يزيد ولو حوت أنامله ما بين شرق إلى غرب
لأن يزيداً غير الله ما به جنوح إلى السوأي مصر على الذنب
ومضى يهجو ويهجو بني حرب ويعيره بشربه الخمر ويتساءل في مخربة:
أيشربها صرفاً إذا الليل جئته معتقة كالمسك تختال في القلب
ويلحى عليها شاربها وقلبه يهيم بها إن غاب يوماً عن الشرب^(٣٠)
وكن مثل هذ التهادي في اتحددي كان مسموحاً به في الحدود التي لا تحمل
منه خطراً على الحاكمين وسلاً لإثارة عواطف المحكومين عليهم وسستير أن
لأمرء الأشداء كريات ومصعب والجحاح لم يكونوا يترددون في حسن من يتحداهم
من الشعراء وقتلهم إن دعت الضرورة.

وقد جاءت الدولة لتلعب دورها الإيجابي كعامل مساعد في إضعاف اعتماد
الساعر على مجموعته القبلية في كسب عيشه، وذلك سببته بدلاً أكثر عره
ومبعة وكنت المكاسب المتاحة لم ربطوا أنفسهم بجمية الأمير ونعتج باب
الثراء وسعود مامهم قد أثر على مجرى الشعر من أوجه عديدة. فقد كان لأمويون

تمتضي سيستهم المرسومة مفراطي الكرم مع اشعراء الذين يمدحونهم ويرفعون من قدرهم. وكانوا على وعي تام بعدوة الكثيرين من سكان العراق ونحجار لحكمهم وندنت بجأؤ لكفة أساليب الترغيب وترهب لكسبهم لحنهم. وكان اشعراء دابة الدعاية التي لا يختلف على فعاليتها الناس. وأصبح لغشور على شاعر محيد يخدم أعراضهم المعسة مما شجع صدورهم وبقى منهم الترغيب وفرحة وطن ملاص الحنقاء ومجنس ابلااة والأمراء في الأمصار مائة لكل دي شاعرية. وفي اسي حدث تحرير دلالة على الأهمية التي كانوا يضعونها لشطر شعراء. فقد ذكروا أنه قدم على الحكم بن أبوب وهو خليفة الحجاج يومئذ مدحه. فلما قدم عليه استنطقه فأعجبه طوره وشعره فكتب إلى الحجاج: «أه قدم عني أعرابي شيطان من الشياطين». فكتب إليه: «أر بعث به إلي». ففعل. فقدم تحرير على الحجاج فأكرمه وكساه حنة صرية ورله فكتب أباداً^(٣١). ولم يثبت جرير أن أصبح شاعر لحجاج، ولكن الحجاج رأى أن يذهب شاعره لخليفة قائلاً: «أنا لظافة تعجز عن المكوفة وبكي موفدك على أمير المؤمنين»^(٣٢) فبعث تحرير إلى عبد الملك بن مروان ومع أن الخليفة نجحهم لشاعر أول الأمر مدحه لحجاج وحين قالو له: «هذا تحرير اس الحطفي مادحك وشاعرك». قال: «من مادح لحجاج وشاعره». لكنه ما لبث أن استمع إليه وأعجب شعره فمحه مائة من الإبل وصحافاً من القضة^(٣٣).

وكان إسهام مثل هؤلاء اشعراء في إحياء سياسة الأموية في العراق وغيره عضياً رعم مظاهر التمرد والعصيان التي كانت تبدو منهم في بعض الأحيان^(٣٤).

٣١ نضه ٤٨/٧.

٣٢ المققد الفريد ٣١١/١.

٣٣ لأعي ٦٦٧ ٧. بن سلام ٣٥٧. المحطد كتاب تاريخ ١٣٢ ٤. وقد مدح حجاج أيضاً النعمان وبه رؤية لويبة بن عبد الله (الأعي ٢١ ٨٨) بـ «مدحى عبد الله د برمة بسلامة (الموشع ٢٣٩).

٣٤ انظر الباب الرابع من هذا الكتاب.

وض بعض شعراء الذين لم يميلوا لربط أنفسهم ببلاد معينة أو لصرف جهودهم
 لخدمة لاتجاه سياسي معين كما كان حال الفرزدق. ظل هؤلاء يقدمون خدماتهم
 في أكثر أحوالهم لمن يدفع أعلى الأثمان، وذلك لحاجتهم لمال إن كان
 مما دعم مركز هذه الفئة المتاجرة بلسانها تطور آخر قد لاحظناه حوت منه من
 قبل فلسفة المتصصة من لدعية والندعية المصدرة التي تحتها السياسة الأموية
 هبات المدح الصالح لاردهاء هباء والمدح ليس على المستوى القليل فحسب كما
 نرى من ذلك من قبل بل على المستوى السياسي والشخصي أيضاً. وقد اعتزى هذين
 المنصّوران تصور كبير وأصبح ساس ينظرون إلى الآثار لثمة عيبهما في ضوء جديد.
 إذ لم تعد هذه الآثار مجرد كميات مزحقة تطلقها الشعراء في الهواء لإرضاء عروق
 الممدوحين وطبائفة حموج مهجورين، بل أصبحت مكسب مادية محسوسة تحيي
 القدرات والخصومات وكل خصامحين من ذوي شطع إلى مركز السلطة والنفوذ. فقد
 كان في مقدور شعراء بناء شخصية الأمر المتطوع إلى منصب المرتقب وترتين
 صورته. وكان مثل هذا عرد حريصاً على بدن العبي والمفيس في سبيل تحقيق
 غاية. ولذلك لم يأل هو ومثله جهداً في جذب كدر شعراء زمانهم لا لإرضاء
 بروائهم الشخصية فحسب بل لأنهم يعلمون أن سمعة لطيفة ولذكر الحسن
 وبصورة متأنقة هي أقصر نسل وأسرعها إلى دوثر حاكمين. وكانت هذه
 الدوثر نفسها تستخدم عن الأدوات لإحداث الآثار المنصونة في عقول الحكاميين
 وقومهم. وقد عثر عبد الرحمن ابن أم الحكم عن هذه نظرة البغية لموضوع المدح
 وهباء حين قال لفرزدق في ترم ومثل: «أفراش دعي من شعرك الذي ليس
 يأتي آخره حتى يسي أوله. وفل في بيتين يعقدن بالروة وأعطيك عطية م يعطيه
 أحد قط قبلي»، فغدا عليه وهو يقول:

وَأنت ابن بطحاوي قریش وإن تشأ تكمن في ثقیف سبیل ذي خَدَر غمر
 وَأنت ابن سَوَّار الیَبدین إلى العلی تكف بك الشمس المضيئة للبدر

وقال: «أحسنت، وأمر نه عشرة آلاف درهم»^(٣٥). ومثل هذا الحرص شديد على الذكر احسن والمعد عن كل ما يشين لسمعة أو يحلّل الذكر كثيراً ما دفع الناس، كما سيأتي لك في بعد^(٣٦)، إلى تطرف وتزيّد يذكران بك كان يحدث في الجاهلية. وكان الأمر يدعو في بعض الحالات إلى تدخل الدولة برتبى لفص السرع وكبح جماح التناحر الذي لم يكن يتسق وروح الإسلام

وكان هجاء بدوره سلاحاً في أيدي الحكمين يسلبونه على حصومهم فيشبهون سمعتهم ويحطون من مكنتهم. وأوضح شاهد على ذلك ما فعله لحجاج بن يوسف بن أبي صخرة حين أوعز لفرزدق أن يهجو ويثأر قومه^(٣٧). ولكن آل المهلب سرعان ما أعرو نفس لشاعر فدحهم ورفع من شأنهم ومثل هذا الصنيع من بعض شعراء العصر الذين لم يهتمهم في كثير أو قليل أن يتعاملوا مع حاسي الصراع ولا يترددون في هجاء نفس الشخص الذي مدحوه^(٣٨)، زرع لحوف في نفوس الناس وفتح هؤلاء شعراء قوة حارة استعبده أشع استعلال. وقد عثر سائر لدي فن أكثر شعره في عصر بني أمية عن هذه الظاهرة حين قيل له: «انك نكثير الهجاء!» فقال: «في وجدت الهجاء المؤلم أحد صنيع لشاعر من المديح الرابع. ومن أريد من الشعراء أن يكرم في دهر الشام على المديح فليستعد بفقر وإلا فليدفع في الهجاء ليحذف فيعطى»^(٣٩). ولدنك كان كثيراً ما يعقب المدح بالهجاء

وكان هذا لحوف حقيقة واقعة كما تشهد بذلك الروايات المتواترة عما كان

٣٥ العقد الفريد ٢٤٢/١؛ ابن رشيقي: الممعة ١٢٨/٢.

٣٦ انظر الباب الخامس من هذا الكتاب

٣٧ Hell, "al-Farazdaq's Leideer", ZDMG, LIX, 589-624, LX, 1-48 انظر

معد: أمية أخرى كما من يريد الأول حين أوعز للأخطل أن يهجو لأبصار (بن سلام ٣٩٧ - ٨)

وكما من يريد الثاني حين أمر الشعراء بهجاء يريد بن المهلب (نصف ٥٤٢ - ٣).

٣٨ ذكره أن جريراً لم يهج أحداً مدحه أو يمدح شخصاً هجاء (القائض ١٠٤٩)

٣٩ الأعاني (دار الكتب) ٢٠٧/٣.

بحديث نقبائل ولأفراد في هذا المجال. فقد اضطرت مجموعات قسبة عديدة للتحلي
عن حماية أفرادهم وحدلاهم لتسخر من الهباء. فحين هاجى لعباس الكندي
حريراً أنه كبدة فستعدوه من نفسه وضربوا أن لا يدكرهم في هجائه وذهبوا أبعد
من ذلك فذكروا له مسأوته حين قل لهم حرير . فأحرؤني بمساوية ان كنتم
صادقين . قل فمرشوه أمره أي بسطوه له^(٤٠) ومثل ذلك حدث لأحمر بن غداة
من عبد تقيس حين هاج حريراً فما كان من عبد العزيز بن عمرو بن مرحوم وكان
سيد عبد تقيس بالصرة وأمره سند وحده سيداً فشده وثقاً فأرسل به إلى حرير
وفى حكمه فيه. فمدح حرير عبد العزيز وقومه^(٤١). وقد فعل ذلك بنو حرام حين
هاج رجل منهم الفرزدق فجاء به قومه يقدونه إليه فقالوا: « هذا هو بين يديك
فإن شئت فاصرب وإن شئت فاحرق لا عدوى عليك ولا فضاخ قد برئنا إليك
منه » فخلّى عنه وقال:

ومن يك خائفاً لأداة شعري فقد آمن الهباء بنو حرام
هم قادوا سفيتهم، وخافوا قلائد مثل أطواق الحمام^(٤٢)

ولم نجد أم دي الأهدام نفيح أحد بني جعفر من هاج الفرزدق من وسيلة تنحي
قومها من لسانه غير المحي، بن قمر علب أي الفرزدق فعادت به^(٤٣). وقد وصح
حرف المصريين من لسان الفرزدق حين امتنع معظمهم عن مساعدة المؤار روح
الفرزدق حين عرمت على طب لطلاق منه. إذ تروحها دون رضاها. فرأت أن
ترفع لأمر لعبد الله بن الزبير في المدينة. ولم يقف بهم التواضع عند حد امتنعهم
عن مدها تركوة تمنصها. بل ذهبوا أبعد من ذلك حين رفض اشهود الذين كانوا

٤٠ ابن سلام ٣٨٠ - ٣.

٤١ نفسه ٣٨٣ - ٥.

٤٢ العمدة ١/٦٦ ؛ ابن سلام ٢٧٤ ؛ الأغاني ١٩/١١.

٤٣ ديوان الفرزدق ١/٣٦٧ ؛ النقائض ٥٢٥.

يحمون عدالة فصيتي أدء الشهادة لصالح^(٤٤) ولم يكن هذا نحوف محصوراً في المنصرة فقد تعدّها إلى مدينة حيث وجد الأنصار أنفسهم في موقف حرج إذ اضطروا لنعت شيوخهم في وفد للمردق الذي أمم بمديتهم يستمحيونه انعدرو ويصوبون منه ألا يهجوهم بسب شاب منهم أبدى تشككه في شعرية هقلو له: «بأ فراسك قد عرفت حالنا ومكاننا من رسول الله ووصيته بـ وفد دعنا أن سنبها من سنهاات نعرض لك فسنأنت بحق الله وبحق المصطفى محمد بـ حفطت من وصية رسول الله ووهبتنا له وه تمصحننا». فوهبهم لقرشي ترخه^(٤٥)

ويكن هذا لحوف ابدي كن يزعه الشعراء في قلوب يتفاوت بتفاوت أقدار بس ونظرمهم. فهناك من لدس من لم يكن بأبه لمدح شاعر أو هجائه فقد روى للمزدق: «لقيت نصيباً يثرب فقال لي: أنت للمزدق؟ قلت نعم. قال. أنت الذي يحاف لدس لسالك؟ قلت نعم. قال: فأنت الذي إذا هجوتي يموت فرسي هذا؟ قلت لا. قال فيموت وبدي؟ قلت لا. قال فموت أن؟ قلت لا. قال فدحلي الله في حر أم المزدق من رجلي إلى عقي. قت ويلك ولم تركت رأسك؟ قال حتى أرى ما تصنع الزانية^(٤٦)!

وقد عبّر جرير عن ذلك حين قال له ابه: «ما هجوت يوماً قطاً إلا فضحتهم إلا انهم قال. «يا بني لم أحد بء فأهدمه ولا حسباً أضعه». وكانوا رء عم^(٤٧) وقد كان جرير هجده شاعر يقار له لردخت. فقال: «وم معنى لردخت؟». قال: «القدح فقال: «دومة لا أشعه بمسي ألدأ وسله». وعق ابن رشيق على ذلك بقوله «هو جرير لذي غلب شياطين اشعراء وسكن شقاشق لقحو^(٤٨)».

٤٤ الأعالي ٧/١٩

٤٥ نفسه ٣٨/١٧ - ٩٩ النقايس ٥٤٧ - ٨٠

٤٦ العقد الفريد ١٣٩/٤ ، الأعالي ٣٧/١٩

٤٧ ابن سلام ٣٧٢

٤٨ المدة ٢٠٣/١

وقد دلّ ذلك على أن نفس عملية الهجاء قد تنجم عنها نتائج عكسية إذ يمكن للشاعر محلل أن يسلط الأصواء حتى حين يهجو على الخصامين من الأفراد وجماعات فيكسبهم بذلك الشهرة والرواج. وقد وضّح ذلك الفرزدق حين ذكر في معرض هجائه لباهلة :

وكم من لثم قد رفعت له اسمي وأطعمته باسمي وليس بطاعم^(٥٩)

وكم من الشعراء من حاول التعرض لجرير ليهجوهم فيدلوا حصاً من اهتمامه^(٥١) وقد حوّل ذلك بشار في صباه ولكن جرير أعرض عنه وكان الشاعر يقول مضمناً «لو هجاني لكنت أشعر الناس»^(٥٢). وكان اللعين المنفري يسعى لمسبب البدة حين أقحم نفسه في الصراع المستعير بين جرير ولعيث ولكلهم لم يلقيا إليه بالألف^(٥٣).

ولكن الأمر كان يختلف حداً مع من كان شرفهم ومكانتهم مصدر إغراء كبير لتفحمة المستعيرين من الشعراء فقد ذكروا أن المهلب لما رُد الخروج إلى الأزارقة لقي جرير وفرزدق فقال له : «يا أبا هراس هل لك أن تكلم المهلب حتى يضع عني سعت وأعطيك ألف درهم ؟» فحكم الفرزدق المهلب وأجابه. فلامه حديع رجل من عشيرته وشك ذلك في خيرة روح المهلب وقال لها : «لا يرال الآن لرحل يحيى فيسأل في عشيرته وصديقه». فلامت خيرة المهلب فقال لها المهلب «إنما

٥٩ ديوان الفرزدق ٢/٢٤٦ ؛ وانظر كامل المرد (المرصفي) ١/١٦٧ حيث يقول ابن ميادة :

أرادت وداكم من سفاهة رأيا لهاهجوها لما هجتي محارب

معصاذ إني اسبي عشيرتي ونفسي عن ذاك المقام لراغب

و ص ١٩٠ حيث يقول الشمر دل

يا أيها المتغي شمني لأشتمه إن كنت أعمى فإني عنك عبر عم

٥٠ ابن سلام ٣٨٠ .

٥١ الأغاني ٣/٢٤ .

٥٢ ابن سلام ٣٤٣ .

اشتريت عرضي منه^{٥٣} ولم سئل المهلب عن ربه في حرير وغيره زندق وهو براء
 الجوارح قال: «لا أقول فيهما شيئاً» - وكره أن يعرض نفسه - «ولكن أدلكما
 عن من يهون عليه سخطهما: عبيدة بن هلال البشكري» (الخارجي)^(٥٤).

واستعان الأمويون بالشعر لخدمة عديتهم في محال آخر فقد كانوا على وعي
 بحكمه القاتلة: فرق تسد، فاستخدموا الشعراء في بذور الفرقة بين الناس
 وصرف أنظارهم عن قضايا الحكم بإعراقهم في صراعاتهم الداخلية خاصة في
 وقت السلم والاستقرار فقد شغل عبيدة بن زياد صعداً شعرياً صويلاً بين
 حرثة من بدر التميمي ونس من زعيم الليث وكند من حصص حصته^(٥٥) وشتهر
 بشر من مروان شاحبه نية الخصومة بين الشعراء والتي كانت تنتهي بإقحام قبائل
 وهو الذي اقترح الصراع بين جرير وشراقة لذي حين أوعر إلى هذا الأخير أن
 يهجو جريراً وكان يفهم أنك بصحراء انهاء ورسلوا إليه أبيات الهجاء ليحجب
 عنها^(٥٦) مما يوضح ضيعة هذا الصراع المفتعلة وكان بشر هذا السبب المباشر في
 ذلك المناقضة الشهيرة بين جرير والاحطل^{٥٧} وما حرته في عقابها من مضغعت
 باستقطابها على المستوى لشعري كل لعداوت لقبية وسياسية التي كانت قائمة
 بين قيس وتميم من جانب وبين قيس وتغلب من جانب آخر.

وكانت عدة بعض الحنفاء وأمرائهم خاصة سليمان بن عبد الملك^(٥٨) وبشر
 ابن مروان^(٥٩) أن يسدعوا الشعراء بتعصمين في مجالسهم ويطسبون منهم المصاخر

٥٣ لاغي ٢٨، ١٩.

٥٤ نفسه ٥٥/٧.

٥٥ نفسه ٢٣/٢١ - ٢٥. البلاذري: أنساب ٨١/ب.

٥٦ ابن سلام ٣٧٧. البلاذري: أنساب ١٦٩/٥ - ١٧٠ - ١٧٤ - ٥.

٥٧ البلاذري: أنساب لاشراف ١٦٩/٥، ابن سلام ٤٤٤ - ٣.

٥٨ الأغاني ٢٣/١٩.

٥٩ نفسه ٥٢/٧.

وسافرة وقد يذهب بعض الشعراء في ذلك مذهبه بعيداً كما حاول جرير مع
عديّ س الرقاع لعاملي الذي كان حاصداً بالوليد مداحاً له. فقد أذن الوليد للنس
دت عشية فدخلوا وأحد نس مجلسهم وتخلّف جرير وبسما هم كذلك إذا
جرير قد مثل بين السماطين يقول: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله إن
رأى أمير المؤمنين أن يآذن لي في اس الرقاع المتفرقة أولّف بعضها إلى بعض». فقد
وليد: «وسه ضمنت أن أخرجه عن ظهرك إلى اس». فقال جرير وهو قائم
كما هو :

فإن تنهي عنه فسمماً وطاعة وإلا فإني عرضة للمراجع

قال فقال له الوليد: «لا كثر الله في اس أمثالك». فقال جرير: «يا أمير
مؤمنين إنما أنا واحد قد سمعت الأمة فلو كثر أمثالي لأكلوا النس أكلاً». قال
فصرت إلى الوليد تبسم حتى بدت ثيابه تعجباً من جرير وحديثه. قال ثم أمره
فحس^(١١) وم يجد حاكمه حرم كالحجاج عضاضة في أن يدعو حريراً ولفرزدق
ليتبّه في قصره في لباس أدبهما في اجاهلية. فحاء الفرزدق وقد لس الديسح
ولخر وقع في قبة (حباء من آدم يكون للملوك والأشراف). وشاور جرير دهاء
بي يربوع فقلوا ما لس أدباً إلا الحديد فلس جرير درعاً. وتقلّد سيفاً.
وأحد رمحاً. وركب فرساً. وقبّل في أربعين فارساً من بي يربوع. وحاء الفرزدق
في هيئته، فقال جرير :

لبست سلاحي والفرزدق لعبة عليه وشاحاً كرج وجلال

أعدّوا مع الخز الملبأ فإنما جرير لكم بعل وأنتم حلالته^(١٢)

وم يفت اشاعرين ما كان يرمي إليه الأمير إذ لمحرو أن عادروا قصره بدأ
في تراسق بطحاء. فوقف جرير في مقبرة بي حصن. ووقف لفرزدق في اسرد.

٦٠ ص ٧٢٧

٦١ ص ٧١/٧ ، ابن سلام ٣٤٦ ، ٣٦٨ ، النقائص ٦٢٤ .

وسيسرعون فيما بينهم بأشعرهما. قال ابن ريد: فكنت أختلف بينهما يومئذ، فكان جريراً كان يومئذ أظفرهما^{٩٥}.

وفيما عد، رباد من أبيه ناي تعقب الفرردق، وطرده حرج نصرة^{٩٣}، ووليد بن عبد الملك الذي أمر بحد حرير وابن لجأ لعصياهما^{٩٤}، فإن لانه العام كان تشجيع مثل هذه التصرفات. وهذا طبعاً لا ينبغي أنه كنت هناك حالات كثيرة يدحاً فيها احكام تحت سائر المحافظة على الأمن لعام أو حماية لأخلاق. من مصادرة حريات الشعراء الذين يختلقون معهم شتى لأسبل والأساليب فتعرض الفرردق لعنوس مرتين أيام خالد القسري "اليميني"^{٩٥} وعمر من هيرة تيمسي^{٩٦} تعصبه الشديد لتميم، وفي فترة متأخرة وقبل مهبّر حكمه بي مئة آثار لمعترة الشعور لعام على بشر الذي تعرض رعيهم لعزل هتهموه، انتهك حرمة الأخلاق العامة وأفسد شداً بشعره الفاحش وشوه من النصرة لبعض نوقت^{٩٧}.

٩٢ نفس المصدر.

٩٣ انظر الباب الثالث من هذا الكتاب.

٩٤ انظر الباب الثالث من هذا الكتاب.

٩٥ الأغاني ٦٩/٧، ٧٣ - ٤ (حيث يذكر عمر بن عبد العزيز) ابن سلام ٣٦٩.

٩٥ ابن سلام ٣٦٩، الأغاني ٢٤/١٩، انظر الباب الرابع.

٩٦ لأعني ١٤١/١٨.

٩٧ المحاذف: البيان ٣٦/١.

الفصل الثاني

الشعر والشعراء

الرواج الشعبي :

كان هذه عوامل عززت مركز الشعر في مجتمع البصرة وصاعقت من أهميته وأصبحت الحاجة ملحة لقوله وكان على الشعراء تسمية هذه الحاجة شعر يناسب ومتنصت العناصر وخماعات مختلفة في ذلك مجتمع. فكان سببهم أن يهدو - وفي كثير من الأحيان أن يمدحوا - بحكم ليصنعوا فيصاً متصلاً من ما. وفي هذا تعيل كثرة شعر مدح في نتائج معظم الشعراء مد يد أي الأسود لدولي من غير استثناء بعض النحورج كعمران بن حطان. وكان عليهم إضاهة إلى ذلك ليدفع عن قبائلهم وعشائرتهم ومهاجمة خصومهم ومناقضتها كما ستبين ذلك فيما يلي .

ونكر هؤلاء الشعراء كانوا يصبوا على وعي دم بتطور آخر منبه شتبه شجعهم ويؤثر من نواح كثيرة على نظرتهم للشعر. ويدفعهم في بعض الأحيان لقوله فقد كان سوق البصرة الشهير بالمرند يتطور بسرعة فائقة لتصبح له مكانة شبيهة بثلاث بني كانت تسوق عكس في ضاهية. فتنبأ فيه بحال الوسع لتداد اسبع وتداد شعر وأصبح مثابة كبار شعراء من العراق ومن كل أنحاء شبه جزيرة العرب. وكان لكبار شعراء البصرة خاصة حرر وعززدق وأرعي السيري وأحياناً ذو الرمة

حقائق معروفة فيه يوجهب منها شعرهم لحماهيرهم^(١) وكان هذا لشاط الشعري
 أهميته الكبيرة كما يستدل من كلمات حرير حين قال لراعي: «إن أهلي ساقو
 في وراحتي حتى وضعوني قدرة انطريق بالمربد والله ما كسهم ذنب ولا أخرى
 إلا لأست من سهم من الناس، وإن عيبت بعثه أهله على رواحتهم من أكلاف
 حصص وهود يلتبس عليها بيرة والخير وأثم لله لأوقرن روحه مما ساء سوءة بني
 نمير»^(٢) وبذلك أصبح المربد مركزاً للإشعاع تفكرى ولأدني ضوا فتات الإبداع
 الذهبية في ترويح البصرة. وبما ضاعف من قيمته أن معظم القصائد العامة كانت
 تحسم فيه وقد لحص الخروند ابن سيرة هذه قيمة حين يصح أصدقاءه بقوله
 «عبيكم بالمربد فإنه يطرد تفكر ويحد البصر ويحب الخير ويجمع بين ربيعة
 ومضر»^(٣)

وكانت حمهير السوق عظيمة العدد محتلمة الجهات ولأوضح وبدئت أصبح
 كل نحاح يحوره شعر من شعراء يتردد صداه في كل أقطار الامراصوربة كما
 تبين لرعي الإبل إثر لقائه بشهير مع حرير فقد بعث القصيدة قومه في قلب
 صحراء نبصرة قبل وصوله السريع إليهم^(٤). ولم تكن حساسية هذا الجمهور المتلقي
 لتنفوت على شعراء ومن ثم كانوا يبدلون قصدي جهدهم لإرضائه والتأثير عبه
 فحين سمع حرير الحكم بأن حريراً أشعر عند العامة ولهمرد في أشعر عند العلماء
 صرح: «أنا أبو حررة غلبته ورب الكعبة والله ما في كل مائة رجل عالم واحد»^(٥).
 وقد أكد ذلك نيزيدي حين روى أن «لهرزدق ولأحطل نذاكرا حريراً فقال

١ الأغاني ١٦٩/٢٠ .

٢ سنن ٤٢٨ ، ٤٣١ .

٣ بيد والتبيين ٢٧٧/١ .

٤ الأغاني ١٦٩/٢٠ - ١٧٠ ، ٥٠/٧ قال الراعي وحلف بالله «أنا وجدنا في أهلنا: بعض الطرف لك
 من نمير، وأقسم بالله ما بلغه إسبي قط وإن لجرير لأشباعاً من الجن» ٥٠/٧ .

٥ الأغاني ٧٢/٧ .

له لأحضر وسته إنك وبيبي لأشعر منه غير أنه أعطى من سيرورة شعر شيئاً
ما أعطيه أحد. لقد قلت يته ما عرف في مدبأ ستأ هجي منه .

قوم إذا استنبح الأضياف كلهم قالوا لأهمهم بولي على النار
وقال هو :

والتغلي إذا تنحج للقرى حك استه وتمثل الأمثالا
فهم يبق سقاء ولا أمة لا روه قال : فقضيت يومئذ لحرير أنه شبر شعراً
مهم^(٦) وواضح أن انحراف كدر شعراء البقائض في الخوض في وحل أساب
وتحشش مرده من محدوديتهم الاحكام إلى مشاعر الجدهير وحدث عوضهم
بهذه الصور الغارية المكشوفة. ويبدو أن قدوف لمخضات وحرائر نساء واستخدام
كثير من الألفاظ الحسية دون موارد أو تورية مما قد يخرج من إحساس نقاريء
سعرهم في زمانها^(٧). يبدو أن ذلك كان مصدر متعة كبيرة لسمعيهم وإن
كان بعضهم يتفرع منه ويرت فيه مخالفة وصحة روح الإسلام^(٨). وقد يوضح
هذا لائحة قصة رجل المتحرج الذي قال لمحدث الكبير ابن سريين وهو قائم
ستقبل امسة يريد أن يكبر : "توضاً من الشعر" ١٤ فأنصرف الشيخ بوجهه إليه وقال :

لا أصبحت عرس الفرزدق ناشراً ولو رضيت ربح استه لاستقرت
ثم كثر^(٩) وحين علم اخذت النهير سعيد بن المسيب أن هناك جماعة من
ناس لا يرون قول الشعر ويهون عنه قال "لقد سكر سكر أعجمي"^(١٠).

ومن الواضح - كما سنفصل فيما بعد - أن معظم هؤلاء الشعراء لم يكونوا

٦ - مروج ١٤٠ - ١

٧ - آخر طبعات ديواني الفرزدق وحرير (١٩٩٠) البيروتية خالية من كل ذلك .

٨ - من قصة عرس لأحمر ٨١

٩ - الأغاني ١٥/١٩

١٠ - البيان والتبيين ١٧٤/١

جذير في كثير من الأحيان في هذه النظم التي يصنعونها نساء مخصميهم. وقد
 لده الشاعر المحصرم المنحل السعدي على ما فرط منه من اتهام باطل لحبيبة حين
 هجا أحد رثرفن بن بدر التميمي^(١). واعترف بذلك على ما لا حين قال
 قد ضلّ جنمي في خليله ضلّة سأعتب قومي بعدها وأتوب
 وسهد والمستعتر الله أي كدبت عيها وأضاه كدوب^(٢)
 وكان جرير يقول: إذا هجوت فأضحك، وينشد:

إذا سعت فتاه بني تمر تقم باب عضرته التراب
 ترى يرصاً بأسفل اسكتيها كعنفقة الفرزدق حين شاب^(٣)

ويبدو أن كثرة هذا الشعر الفحش وسيورته في الأسس كما استحابة لحجة

عامة في نفوس الناس فاشعراء يقولون هذا الكلام كثيراً يسون مصالب الحماهير
 انتعشة وتي كنت تحذ في ذلك متعة كبيرة لا في نصرة وحده بل في كل
 نداء الامم-اصورية الإسلامية. وفي فترة لاحقة ترسم بشر خطى من تقدمه من
 هؤلاء الشعراء وقال شعراً يشع حاجات الطبقات المحللة في مجتمع النصرة. وكان
 شعره مكشوف العاري أكثر إحكاماً وأحمى صنعة من نتاج سبقيه، فكان في
 شعره متعة بعلية القوم وطقاتهم لذيذ وقد سمع ذلك شوا بعيداً حتى ذكروا «
 ليس في النصرة عزل ولا عرلة إلا ويروى من شعر سائر ولا نائحة ولا مغنية إلا
 وتتكسب به. ولا ذو شرف إلا وهو يهينه ويحاف معرة لسانه»^(٤) وخلافاً لمن تقدمه
 تحذ أسويين في النظم يتوجه بهما لجمهوره منقبي. فحين يحاسب عليه القوم
 ونحكام والأمراء يحافظ على أسلوبه الفخم النصخم ولكنه حين ينظم في لعز وسواه

١١ الأعاني ٤٢/١٢ .

١٢ نفسه ٤٣/١٢ - ٤٤ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٨٣/١

١٣ العقد الفريد ١٥١/٦ .

١٤ الأعاني ٢٦/٣ .

من نواضع بني يتداع بها لإمتاع عامة الناس وإشباع رغبتهم نُدبية المنكوبة^(١٥) وبه يبحث إلى أسبوت هين يسير مباشر يفهمه لرحل لعدي ولذلت أصبح ديدن الناس خاصة الشباب منهم حفظ شعره كما ذكر المعتزلة وحصومه لآخرون في حملتهم العنيفة عليه^(١٦).

سيرورة الشعر وروايته :

وكانت الحماسة التي يتلقى بها لدى هذا الشعر تتجاوز حدود بصرة. فكان
ناس في مكان بعيد كالمدينة يتتبعون آخر أدائه ورواياته في شوق وتحرق. فذكر
عبد الرحمن بن حرمة قال : « لما ورد علينا هجاء حرير التميمي قال لي سعيد بن
السبيح المحرومي نقرشي سيد الدعين ونفقهاء : تروا لنا ما قد شئت ؟ » فأنشده وقد
سنفيل انقلبه يريد أن يكفر. قال لي : « رويبت شيئاً. قلت نعم فأقبل عني بوجهه
فأنشدته التميمي وهو يقول : هيه هيه ! ثم أنشدته جرير فقال : أكنه أكنه ! »^(١٧)
وكان شيخ من أهل المدينة يقول : « ما كنت أريد أن أجس إلى قوم إلا وفيهم من
يحدث عن لحسن ويشد لمرزوق »^(١٨) ولم يكن هذا الاهتمام قاصراً على العلماء
وشيوخ بل كان ينضم الأفراد العاديين في كل أرجاء الامراضورية كما يستدل
من قصة انتفاة الببوية باليامه التي دعمت أبا تحفص كل شعر حرير وشرزدق^(١٩).
وكما يستشف من قصة سدوي لعدي لدي أبي معرفة فائقة بشعر حرير في
حضرة الخليفة عبد الملك بن مروان^(٢٠).

١٥ البهيتي : تاريخ الشعر العربي ٣٥٣ .

١٦ الأعاني ٤١/٣ : انظر اياب السامع أدناه .

١٧ ابن سلام ٣٧١

١٨ ج ١٤٢/٣ - ٣

١٩ لأبي ٥٦.٧

٥٠ ع ٥٤٧

ثم في دخل مدينة فقد تسفح حماسة الناس لما يقاب من شعر ما نلعه حماسة
الناس في رميت هذا حين يشجعون قريباً باضياً بعينه أو يتنبهون ما يجري في ميدان
سوق حبل أو حقة املاكمة فكان الناس يحسون بيب الفرزدق فيسمعوا منه
في روي أو ملك الزبدي الذي ذكر أنهم جلسوا نابه يتضرونه فخرج عليهم
في محبة فقال: «يا أعداء الله ما اجتماعكم بياني والله لو أردت أن أزي ما قدرت»^(٣١).
وكان هذا لاهتمام من النعمق بحيث لم تضعف منه ظروف الحرب كما توصلح
ذلك قصة المهلب مع جماعة من حوذه حين احتكموا بن أعدائهم لأراقة^(٣٢).
وكانت عادة عبدة بن هلال الحارثي الذي رشحه مهلب كخمس من يحكم
بين حرب وافرزدق^(٣٣). إذ تكلف الناس من الحرب بأداهم: «لبيخرج بي
بعصكم» فخرج إليه فبين من العسكر، فيقول هم: «أيم أحب إبيكم، أفر
عبيكم تفر أو أنشدكم لشعر؟» فيقولون: «أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفت
فأشده» فيقول هم: يا فسقة والله قد علمت أنكم تخترون الشعر على القرآن». ثم
لا يزال يشدهم ويستشدهم حتى يملوا ثم يفرقون^(٣٤).

وفي يكس الشعراء خاصة حرير وافرزدق يكتفين بقول شعر ثم يدعونه يسير
في الناس دون بدل الجهد إذ كثيراً ما سعي لإيصاله بن الناس، فقد ذكروا أن
افرزدق أتى مجلس بني هجيم في مسجدهم فأشدهم، وبع ذلك جريراً فأنهم
من بعد لشدهم كما أشدهم الفرزدق، فقال له شيخ منهم: «يا هذا أنت
من؟» فب هذا المسجد بما بُني لذكر الله وصلاحه! فقال حرير: «أفرزتم
للفرزدق ومنعموني» وخرج مغضباً وهو يقول:

٢١ الأغانى ٣٦/١٩

٢٢ انظر ص ٩٢ أعلاه.

٢٣ الأغانى ٥٥/٧.

٢٤ نسه ٧/٦.

إِنَّ الهَجِيمَ قَبِيلَةَ مَلْعُونَةٍ حُصَّ الْحَيُّ مُتَشَابِهُ الْأَلْوَانِ^(٣٥)

وحكى حنبل بن كَثُومٍ لِكُتَيْبِ قُلْ مَرَرْتُ بِالْمَرْدُقِ وَقَدْ كُنْتُ دَوَّيْتُ مِنْ شَعْرِهِ وَسَعَرِ حَرِيرٍ وَبَعْدَهُ ذَنْكٌ. فَاسْتَحْلَسَنِي فَحَلَسْتُ إِلَيْهِ وَعَدْتُ بَالَهُ مِنْ شَرِّهِ وَحَمَعْتُ أَحَدُهُ حَدِيثَ أَبِيهِ فَوَدَّكَ لَهُ مَا بَعْدَهُ. ثُمَّ قُلْ: أَشَدُّنِي بَعْضُ أَشْعَارِ بَنِ مَرْعَةَ. فَحَمَعْتُ أَشَدَّهُ حَتَّى انْتَهَيْتُ ثُمَّ قُلْ: فَأَنْشُدُ نَقَائِصَهَا الَّتِي أَعْجَبَتْهُ. فَقُلْتُ: مَا أَحْفَظُهَا فَقَالَ: يَا حَنْدُ احْفَظْ مَا قَالَهُ فِي وَلَا تَحْفَظْ نَقَائِصَهُ وَبَلِّغْ الْأَهْجُونَ كُلَّهُ هَجَاءً يَنْصِلُ عَرَاهُ بِأَعْقَابِ بَنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنْ لَمْ تَقُمْ حَتَّى تَكُنَّ نَقَائِصَهَا وَتَحْفَظُهَا وَتَشْدِيدُهَا. فَقُلْتُ: فَعَل. فَزَمْتَهُ شَهْرًا حَتَّى حَفِظْتُ نَقَائِصَهَا.

وهذا من الشواهد ما يشير إلى أن معظم هذا الشعر كان مدوناً إما بواسطة شعراء أو كُتَّابهم أو رواتهم. والمصدر حادثة بالإشارات عن الرواة الذين كانوا يرفقون الشعراء ويلتزمونهم ويكنمون عنهم كما يفعل كُتَّاب الخاص أو السكرتير بالمفهوم الحديث. فقد أمى حرير قصيدته المشهورة في إراعي مولى من بني يربوع بالنصرة كان شديد الإعجاب شعر حرير^(٣٦). وحين وقف في المربد يشدها ليس كان الشاعر يصيح: يَا بَنِي تَمِيمِ! قِيدُوا! قِيدُوا!^(٣٧) وكان للمردق عدد من هؤلاء الكُتَّاب أو الرواة منهم عُيَيْدُ^(٣٨) وَهُوَ شَقَلُ^(٣٩) اللذان ذكرت لمصدر اسميهما. ويبدو أن عُيَيْدُ كان يرافق لشعر في جولاته كما يُستدل من قصة المردق مع دي الرمة حين أمره بضم أبيات دي الرمة لشعره فقال له دو رُمة.

٢٥ ابن سلام ٣٥٩ - ٣٦٠، الأعاني ٦٠/٧، ديوان جرير ٤٧٩

٢٦ الأعاني ١١/١٩ - ١٢.

٢٧ نفسه ٥٠/٧ وراويته يدعي حسين أنظر النقايس ٤٣٠.

٢٨ ابن سلام ٣٧٤.

٢٩ النقايس ١٠٤٩.

٣٠ الأعاني ٣٦/١٩.

«سنتك لله يا نهراس !» فقال له: «أنا أحقّ بها منك !»^(٣١). وكان الشعراء يصحّون رؤسهم حتى في مرند حيث يقول قصائدهم على جمهورهم مشافهة. وقد كان المرزوق يصحب رؤيته حين هجّ حرير "الرعي المصيري" بالمرند^(٣٢).

وقد دأبّ ذو رمة على أهمية كتابة الشعر ووضح ضرورتها وإن كان هو يسكر معرفته بالكتابة لأهمهم كانوا يروونها عيباً^(٣٣) لأسباب تعرضها في بعد^(٣٤). فقد لعيسى بن عمر^(٣٥) دت مرة: «كتب شعري ونكّاب أحبّ إليّ من الحفظ، لأنّ لأعرابي يسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلته فيصبح في موضعها كلمة في وزنها ثم يشدها "ناس"، ونكّاب لا يسى ولا يبدل كلاماً بكلام»^(٣٦). وفي مناسبة أخرى قال لنفسه العذيم: «أنت والله أعجب إليّ من هؤلاء الأعراب، أنت تكتب وتؤذي ما سمع، وهؤلاء يهزون على أحدهم وقد رحت من حبل أن يجيء به على عمر وجهه»^(٣٧). ولعلّ هذا لاهتمام أنباء رواية لسعر وكتابته هو الذي حدّ به لاحتياز صانح من سليمان رومة له، فقد أشدّ يوماً قصيدة له وعُري من بني عدى يسمع. فقال: «أشهد عليك أنك لفقيه تحس ما تلوه»، وكان يحسنه قرآن^(٣٨).

ولكن كثافة شعر ما كانت دائماً تتعبد بروى حين يكون الشاعر كثير تنقلب يولي شعره بالتدليل والتعيير كما كان حال دي الرمة الذي سمع من هذا الأمر مسعاً

٣١ نفسه ٢٢/١٩ - ٢٣؛ الموشح ١٠٧؛ ابن سلام ٤٧٠ - ١؛ النملة ٢/٢٨٥.

٣٢ الأغاني ٥١/٧.

٣٣ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٥٠٧؛ الأغاني ١٦/١٢١؛ العسكري: ديوان المعالي ٢/١٢٠.

٣٤ انظر الباب السادس من هذا الكتاب.

٣٥ انظر الباب الأول الفصل الثالث، والباب السادس أدناه.

٣٦ الحاشية: الجيوان ٢١/١.

٣٧ الموشح ١٧٨.

٣٨ الأغاني ١٦/١١٢.

دفع بعض دواته تشبيهه بقوله «أضدت عني شعرك !»، وذلك أن دا لومة كان إذا استضعف الحرف أبدل مكانه (٣٩).

وكان بعض الشعراء روة لشعراء آخرس معاصرين لهم. فداو لومة كان راوية لراعي نميري (٤٠). وسلم الحمر كان تميمه بشار وراويته (٤١). وكنت رواية شعر قد راحت وأصبح مهة مخزية في عدلس الخدم والأمرء كما بنهد بلك نوح الذي أحرره حماد روية وقادة وحلف لأحمر وغيرهم من مشهير الرواة (٤٢).

فحركة نشر الشعر كانت حركة دائمة يشترك فيها الشعراء ورواتهم وغيرهم من المهتمين بالأدب. وكان الشعراء علاوة على ذلك شديدي لاهتمام بالأثر المباشر الذي يحدثه شعرهم على المستمعين. فقد تبين لهم كما تبين لفرزدق (٤٣) - أن قدراً يسيراً من نجاحهم لمدي أقبوا لميدي في تحبيره ونظمه يلصق بذكرة يستمع عددي. ومن ثم وجهوا ضقاتهم للتركيب على عدد من أبيات القصيدة يشعروها شحات عاطفية قوية تضمن لها سيرورة والانتشار. وبذلك لم يسع حرير من البرصى وقد نظم ندمى ست من هجاء في الراعي مسعد إلا حين نظم بيته :

ففض الطرف إنسك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

وعنده أمر كاتبه أن يستريح وينام قائلاً «حسبك أصمى سراحث ومه فقد هربت مه (يعني نفسه)» «وحين سن الفرزدق، ما اختيارك في شعرك لمقصار؟»

٣٩ الموشح ١٨٤ ؛ انظر ١٨٠ - ١٨١ .

٤٠ نفسه ١٧٠ ، ١٨٣ .

٤١ الأعاني ١١٠/٢١ .

٤٢ انظر الباب السادس أدبه .

٤٣ انظر من ٨٨ أعلاه .

٤٤ القنص ٤٣٢ ؛ انظر ٤٢٩ .

قل لأنني رأيتها نبت في لصدور وفي لخل أجول»^(٥٥) وقد أكد ذلك الجاحظ حين قال: «إن أحببت أن تروي من قصار نقصائد شعراً لم يسمع عنه فأنمى ذلك في قصار قصائد الفرزدق. فيث لم ير شعراً قص يجمع التحويل في القصار والضمون غيره»^(٥٦). ولعله هذا السبب عد هذا الشاعر من أكثر الشعراء بيتاً مقلداً^(٥٧) وكان اهتمامه بكثير هذا النوع من الشعر المركز المشحون كثيراً ما يدفعه إلى اعصاب أشعر الآخرين من معاصريه وصمها إلى شعره عبوه وقتداراً وقد فعل ذلك مع دي الرمة^(٥٨) ولشمر دل^(٥٩) وحميل^(٦٠) وابن ميادة^(٦١) وكثيرين غيرهم^(٦٢) وكان يقول «صوت أشعر أحب إلي من صوت الإبل وجبر السرقة ما لم تقصع فيه يد»^(٦٣). وقد عبّر بشار عن هذه الظاهرة حين افتخر بكثرة الأبيات البادرة التي شتمت عليها قصائده الاثنتا عشر ألفاً فيما رعم^(٦٤). وقد عصب على ستمه اندسر وبخاصته لأنه عمد إلى بيت من أبياته لسيرة محوَّره وعيَّر من ألفاظه وبنيت أنحمل بيت أسدده. فقل به شار. «فتأخذ معنيّ لتي قد عيت بها

٤٥ لأغاني ٣٣/١٩.

٤٦ الجاحظ: الحيوان ٣١/٣.

٤٧ ابن سلام ٢٥٩ حيث يعرف المقلد بأنه البيت المستعني بنفسه والمشهور الذي يضرب به المثل

٤٨ الموشح ١٠٧ : ابن سلام ٤٧٠ - ١.

٤٩ الموشح ١٠٨ : العملة ٢٨٥/٢ : القانص ٣٧٥.

٥٠ الموشح ١٠٩.

٥١ الأغاني ٩١/٢ ، ٧/١٩ : الخزائن ١٥٣/١ : الموشح ١٠٨.

٥٢ اتحل الفرزدق بيتين للراعي (الموشح ١٠٨ - ٩) : قال أبو عبيدة: «كان الفرزدق يحتلب القصيدة

ويحتلب المعنى». وقال يحيى بن علي بن المهجم: «إنما فعل الفرزدق بحميل وذو الرمة وغيرهما هذا لأنه

شأمر به شعر جيد رأى نفسه أحق به من قتله لقضه عليه في الشعر، ولأنه من جنس جيدة لارديء

قتله» (الموشح ١١٠). ولعل هذا الذي حدا بالأصمعي للقول بأن تسعة أعشار شعر الفرزدق لشعراء

غيره وقد اعتبر المرزباني هذا الحكم من المبالغات الخائرة (الموشح ١٠٥ - ٦)

٥٣ الموشح ١٠٦ : الأغاني ٢٢/١٩.

٥٤ ديوان بشار ١ المقدمة ص ٨٤.

ونعيب في سنسذه فتكسوها ألفاصاً أخف من كفاظي حتى تروى ويذهب شعري ؟
لا أرضى عنك أبداً» (٥٥) .

وهكذا كان الشعراء يحسون بمهمورهم ويدركون أثر أشعارهم ومدى انتشارها وقصائدهم حافة بالإشارات إلى ذلك. فكان المرزوق يسمى قصائده : قوافي لشوارد» (٥٦) وقد بين مدى انتشارها بأساليب مختلفة. فقال مرة :

بلغن الشمس حيث تكون شرقاً ومسقط قرنبا من حيث غابا
بكل ثنية وبكل ثغر غواربهن تتسبب انساباً (٥٧)
وحاضب جريراً بقوله .

تعنى يا جرير لغير شيء وقد ذهب القصائد للرواة
فكيف ترد ما بعان منها وما يجبال مصر مشهرات (٥٨)

وكان جرير يرد عين المورد حين قال :

وجهزت في الآفاق كل قصيدة شرود ورود كل ركب تنازع
يجزن إلى لجران من كان دونه ويظهرون في نجد ومن صوادع (٥٩)
وكثيراً ما فخر بذلك في مثل قوله :
وإني لقوال لكل غريبة ورود إذا الساري بليل ترنما
خروج بأفواه الرواة كأنها قرأ هندواني إذا هز صمما (٦٠)

٥٥ الأعمى ٤٩٣

٥٦ البندقي ١٢٥

٥٧ نفسه ٤٧٧

٥٨ نفسه ٧٧٤ ، ديوان الفرزدق ١٤٢/٢ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٦ ، ٣٤٦ .

٥٩ القائل ٦٨٨ .

٦٠ ديوان جرير ٤٤٦ ، ٤١٧ ، القائل ٢٩٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ .

العلاقات بين الشعراء :

رسم أن نشاط الشعراء حراً لا يتحرراً من النشاط العام المرتبط بحركة التطور الثقافي والعقلي في مجالات اللغة والأدب إلا أنه قد تأثر كثيراً ببعض الظواهر والاعتبارات الاجتماعية لانغماس معظم الشعراء بوجه أو آخر في شئون مجتمعاتهم فحي ربط القوي بين الشعر وشرف في حكم الناس على حيوة شعر الشعراء وأصلته إشارة واضحة إلى أثر المعايير الاجتماعية القوي على الشعر. وقد وصح السعيت ذلك حين ملاًني سبط على حرير وقال لهم «لقد وجدنا شرف والشعر في بني سوار»^{٦١} ووردت نفس لفكرة في شعر الصلتان العبدى حين حكم بين حرير والفردق

ألا إنما تحظى كليب بشعرها وبالمجد تحظى دارم والأقارع^{٦٢}

وقيل إن الفردق رضي بهذا لقول لما فصل قومه على بني كليب وقال: إنما لسعر مروءة من لا مروءة له، وهو أحسن حظ اشرف وأما جرير فإنه عصب وهما الصلتان وقومه^{٦٣}.

وهذه الصلة الوثيقة بين المعايير الاجتماعية والأدبية واضحة في جوب محسنة حصه في العلاقة بين الشعراء وقد تقدم من صدام بين الصسد لعبدى وحرير مثل واحد مجموعة كبيرة من الحصومات يبدو العصر الأدبي فيها معموراً في شيا يتضمن نكراً لمجتمع. ولشعراء الذين عارضوا حريراً كالسعيث^{٦٤} والراعي^{٦٥}

٦١ انظر الباب الثالث والسادس .

٦٢ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٧٧/١ .

٦٣ نفسه ٤٧٨ هامش ١ .

٦٤ انظر الباب الثالث أدناه .

٦٥ الثقات ٤٢٧ - ٤٣٢ ؛ الأعاني ١٦٩/٢٠ - ١٧١ ؛ ابن سلام ٣٧٣ .

والأخصل ٥٦ ونخيل عيسى ٥٧ ودي لومة ٥٨ ومن لحا ٥٩ وأحمر بن عذانة ٦٠ وسراقه الدي ٦١ وعهره ٦٢، أو الدين عارضوا لفرزدق كصنع دي الأهدام ٦٣ ومُحَرَّق من شربك ٦٤ ولأنسهب من زمينة ٦٥ وعهره ٦٦ وبن كونا مدفوعن في معارضهم تلك بدووع اجتماعيه وسياسية في الأعم الغائب إلا أنهم عروا في ميههم لشاعر ذي احتاروه مدح شعره وتمجيد مكنه لأدبية لأن نحاح لشاعر كشاعر نحاح نشيئة التي بحمي دمرها ويدافع عن أحسابها. ومثل هذا مهم لأهمية شعر في الدفاع عن القبيلة هو الذي كان يدفع بعضهم كمحمد بن عُمَيْر من عطاردا ٦٧ ترشوة شعراء ليعبوا بنوق مواضع الفحاشي الفرزدق على حرير. فقد ذكروا أنه من جثته مقدار أربعة آلاف درهم وقرناً لشاعر الذي ينظم قصيدته بفضل في الفرزدق على حرير ولم نقل العرص إلا سراقه الدي ٦٨ وقيل به حمل بالأسطى ألف درهم وبعلة وكسوة وحمراً حين رار نسر من مرون حاكم عرق وقب له «لا نعر على شاعر» (أي الفرزدق) وهج هذا نكيب الذي بهجو بي دارم فإنك قد كنت قضيت له على صاحبنا» ٦٩.

٦٦ صالحاني: نقائص حرير والفرزدق: النقائص ٤٩٤ - ٩.

٦٧ ابن سلام ٣٤٥، ٣٨٥.

٦٨ نفسه ٤٦٩، الأغاني ٦١/٧.

٦٩ النقائص ٤٨٧ - ٤٩١، ابن سلام ٣٦٣ - ٤، العقد الفرید ٢١١/٦، الأغاني ٦٨/٧.

٧٠ النقائص ٣٨٣ - ٥، ابن سلام ٣٨٦.

٧١ ابن سلام ٣٧٧، البلاذري: أنساب الأشراف ١٦٩/٥ - ١٧٠، ١٧٤ - ٥.

٧٢ انظر الأغاني ٤٣/٧ - ٤٩ حيث يروي حرير للحجاج صراعه مع تسعة عشر شاعراً.

٧٣ ابن سلام ٢٦٣، النقائص ٩٠٧.

٧٤ ديوان الفرزدق ٣٧٠/١، النقائص ٨٤٦.

٧٥ الأغاني ١٥٩/٨ - ١٦١، ابن سلام ٢٥١.

٧٦ انظر المجلد ٦٥/١ لصداه مع زياد الأعجم.

٧٧ انظر للمرد: الكامل ١٧٩/٣ - ١٨٠ لمكانته.

٧٨ الأغاني ٦٧/٧. ٧٩ انقائص ٤٩٤.

وفي هذا العدد كثير من شعراء الذين سلفت الإشارة إليهم في معرض الحديث عن "الحصومة بين حرر وفرزدق دلالة واضحة على تأثير هذين لفحامين على 'ششاط' الأدبي. فقد طالا حتى موتهما عام ١١٠ هـ ٧٢٨ انحصيتين الرئيسيتين متى كانت تدور حول فكهما معظم شعراء لعصر وقد أمهما كما أقوى معبر عن روح السباح والتنافس ثقلي فقد فرض على أعشى شعراء والأدباء المعصرين ضمنا دحل البصرة وحارجه مهمة ثقلة على النفس ألا وهي ضرورة الانحياز لهذا الجانب أو ذلك. وكانت هذه المحالقات الشعرية على الصعيد الأدبي إلى حد كبير صورة مصغرة للوضع الاجتماعي^(٨٠). وأصبح الناس يعدون هذه أساقضت الشعرية حروبا ومعارك كما جاء في بيت جرير :

لقد ذقت مني طعم حرب مريرة وما أنت إن حاربت قيساً بسلام^(٨١)
أو كما جاء في شعر الفرزدق :

عصمت عليك الحرب إني إذا ونى نحو الحرب كثر على القرن معطف^(٨٢)
كما اعتبر الشعر نفسه سلاحاً أو صواعق كما جاء في بيت جرير :
أعد الله للشعراء مني صواعق يخضعون لها الرقابا^(٨٣)

وكان جرير مشهوراً بهجته العنيف للشعراء الآخرين^(٨٤) وإن كان يرغم ن هؤلاء شعراء كانوا يبدؤونه ثم لا يحلم^(٨٥) وذكر أن الشعراء كانوا يتعرضون لهجته^(٨٦) وأنه غلب في معاركه ما لا يقل عن ثمانين شاعراً ومن كل اشعراء الذين

٨٠ انظر الباب الثالث .

٨١ انقائص ٤٢٧ .

٨٢ منه ٥٧٥

٨٣ منه ٤٤٣

٨٤ س فيه الشعر والشعر ٤٣٧ ١

٨٥ لأدبي ٥٦٧ ، الشعر والشعر ٤٣٨ ١

٨٦ س سلام ٣٨٠

حاصمه لم يصمد له إلا نمرdq والأخطل. قال الأصمعي «كان يهشه ثلاثة
 وأربعين شعراً فبذره وراء ظهره ويرمي بهم واحداً واحداً، ومبهم من كان يصفحه
 ويرمي به وثبت له نمرdq والأخطل»^(٨٧) وهكذا كان الراعي المميري - لدي
 وُصف بأنه كان يحمل مضر حتى ضعمته النيث في حرير^(٨٨) - يقول لقومه «علام
 يلومي الناس أن غسي هد»^(٨٩). وقسم سرقة البارقي نفسه لحرير حين سأله
 «يا فتى من أنت؟» قال: «بعض من أخزى الله على يدك»^(٩٠).

وكان يشاركونهم هذا الخوف من جرير معظم معاصريه. فقد ذكروا أن
 نمرdq كان يخرق ويستق لونه إذا أمتد شعراً لحرير حتى يعلم أنه ليس فيه^(٩١)
 وعن خير ما يصور اعتداد حرير بنفسه وقوته فصنه مع القرdq حين قدم نمرdq
 شاه وحرير ه فقال له جرير: «ما ضمنت تقدم لدا أنا فيه». فقال له نمرdq:
 في ضد تخلفت ض العاجر»^(٩٢) ولقد اضطر علي بن ارقاع العملي شعر
 نويد بن عبد المنك حين احتد لجلد بينهما في حضرة احليفة أن يشب في رجل
 نويد فيقلها قائلاً «حرني منه». فقال نويد لحرير: «لش سميت لأسرحك ولأحمنت
 ويركك فتعبرك دنك اشعراء»^(٩٣) فكفى جرير عن سمه حين هدده^(٩٤) وحين
 تبين رؤية خوف أبيه العجاج من حرير حين هدده بأنه عن دنك فأجابه «والله
 لو علمت أنه لا يدعي إلا اسلأح لسلحت»^(٩٥) وقد تعرض ذو الرمة لمهانة كمره

٨٧ الأغاني ٤٠/٧ + ٥٩.

٨٨ ابن سلام ٤٣٥.

٨٩ المقائس ٤٣٠.

٩٠ البلاذري، أنساب ١٧٥،٥.

٩١ ابن سلام ٣١٧ - ٨، الأغاني ٣٤/١٩ قصة أخرى.

٩٢ الأغاني ٣٤/١٩، انظر ٢٩/١٩ قصة أخرى.

٩٣ ابن سلام ٣٢٤، انظر ص ٩٣ - ٩٤ أعلاه.

٩٤ الأعاني ٨٨٠٢١.

في مجلس عدم حين توطئ في محاربة مع جرير ، فقد قاموا ان جريراً دخل على
 المهاجر من عند الله وهو والي ليامة وعنده ذو الرمة بشده فقال المهاجر لجرير
 كيف ترى ؟ قال : « لقد قال وما نعم » فعصب ذو الرمة وهص وهو يقول :
 « أنا أبو الحارث واسمي غيلان » . فنهض جرير وقال :

إني امرؤ خلقت شكساً أشوساً ان تضرسائي تضرساً مضرساً
 قد لبس الدهر وأبقى ملبساً من شاء من نار الجحيم اقتبساً
 قال : فجلس ذو الرمة وحاد عنه فلم يجبه^(٩٥) .

بدأ أنه رغم روح العدا التي كانت تنتظم اشعره نتحة لروح شاعر ولسان
 التي كانت تقنق حياة البصرة ، فقد كان الشعر عمة يحسون ربيعة المصلحة
 التي تصل بينهم كمجموعة متميزة . فقد كانوا يعترفهم^(٩٦) . وبما يدكروهم عن
 زملائهم^(٩٧) . يحسون بوضعهم كشعراء ولجهود كبيرة التي يبذلونها في سبيل
 لتتوفى على لآخرين^(٩٨) . واستأثر أسلوب المرافعة الذي يسمح شعور بمقتضاه
 نرفيته أن يستعين بشعره في دفاعه عن نفسه ، والذي كان ينتظم عدداً كبيراً من
 شعراء عصر^(٩٩) . كل ذلك يشير إلى شعور قوي بروح انتصام لأدبي . وكان
 شعراء سبق ذلك يعون تميز عيهم من زملائهم الذين كان يهجون نهجاً مغايراً
 لأغليتهم . فبشدة المدرسة لحرية المرافعة التي كان مقرها البصرة كانت إلى حاسب
 صوهر أخرى ستعرض لها في بعد استجابة لتحذد ذي وغوي طرحه حو لسان
 شعري في لبصرة ومع أن حلالات العسكرية والمدنية تحت أبواب مغبرة من

٩٥ ص ٦٠٧

٩٦ ديوان جرير ٤١٧ ، ٤٤٦ ، ديوان الفرزدق ١٥٩/٢

٩٧ المشق ١٧٢ ، الحزاة ١٠٧/١ ، الأغاني ٦٥/١ ، ١٣٨/٤ ، العقد الجديد ٢٣٦/٦ .

٩٨ مثلاً المعلقة ٢٠٩/١ ، الأغاني ٣٢/١٩ بين جرير والفرزدق ،

٩٩ مثلاً ابن سلام ٤٧٣ - ٥ ، الأغاني ٦١/٧ - ٣ ، ١١٦/١٦ - ٨ ، المعلقة ٢٨٦/٢ .

شعر إلا أنها لم تحل بين شعراء وتقديرهم لبعضهم بعضاً حين تذكر الناس
 لشعراء أمم الفرزدق قد رأتها هاهنا رحلت بوأخذ في معنى الناس كما
 معهم في شيء، فاستاء من هم فقال سيد حميري (شيعي) وعمرون من حطاد
 (مدرحي)، ولكن الله عز وجل شغل كل واحد منهما بالقول في مذهبه^{١٠٠}.
 وكان عاصم بن النخعتان عدداً ذكياً وكان رأس الحوارج بالمصرة ورعى حاء برسون
 من حرية يسأله عن الأمر يخصمون فيه. فمر به الفرزدق، فقال لأبيه أشد
 أبا فراس فأنشده :

يغشون حومات المنون وأنها في الله عند نفوسهم لصغار
 يمشون في الخطي لا يشبههم والقوم ان ركبا الرياح تجار

فقال له الفرزدق: كنتم هذا لا يسمعه السائحون فيخرجوا عينا سيوفهم
 (وفي رواية عبون لأحد حطوفهم أي ماسحهم) فقال أبوه: هو شاعر المؤمنين
 وأنت شاعر الكافرين^{١٠١}.

وعادة الفرزدق السابقة التي ذكر فيها معنى الناس ويقصد بها ما كان
 أسلوبه معظم معاصريه من مدح وهجاء وناقض قبلي وأدبي، تغلب من لحساب
 عدداً من الشعراء ون كثر يحدون في معنى الناس، إلا أنهم كانوا يحب ذلك
 عيرون في شعرهم عن حوب أخرى من مظاهر التطور لحضري كانت تفعل
 فعنها في تعبير المجتمع البصري وتحويله^{١٠٢}. فطغيان سلطة بدوية ندي سغرق
 عن وجهه ما جهود شاعر كبر مفرغ الذي كاد يقصر كل شعره على هجاء بناء
 ريد^{١٠٣} قد أثر على نحوه رعيم فني مرموق كحارثة من بدر العدي ندي وصف

١٠٠ الأعماني ٣/٧.

١٠١ العقد الفريد ٨٤/١.

١٠٢ انظر الباب الأول الفصل الثاني.

١٠٣ الأعماني ٥٢/١٧ - ٦٧؛ ياقوت: الإرشاد ١٩٢/٧ - ٢٠٨ ابن قتيبة: الشعراء والشعراء ٣١٩/١ -

٢٣؛ انظر الباب الخامس أدناه.

أنه «شاعر تميم ورجلها»^(١٠٤) فمع أنه كان يحوّص في مناقصات شعرية تقليدية^(١٠٥) إلا أن مبادئه مع أنس من زيج كانت تمثل مستوى مختلفاً من الشعر يعبر لا عن حدة انصراف القبلي كما هو شأن في المقائض الأخرى بل عن علّة سيطرة لدولة ورفعة نوعي مردي في مجتمع الحاضرة. واتحاد لأفراد في انسلوك والمعامل كأفراد أو كمواطنين لا كقبيلين يصعب على كثير من شعرهم كما يطعن على كثير من شعر أبي الأسود الدؤلي واهتمت بحركات اللينية سيمية شعراء كهؤلاء من حضن وسيد الحميري وغيرهم من كان يمثلون نهجاً في لشعر نبصري يعكس جانباً آخر من جوانب الحياة البصرية الفنية .

١٠٤ نصر من مزاحم: صفين ٢٩ .

١٠٥ الأعاني ٢١/٢١ - ٢٢ .

١٠٦ نفسه ٢٢/٢١ - ٢٣ ، ٢٢ - ٢٣ .

البَابُ الثَّالِثُ
الشَّعْرُ وَالْحَيَاةُ الْقَبْلِيَّةُ

عضمت وتصحمت واكتسبت بعداً جديدة بحيث تعد تنضم للأسر والفروع الصغيرة في قبب الصحراء، كما كان الحال أولاً، فحسب. بل تعدت ذلك تنضم في إطارها لعريض كل الفيكل القبلي والسياسي الذي كانت تقوم عليه حياة المصر بأجمعه. وقد تنوع دائرها أحياناً لسطح أجزاء أخرى من الأمور طورية أيضاً فنصور في شعر المصري هذا يصبح أن يعبر إلى حد كبير معياراً لا بأس بدقته للتطور، السياسي والاجتماعي الذي ألم بحياة البصرة ذاتها.

وكانت لعلاقة القوة التي نشأت بين النادية وما نتج عن ذلك من تأثير وتأثير في كلا الطرفين قد مهدت لسبيل لتحول سريع في مجرى ذلك شعر القبلي الذي كان في بدايته مستحبة لتحديث لبيئة البدوية وما تعرضه حياة الصحراء على ساكنيه من المشاكل وقصاها وكان كل ذلك محدوداً بحدود البيئة صيقة. بيد أن ندهور الأمور في وفدت الأزمات والفوضى السياسية إلى ما كان عليه الحال في أيام الحامية من تناحر وسعي وراء الثأر وما إلى ذلك من راسب لحياة القديمة مما استوسع في تفصيله فيما بعد^٣ - كان يسهم يساهماً كبيراً في تشييط قدر كبير من هذا شعر ومداه بقوة نداعة هذا فصلاً عن أن سارعت لصغيرة حول الأدر والمراعي وعبرها من أسباب لخلاف بين سكان صحراء التي كانت تدعو في ماضي إلى شئ نغارات واشغال لحروب قد أصبحت الآن مدعاة لبث حصصت يقوم الشعر عنها مقام اسلاح، ويتضائل احتمالات نشوب لحرب "فعية بين قبائل وتحديد مداها أصبح شعر أداه هامة لتعبير عن عوصف نحيسة والرعات المنكبوتة التي كانت نغارات والحروب تعبيراً عنها. وتمرور الزمن صارت هذه البدايات المتواصلة للحصومات الشعرية مترتبة على خصومات محبة قبله يحضر. تنسج في مداها استجابة لأطوار حركة تطور الاجتماعي وسياسي في مصر حديثة وفي الامراضورية عامة. وما فتئت أن عثرت بعد حين عن كل

الفصل الأول

فن النقائض

فن بصري :

أسهم بحث الروح النفسية إسهاماً كبيراً في ازدهار فن المجاء شعري معروف بالنقائض الذي كان ينظم عدداً كبيراً من لشعراء في عصر بني أمية داخل مصر وحارحها. بيد أن لسواد الأعظم من ستركه في حرب النقائض كدء من البصريين وكان معظم هؤلاء من التميميين فقد تغصّب عن مدخل الشاعر التبعني الشهير لأخطل الذي تمّ بإيعاز من بشر بن مروان وإني عرق الأموي أصبح هذا فن الشعري شجاً بصرياً تظّور ودهر في بيئة مصر الحاصرة منه وبسادية

ومع أن فن النقائض كان معروفاً في صور أولية في الجاهلية^(١) وصدر للإسلام^(٢) إلا أنه لم يتمّ ويردهر في مكان مثمناً كما وادهر في منطقة لمصر وهذا يتطوّر كان وثيق النصّة بسوعي نقلي وما يحكم عنه من تراحم وتنافس. ولم يكن ذلك في مكان مكن للوضوح ونقمة التي كان عليها في مصر وودتها. ومع أن مراحل الأول هذه النقائض الشعرية كانت انعكاساً لحدوث محبة نافهة إلا أنها سرعان ما

١ انظر الأعيان ٦٠/١٠ ، ٥٣/١٦ ، ديوان الأعشى ٧٤ - ٨٢ ، ابن الأثير : الكامل ٤٩٥/١ - ٥٠٥ .
٢ انظر ابن هشام : السيرة ٦٤/٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٩ - ٢١١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٤ - ٢٢٦ ، أحمد الشايب : تاريخ النقائض ٣٥ - ١٧٦ ، وانظر محمود عاوي الزميري : نقائض جرير وشرذق لدراسة مفصلة .

أجيد هجاء في أيام عثمان^(٥). وقال مرة أخرى: كنت أهاجي شعراء قومي وأنا
علاء في خلافة عثمان وكان قومي يخشون معرة لساني من يومئذ^(٦) وقدمه والده
علي بن أبي طالب قائلاً: إن أبي هذا أحد شعراء مصر وسمع منه^(٧) ونعل في
حياة هذا الشاعر ونشاطه الشعري خير تصوير للعنصر القبلي في حياة البصرة في
كل أعاده ومظهره ففي راعه السكر مع الأشهب من رمنية صورة حبة لما كانت
عنه الأمور في مرحلة متقدمة حين أحدث مشاعر غسية تتوزع وتستعيد سيرتها
الأولى مباشرة بعد مقتل عثمان واستمرت في عيائها وحجوجها حتى ولادة ردد من
أبيه عام ٤٥ هـ ٦٦٥ م. وفيه من حنن ذلك بشرة من نمط معهود من التورط
الذي بدأ عادة لحادثة تدمية ونكهة سرعان ما تقود إلى سلسلة متصلة من ردود
عمل يردد صدها في جميع الجهات وقد تترك آثاراً تستوجب تدخل السلطة
وحكمة هيدكروك أن نمرددق هجاء بني فقيم من تميم حين توصلوا لصلح مع
بني الغنم من تميم بشأن بشر تنازعوا عليها^(٨). فقال في بني فقيم:

وآب الوفيد وفد بني فقيم بالأم ما تؤوب به الوفود
أتونا بالقدور معدليها وفاز الجد بالحد السعيد^(٩)

سمعهم الهجاء فاستشاط غضباً وشكوه إلى أبيه حاب ولكن الشاعر نفي عن
نفسه النجاة وأشد أحيان أخرى يرد بها عن نفسه ما ذكره هو فقيم بقول فيها:

يا قوم إني لم أرد لأسبكم وذو الطنء محقوق بأن يتعلوا
تناهوا فإني لو أردت هجاءكم بدا وهو معروف أغر مشهرا

٥ الأغاني ٦/١٩ .

٦ نفسه ٤٨/١٩ .

٧ نفسه ٦/١٩ .

٨ القلائص ٢١٥ ؛ ديوان الفرزدق ١٣٩/١ ؛ انظر ابن سلام ٢٧٢ حيث يذكر أن بني فقيم ذهبوا للنار
فرحموا بالدية .

٩ نفسه .

اعلامت المشددة السياسية وثقلته والاحتجائية والتمافية التي كانت بصيرة وغير
نصرة مسرحاً لها وكان هذا شعر نفسي من الجبوية بحيث احتل رفيع مكان
لا في مجتمع البصرة المعاصر فحسب بل في كل العصور التي تلت .

ولعمري من المحزن أن نعوض في خصم هذا البحر المتلاطم من شعر لثقل بعرض
نئين تياراته المحننة واتخاذته ومدى تصورهما لحياة المجتمع وحيه الناس .

مقدمات الخصومات الشعرية :

كان الحبل جلد من الشعراء البصريين الذي وقع على اكتفهم عبء انعبر
عن الصعوص ولمساق بني صاحبت تطور مجتمعهم الجديد قد نشأ في عايب الأمم
في أطراف مدينة أو في رديتها . ومع أن معظمهم ولد في الإسلام إلا أنهم ترعرعوا
في بيته كانت تخضع في كثير من حوسب لموضعت اجاهلية أكثر من حضورها
موضعت الإسلام وأنح لهم هذا بعد نسي عن المصير حيث يحسن الجميع
سبقة لدونة وهمتها انشرة . قدر من الحرية في استغلال الخلافات القسدية
نفساً ، وإن عارض نعا الدولة في سعيها لحد من تنافس القبلي ، إلا أنه يستقيم
مع الاتحاه لعام لسير مهد تنافس إلى أقصى مداه على أن لا يصل مرتبة الحرب
ما دامت لدونة بسطة سبقتها على الجميع . حماية لحقوقهم رادعة لرقهم فكانت
عدة لشعراء وهم يسعون في نفس لاجده ان يتشبهوا بما يطرأ على حياتهم من
حوادث لتراخ ويستخدموها درعة لشعير عن روح التمرد والتمق والتحدى التي
تضطرم في نفس أهل البادية وهم يواجهون سلطة الدولة وطفانيها .

وكثير شعراء هذه طبقة تقدماً لفرزدق الذي ذكرت المصادر أنه كان شاعراً
مصدقاً أيام محي عبي البصرة حوالي ٣٦ هـ " فقد قد هو عن نفسه مرة : كنت

شاعر عتاف من نعدن كاد يودي بحياتها ولكنه سعى من بعد ذلك لاستغلال
فصحه بالتقرب منها فرددته^(١٦) وبلغ لحر أهدى فاستقموا منه بأن ألصقوا بأحنه
حُبَّيْن همة الاتصال بأحد فيهم^(١٧) ومن الواضح أن كل هذه لحواذث احقيقي
مبه وبمضغع إني كنت تتحد تكأة ليمارس عن طريقها هؤلاء المتنبون بعيتهم
المتنصبة في التقادف بأنهم ولحوص في وحل الشئهم. فكانت هذه بفضائح
الشخصية متبدلة ثمانية موقود لدي يوضح بار التماس القلي المستعرة منذ أزمان
وإني يؤيد هذا الزعم أن معظم هذه لقضايا لأولية سرعان ما يسدل عليها السيان
ستاره ويقتصر الموضوع الأساسي موضوع الغجر القلي في السطح ويظل المحصر
الطغري على مسرح النشاط الشعري. فكان انفرادي في معظم هجائه لني فقيه
يصفهم باللؤم كما في قوله :

يحلّ اللؤم ما حلّت فقيم وإن ساروا بأقصى الأرض سارا^(١٨)

وكان يلصق نفس الصفة ببني نهشل كما في قوله :

لعمري ش قن الحصى في بيوتكم بني نهشل م لؤمكم بقليل^(١٩)

في محال آخر وبعد أن سأل الله أن لا يصلح ما بينهم وإن يزيد لدي بيته
وبينهم بعداً قال لهم :

عصتم علينا أن علمكم محاشع^(٢٠) وكان الذي يحمي دماركم^(٢١) عددا^(٢٢)

١٦ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٤٤ .

١٧ نفسه .

١٨ ديوان الفرزدق ٣٠٩/١ ، انظر أيضاً ١٣٥/١ ، ١٥١ .

١٩ نفسه ٩١/٢ .

٢٠ قبيلة الشاعر .

٢١ أي الأشهب بن ربيعة .

٢٢ ديوان الفرزدق ١٥١/١ ، انظر أيضاً ٣٧٧/١ - ٣٨١ ، لجاه محال موضوعه بنو منقر ٣٥/٢ .

إذا قال غاوٍ من معدّ قصيدةً بها جَرَّبَ كانت عليّ بزورٍ
أينطقها غيري وأرمى بذنبها وهذا قضاء حقّه أن يغيراً^(١٠)

ود سجع نوه ذلك لاحظ نشأ القوي بين القويين ولم يشك في أنه دلي هجاء
واسمه إلى بني فقيم مدس كدو من أقرانهم الأقربين^(١١) ورغم أنهم لم يعاقبه
حيثما على ما يدبر منه إلا أنهم حفظوه في عيوسهم. وفتحت هذه لحادثة نأاً
لجلائل بين السنين ظل يفسد ما بينهما لآماد طويلة. وبعد ذلك بقليل تعدى
شر من بني فقيم وأقرانهم من بني مهشل على حيص كبت لأبيه عاتب فسرهم
عنها وخرج بعضهم وقت فيها بيتاً يتحداهم بها^(١٢). وش ردّ عليه بنو فقيم اصنع
في مرحلة متأخرة يعتر بعز نيه وتسبوا بذلك في موته كما تذكر إحدى الروايات^(١٣)
في همهم لأول والداشر كان الصدام الشعري الذي وحدوا أنفسهم في حخته ويسو
أنهم لم يكن هم شاعر من أنفسهم فجهلوا في السحت عمن يقوم بندق عنهم.
وحيث تقدم الأشهب بن ربيعة شاعر بني مهشل يخضب إحدى نائمته انهرها فرصة
وحعبو هجاء الفرزدق شراً لإلتمام مراسيم رواجه من فقاتهم^(١٤) وتطور مزاج بين
الشعرين وتوسع وحسن تقوم خطره فاجأ بنو فقيم وسو مهشل إلى السلطة وسعدو
ربد على الفرزدق قصصه فهرب منه^(١٥). وكان مسلكه الشاغل قبل ذلك مع فتاة
من بني ميثم قد جلب عليه سخط هذا شرع الآخر من تميم ففاد أقد

١٠ الناقص ٢١٥ .

١١ ابن سلام ٢٧٢ ؛ الناقص ٢١٥ .

١٢ ديوان الفرزدق ٢٠٤/١ ؛ الناقص ٢١٦ .

١٣ الناقص ٢١٧ .

١٤ الأعاني ٤٣/١٩ .

١٥ الطري ٩٤/٢ ، ٩٥ ؛ الأعاني ٣٠/١٩ ، ٤٣ ؛ العقد ١٦٩/٥ ؛ الناقص ١٠٩ ؛ ابن سلام ٢٥١ ؛
هجائه فقيم انظر ديوان الفرزدق ١٣٥/١ ، ١٣٩ ، ٣٠٩ ؛ ١٥٢/٢ ؛ في بني مهشل ٣٦/١ ، ٥٢ ،
١٥١ ، ٢٠٤ ، ٣٥٢ ، ٣٧٧ - ٨١ ؛ ٣٨٥ ؛ ٢٧٦ ؛ ٩١/٢ ؛ ٩٦ ، ٢٠٧ - ٩ ؛ انظر الأعاني
١٥٩/٨ - ١٦١ .

د برن ريد انصرة برن الكوفة وإدا برن ريد الكوفة برن المرردق البصرة. وكان ريد يزول ببصرة ستة أشهر وكوفة مثلها^(٣٨). فلما استعدت عليه سو فقيم وبنو هشل اردد عليه عضاً وكان ذلك عام ٥٠ هـ / ٦٦٩ م^(٣٩) فكتب زياد إلى عاميه عبي الكوفة عبد ارحس بن عبيد. إنما المرردق جعل الوحوش يرعى الفقار، فإذا ورد عنه سس دغير فعارقه إلى أرض أخرى فرتع فطله حتى تقطر به. قال المرردق: فطلت أشد صب حتى جعل كل من يؤويني يخرجني من عبده فصاقت عبي الأرض^(٤٠) وضطر إلى الحرب من سلطان ريد جميعاً إلى المحذر حيث خا إلى واليه لأموي سعيد بن نعاص فأجأه^(٤١) وظل في منته هذا حتى موت زياد عام ٥٣ هـ / ٦٧٢ م حيث رجع إلى موطنه^(٤٢).

وكانت تدبير ريد الحارمة^(٤٣) التي امتدت إلى عهد ابه وحبيته عبيد الله قد وصعت حداً كبير من مظاهر العبث والموصى التي سقته. وعم مصر والبادية هدوء سسي فيما يخص العلاقات اقلية. بيد أن ريد، واسه عبيد الله خاصة قد أسهما من حسمها إسهماً كبيراً في إذكاء نار نعداء بقي. كما كان يفعل عبيد الله بن عامر ندي سقهما إلى الامارة^(٤٤). وكان عبيد الله بن زيد أو من صب المثلث وعنى كعمه ليعرض ندي مثل ما يقول فيه^(٤٥). وكان كما ذكره من قبل^(٤٦) - يغري بين الشعراء ليصرف أنصار الناس عن معارضة الحكام

٢٨ الطبري ١٠١/٢

٢٩ عنه ٩٤ ٢

٣٠ نفسه ٩٩/٢ الأعاني ٣١/١٩ : ابن سلام ٢٥١

٣١ الطبري ١٠٨/٢ .

٣٢ عنه .

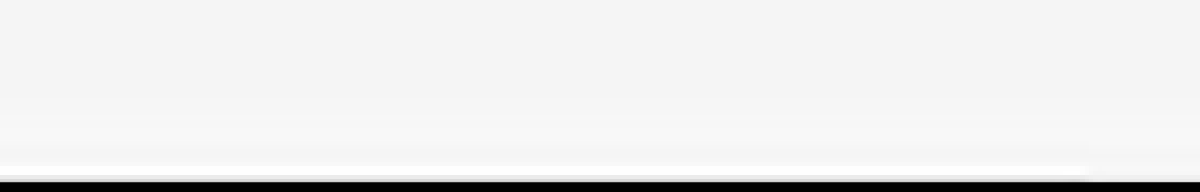
٣٣ انظر ص ٢٣ أعلاه .

٣٤ المخطوط ٢٥٤/١

٣٥ البلاذري: أنساب الاشراف ٨١/٤

٣٦ انظر ص ٩٣ أعلاه

ومع أن المصادر لم تزو لنا إلا مقطوعات منبسة من الشعر تتصل بهذه الحوادث لشعربة منكرة بل أنها حافلة بالإشارات إلى دلائلها الاجتماعية. وشكت هذه الحوادث في شككها لأولي هذا محدودة المدى فهي تحمل في ثباتها بذور صراعات المستقبل الكبيرة. وهي من هذه الناحية إحدى مظاهر الانبعاث العام لروح قضية لدى آثاره مقتل عثمان وقد شهدت سموات لحكم لأولي حتى عام ٤٥ هـ ٦٦٥ ولاية عبد الله بن عمر المتسامحة وكان من نتائج ترفقه في زمان عمت فيه العصى ونعوط عقد نظام عقب سموات الحرب الأهلية لأولي لمينة بالاضطراب أن شتى حمير قبائل النصارى واستبد بهم لطعين. وحين أشار عبد الصخر بن بأحدهم بالشد ويتحد من الإجراءات ما يردع تمردهم وعصيانهم حاكمهم بقوله «يكره أن أصلحهم بفساد نفسي»^(٣٦) ولم يجد معاوية منصفاً من عونه وتولية زياد الذي عرف عنه الحزم وتشدد في الصرب على يدي لعائش. وكان هذا يعظم عسر الذي يحقه نشاط متمرده مستهتر كالفرزدق بحياة مصر. وقد لمت الفرزدق عطر زياد أكثر من مرة. فقد وقف ذات مرة في مكان عام يسوق خريد ودعا الناس في أسلوب حذلي ليهوؤ موله وملاسه^(٣٧). وكان يؤده غالب قد أعصب نسله قبلي بمثل هذا الصنيع^(٣٨). ومن ثم رأى زياد في ذلك سابقة خطيرة من شأنها أن تدفع الناس لتقليده وتعاذه مثلاً يحدث^(٣٩). فأرسل الحبل في ضمه ولكن الشاعر استطاع الهروب ولجأ إلى الصحراء وشارد من عصب زياد عليه ضيقه المضة في محاصرة معاوية بشأن ميراث الحداث^(٤٠). ويسود زياد اكتفى في المدينة بإبعده عن المصر إذ ذكروا أن الفرزدق كان



وإذا اعتمدنا ما رواه أبو عبيدة عن سير هذه المناقضات^(٣٨) تبيّن أهميتها
ساعة لدى الحوالب المصطرعة في مهده انصروني إذ تنضح أنهم كانوا يولونها
عناية فائقة لا تناسب وتفاهة لحدوث لأساسية التي كانت سبباً في إثارتها. وكما
كان الحال في نموذج متقدم^(٣٩) فإن انصراف الشعري لتولد عن الحصومة يضل
مستعر زماناً طويلاً بعد زوال أسبابها وسياتها. وإذا استرجعنا هيئة الشعر وهو
يمتطي ظهر غيره ويحاطب الجمع القبلي مثلاً، كان بعض أسلافه من الخليلين^(٤٠)
تنبّأ أن هذا الشعر كان يبي أحداث في نفوس الناس تستند بأطراف النزاع
وتعصر على شعراء صروره التعبير عنها. وتقدّية هذه المسحلات الأولى وصح
في شكلها وفي محتواها فاعظمها^(٤١) مقطوعات قصيرة مضبوطة من بحر لحر الذي
يسد أنه كان يلي حاجة الارتجال وتكون من وحي لحاظ والصيغة الشخصية
انصرخة هذا الشعر التي تحت في الألفاظ الحسية فاصحة لتي كان الشعراء
يتراشقون بها ويصقون بحني النزاع تعكس روح لخصومة الأولى في حيوية وصدق
فيوعل حرير في وصف الحدة الجنسية لمجموعة من الحداث ثم يهديها لخصومه^(٤٢).
ونكر هذا عنصر الحسي انصارخ الذي أوغل فيه كلا الشعراء ما فتى أن
أفسح لمحات في ضرب متعل من الشعر كـ الشاعر يحرص فيه على إبرر محس
قومه. خاصة بعد أن توسع النزاع لدخول لشعر التميمي التي الذي كان من
بي محشع. منافسي يربوع التقليديين. ومثل هذا انصور طبيعي إذ أن محال القول
أدم حرير وعسان للذين يستميان لنفس الغرض كان محدوداً. ولا بد أن ينتهي
إلى مساحته يكون العنصر الشخصي فيها أبرد من العنصر جماعي على وجه العموم

٣٨ نفسه ٦

٣٩ انظر ص ١٢١ - ١٢٢ أعلاه

٤٠ الفائق ٢ .

٤١ نفسه ٣ - ٦٣

٤٢ سفاقي ٣

و يشعلهم أنفسهم. ولكن ردد وابه كما يعصب عن حيرة وتحرية انحاض بكمة ورء هذ نشاط شعري إن أطلق له العبد. فقد دلب تجربة ردد السابقة مع انفراد وتحرية عبيد الله مع اس مفرغ تي مستأوف بعد. لا تدخل الأمير مباشر في كثير من الأحيان كان تعامل نحاس الوحيد لوضع حد لاستهتار مثل هؤلاء الشعراء وكف أذاهم عن الناس وعن هيبة الحكم .

الخصومات الشعرية تنتقل إلى المصر :

ما فتئت أهمة مصر متزايدة ودورها انظرده النمو الذي أصبح يعنه في حياة نقائل العربية سوء في النصرة أو ناديةها أن تحي في نجاح الندو لنقل حصوماتهم الشعرية تي كبت صدى نظروفهم اصحراوية إلى داخل المدينة. وبذلك صارت هذه مسقطات تي عكست في فترة متقدمة خلافت الأسر ولطون في ندبة. تعبر إلى جنب ذلك عن نقضيا تكبرى للنصراع القلي والسياسي في المصر وقد تحي إدرك رباد هذه نضاهه وما ينجم عنها من محاطر في رد فعله اعيف على سند انفراد ومصادره له وكان ردد محققا في تصويره فقد مع اسبل بعده تربي ولعن حر ما يصور تصور هذه المظاهرة الطلي والمضاعفات التي انتصت حص سيرها قصة بني سبط مشهورة مع بني لحظفي من كتيب الدين منهم جرير وكلاهما من يربوع فرع من تميم. وقد تارعت الأسردن حول ملكية ماء ونرى هو لحظفي وكان فيهم شعر - لبني سبط وأدوهم بالضحاء. وم يكن في بني سابط شاعر يرد عنهم عادية حصومهم فلحقوا إلى أحد بني عمومهم عسان بن دهل وسعدوه على أعدائهم. وكان جرير النافع يدافع عن شرف قومه ويعارض عسان وعدة من الشعراء سواء (٣٧) .

٣٧ النفاض ٥ - ٦ ؛ اطر الشايب ٢٤١ ، ٣١٢ ؛ غدي الزهيري ٩٧ .

ووجد منهم وإشانة سمعة لحسب الآخر انصاف ولم يكن المعبث شاعراً قليل
الخطر^(٤٧)، فكان بنو كليب يرون في شعره أشد ما هُجُوا به خاصة قوله :

ألست كليبياً إذا سم خطئة أقرّ كأقرار الحليلة للبعل
وكل كليبى صحيفة وجهه أذلّ لأقدام الرجال من النعل
وكل كليبى يسوق أتانه له حاجة من حيث تُنفّر بالحبل
سواسية سود الوجوه كأنهم ظرأني غريبان بمجرودة محل^(٤٨)

ويكن المعبث رغم هذا م يكن ليقوم تحرير فعلية هذا دُخَاءً وبال من شرف
فيه مجاشع وفتح ساءه وقد عرف المعبث بالعبث حين «ضح إلى المرزوق
واستعشه كما قال ابن سلام^(٤٩)» . وكان مرزوق مجشعاً مثله ، فقال له :

لعمري لئن ألهى الفرزدق قيده ودّج نوار ذو الدهان وذو الغسل
ليستعن مني عداة مجاشع بديهة لا داني الجراء ولا وغل^(٥٠)

وشرته إلى قيد لفرزدق ترمز إلى عصابة أطوار هذا لشاعر وتناقضه ووجداني
حيال تحدت عصره من حاسب كما ترمز من حاسب آخر إلى طغيان هذه التحديات
التي تُرمت لشاعر أن يقيد نفسه وأن يقسم ألا يصح قيده حتى يحفظ القرآن^(٥١)
ويندو من شعره أنه تعرّض لأزمة روحية عمدة يذبّ عنها عنافه بالفضلال الذي
كان عليه طيلة حياته كما في قوله :

ثلاثين عاماً ما أرى من عماية إذا برقت إلا شددت لها رحلي^(٥٢)

٤٧ وضعه ابن سلام على رأس النطقة الثانية من الأسلاميين . انظر ٤٥١

٤٨ انقائض ١٥٧ ؛ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٧٢ .

٤٩ ابن سلام ٤٥٢ .

٥٠ نفسه ٣٢٧ .

٥١ نفسه ؛ المبرد: الكامل ١١٤/١ - ١١٦ ؛ انظر الباب الخامس أدناه

٥٢ ذو روق ١٥٣٢

وتدخل البعث تسع محال صرع وتعدى حدود لأسرة لصغيرة لضم في طاره
مظاهر الخلاف بدائمة التي كانت بين بطي تميم يربوع ومحاشع مند الحامية وكان
تدخل للبعث في هذه صرع. فوق ذلك. رمزاً حياً بصورة التي بتصور لها لبراع
لصغير ليصبح معركة متعددة الجيوب. ونسبولة التي يمكن بمقتضاها نكمة
عارفة أن تحدث سلسلة متصلة من ردود الفعل. كما كان الشار هذا تشير إلى
أن الجو العام كان مهياً لمثل هذه المعارك.

وكانت للبعث صلة بعيدة بيني سليط من طريق جدته النوار^(٤٣). وحين
رد عليه جماعة منهم إنه لتي سرقها بعض النصوص لم يجد من تعبير عن تقديره
هم وعرفه بحسبه أفضل من مؤارثتهم ولا يحفظ في صفهم على خصومهم من
بي كليب فقد ذكروا أنه شهد لهم بالفضل على أعدائهم حين قال: «وحدا
الشعر ونشرف في بني نوار»^(٤٤) وعصب بن كليب لذلك وصعب عليهم أن
يهموا حشر محاشعي نفسه في أمر يخص عشيرتين من يربوع. وقد عثر عن نصهم
عصبة بن حعان «يربوعي»^(٤٥) بيد أن الأمر الأقرب إلى الاحتمال أن بني سليط
لذين عرفوا بحجرتهم في ميدان الشعرية بدروا. كما فعلوا مع شعراء آخرين.
بدعوة البعث ينتصر هم على حرير الذي أحجم شعرهم عسان وكاد يسكنه^(٤٦)
وحكم جر البعث. بدخوله المعركة. فومه بني محاشع إلى حلبة مرشقة وعرضهم
لشعرية حرير المريزة. وفي هذه الأثناء كان الشعراء قد وقعوا في دوامة الحموح
نسي الكبري التي كانت تمتد في اطراد وسرعة لتشمل العصرة وباديتهم. ووحدا
نفسهم في حاجة أكثر من أي وقت مضى لإبراز مجد الحارب الذي يستبي إليه

٤٣ نسه ٣٨ .

٤٤ نسه ١ انظر الشايب: تاريخ الفاضل ٢٤١ وما بعدها ؛ عاوي الزميري: نقائص جرير والفردي

٤٥ ، ٦٧ .

٤٥ نسه .

٤٦ ابن سلام ٣٢٦ .

ن انص من اراعي عليهم وإنما يدافع عن أمثالهم أو مثلي^(٥٥)

ولئن امتنع في البداية عن ذكر جرير ونأى عن هجاء قومه كليب وحصر نفسه في الدفاع عن قومه بجاشع ولم يتورع من التصدي لتبعيث فافحاء، فإن مسلت جرير، كما سبقه من بعد، وصع الفرزدق في موقف استحال معه المحافظة على موقف الدفاع لمجرد. وحدثت المعركة بينهما ولم يعد لهما من خيار سوى اللقاء كل سلاحهما فيها^(٥٦).

وهكذا نزل شاعرا تميم نكيران إلى الحلقة في زمان كان وصع ابصرة الداحي فيه في أسوأ أحواله فلما يتعلق بالصلوات بين القتائل. فإن قيسا ما أكده بن سلام من أن هجاء بينهما يحس نحو من أربعين سنة^(٥٧) كتقدير قريب لاحتمال. وبما أنهما توفيّا خلال سنة ١١٠ هـ / ٧٢٨ م، فيمكننا أن نعترض أن صرعهما يرجع إلى فترة قبل موت يزيد الأول عام ٦٤ هـ / ٦٨٣ م.

وهناك من الشواهد ما يدل على أن الحصومة الشعرية التي اشتعلت في فترة متقدمة في الناحية قد اسقطت إلى المدينة خاصة بعد تورط الفرزدق فيها وكان يسكن حينئذ أسيرة وذكر ابن قتيبة أن جريراً كان مقبلاً بالثروت من لبديّة والفرزدق بالعراق وهما يتهاجيان فأرسلت بو يرثع إلى جرير: إنك مقبم بالثروت ليس عندك أحد يروي عنك والفرزدق بالعراق قد ملأها عليك منذ سبع حجج. فاجدر إنى العراق وأقام بالبصرة^(٥٨).

وبذلك اتخذ لشاعران من لبصرة مسرحاً لشاطئهما وقد بلغ هذا الشاطئ مدى

٥٥ ديوان الفرزدق ١٥٢/٢ - ٣.

٥٦ انظر مقدمة القفاص ليمان ص xviii.

٥٧ طبقات شعراء ٣٢٩.

٥٨ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٤٩/١؛ وانظر الزهري لتحقيق ذلك.

في ولاية عهد سنة من الحارث لقباع (٦٥ ٦٧ / ٦٧٤ - ٦٨٦ هـ) اضطرت
حكاكم معه إلى هدم داريهما ومضارتهما من نصبة^(٦٥) وكان هذا ينصرف المنظر
في شدة من القبايع الذي عرف عنه التسميع وتعميل في الأمور^(٦٦) دنيلاً على أن
حصرهما استثنى وأثر على الوضع الداخلي بحيث لم يصح السكوت عنه ممكناً.
وأصبح ذلك يشكل خطراً على الأمن الداخلي خاصة وأن الأمر بدأ يؤثر على بعض
مسئولين عنه فقد ذكر أن عبّاد بن الحُصَيْن الحُصَيْنِي التميمي الذي كان مسؤولاً
عن شرطة قنص الحارث جريز على الفرزدق وعُذْره فرساً ودرعاً في معركة شعوية
مشهورة بين الشعاعين في المبرد^(٦٧). وقد ذكر ذلك الفرزدق حين قال :

أَتَحْسَبُ قَلْبِي خَارِجاً مِنْ حِجَابِهِ إِذَا دَفَّ عِبَادٌ أَرَزَّتْ جَلالُهُ
أَنِّي قَمَلِي مِنْ كَلِيبٍ هَمَجُوتِهِ أَبُو جَهْضَمٍ تَغْلِي عَلَيَّ مَراجِلُهُ
أَحَارِثُ دَارِي مَرْتَبِينَ هَدَمْتُهَا وَكُنْتُ ابْنَ أَخْتٍ لَا تَخَافُ غَوَائِلُهُ^(٦٨)
ويرجع صغر عبّاد على الفرزدق إلى مرحلة متقدمة حين قال الفرزدق :
سِرْ دَرَمَ أَكْدَاؤِهِمْ لَنْ مَسْمُوعٍ^(٦٩) وَتَنَكَّحْ فِي أَكْدَائِهَا لِحَضْرَتٍ^(٧٠)

وكان يعني بذلك أن الحَضْرَتَ الذين يسمي إبيهم عبّاد أدنى مقاماً من بني
دارم من نخيم قوم الفرزدق. والحَضْرَتُ بالو أدنى مقاماً من آل مسمع. وقد حقد
عبّاد على الفرزدق وكان يناصر حبيباً عنده وإن اضطره الحاكم أجبراً إلى هدم
داريهما معاً. وكان جريز جريثاً حين قال للقباع حين هدم داريهما :

٥٩ البلاذري: أسباب الأشراف ٢٧٨/٥ .

٦٠ النفاذ ٦٨٣ .

٦١ النفاذ ٦٨٤ .

٦٢ ص ٦٠٦ - ٨ ؛ ديوان الفرزدق ١٧٢/٢ .

٦٣ أهل الرئاسة في بكر بن وائل: المبرد، الكامل ٢١٣/١ .

٦٤ فرج من نخيم

٦٥ ديوان الفرزدق ١٠٧/١ ؛ كامل المبرد ٢١٣/١ - ٤ .

أحارث خذ من شئت منا ومنهم ودعنا نقس مجداً نُعدّ فواضله
فأ في كتاب الله تهديم دارنا بتهديم ما خور^(٦٦) خبيث مداخله^(٦٧)

وكثيراً ما أدت هذه المسحلات السعوية إلى العنف وسفك الدماء. فقد روى أبو عبيدة أنه لما توافق حرير والفرزدق بالمربد لمهحاء اقتتل سو يربوع وسو محاشع فأمدت سو العم مجاشعاً وجاءوهم وفي أيديهم خشب فطردوا بني يربوع فقتل حرير من هؤلاء ؟ فهو سو العم فقتل حرير يهجوهم

ما للفرزدق من عز يلوذ به إلا بني العم في أيديهم الخشب
سيروا بني العم فالأهواز داركم ونهر تيرى ولم تعرفكم العرب^(٦٨)
وكانت نهاية مطاف أن الفرزدق هرب ووقع حرير والسوار روح الفرزدق في أيدي الشرعة محساً^(٦٩) وقل الفرزدق وهو يتأمل ماصيه لثائر محاطاً القبايع فقبلك ما أعيت كاسر عينه زياداً فلم تقدر عليّ جباله
فأقسمت لا آتيه سبعين حجة ولو نشرت عين القبايع وكاهله^(٧٠)

٦٦ يعني مرير حرير

٦٧ شققت ٦٨٣

٦٨ لأسدي ٣ ٦٠

٦٩ شققت ١٦٠

٧٠ نسخة ٦٠٧ - ٨ ديوان الفرزدق ١٦٢٢

الفصل الثاني

عصر جرير والفرزدق

كان بصدوم بن جرير والفرزدق قمة تطور طبل يستجمع مع رمن قواه ونصم في إضاره أعداد مترادة من شعراء بيد أنهما دون سواهم من مثب الشعراء المعصرين لما أخرج من المعمة عملاقين لا يخنف فيهما محصف وصلا سبطران على ميدان الشعر حتى وفائهم وبعدهم كثير. وقد تجت في شعرهم كثير من موب عصرهم واتجاهاته. وقد مثلاً فيما بينهم لإصار الوسع لمجياة نصرة في معظم صورها وبكل تعقيداتا لمدي أكثر من نصف قرن من الزمان.

ويمكننا اعتد علاقتهما بعضهم وبغيرهم من الشعراء وجمعت بعكس صادقا نسبات والاتجاهات التي كانت تسود مجتمع بصرة في أيامهم فقد عكسا في لمكان الأول اندفاس ثقلي في كل مظاهره احاصه منها ونعمة فهم إذ كانا يسميان إلى عشرين محتلفتين من تميم صورا في شعرهم المديت وصادقت نعيفة التي كانت تقع كثير بين فروع القائل وضومها وعشورها لصعري وكانت هذه ترى صلاحها حصة في وقت الشدة والأزمات في لتذر والتلاحم تحت رية تجمع قبلي كثير ومن ثمة ترى اشاعرين وفي نفس الوقت لمدي يتشاش فيه بعني بعضهم انتصارا للعشيرة التي ينمي إليها الواحد منهما - مثل ما يفعل العشرت غيرهما من معاصريهما. يشتركان في الدفاع عن تجمع تمم لأكر وكلاهم يصحر بأوه ساءه ثقلي معترف به وحين دعت الصرورات سياسية لتجمع

أكثر انتهى فقام معسكر جندف (وكثره من تميم) في مواجهة معسكر قيس، ثم تجمع كلا المعسكرين تحت اسم مضر في مقاسة ربيعة. ثم تلاحم الثلاثة تحت اسم لرازين أو العدسة في مواجهة ليمس أو قحطانية^(١)، فإن الساعرين صوّرا كل مراحل هذه الأحلاف في اضطراب وتعرجها بمرصد وفوق تصويرهما للحرب الرسمى للشاهد القليل سواء كان من ذلك ما يتصل بعلاقة لقنن بعضها بعض أو بعلاقتها بالحكومة الأموية، فإنهما عبرا في قوة وصدق عن العلاقات الإنسانية العديدة التي كانت تقوم بين الأفراد العاديين في مجتمعهم^(٢).

ولكي يحدد في تحت سريعة المظاهر تكثرى هذا الشعر القبلي الذي يعقمت في شعر المحبين التميميين ومعاصريهما فسماحه أولاً على اعتبار ما كان يجري داخل قبيلة الواحدة من صراع وتنافس ثم ينطرق ثانياً لما كان يجري بين قبيلة من حطب ولقنن لأخرى والتجمعات القبلية الكبرى من جانب آخر.

الصراع داخل القبيلة :

سقت لإشارة إلى المصادمت المختلفة التي وقعت بين بعض شعراء التميميين ورددت بطرق مختلفة صدى لخلافات التي كانت قائمة لسبب أو لآخر بين هروخ تميم لمتعددة وعسائرها. ولا يخرجنا شك في أن معظم القبائل الأخرى كانت في وضع مماثل. بيد أن كثيراً من آثار تميم قد وصل إلينا في إنتاج شعريها وفي غيره من الأعمال الأدبية خاصة «مقائض حبيب ولفردق» التي جمعها أبو عبيدة فأحدها من هذه الناحية أوفى وأشمل من أحدها غيره من نقائل. وعلى أن تكون كثرة شعرائها وجمدة شعرهم قد ساعدت كثير من أي اعتبار آخر على تحديد ذكرها في مراجع الأدب.

١ انظر الباب الأول الفصل الأول من ١٨ - ٣٠ ، ٣٣ - ٣٤

٢ انظر بلا ١٥٩ - ٨ ، دائرة المعارف الإسلامية مادي حبيب والمرتضى .

وفي قبيلة تميم مثل نحي للمدى الذي قد يسعه شافس لقلي. فقد يضيق
من نغصية حيث يبيع شافس بين العشيرة أو لمجموعه لعائلة الواحدة كما
حدث في قصة الأثريد وبن عمه الأخوص الذين هجوا سحيم بن وثيل بندي كان
يسمي منهم سي ربح من تميم^(١). ومثل ذلك الصراع الشعري الذي شت بين
حرثة بن بدر وسي سيص وكلهم من بني يربوع من تميم^(٢). وما حدث بين الفرزدق
ومعيت بندي أشرف إليه سابقاً نموذج حي لما نحن بصدده فكلاهما كان يتنصر
لعشيرته مشركة شاشع على كليب ولكن كلا منهما كان يهاجم في ذات الوقت
لأسرة الأخرى من شاشع بن يسمي إليها خصمه. فحين ستعت لمعيت وفرزدق
على جرير افتزع الفرزدق حملته بهجاء الشاعرين معاً في قوله :

لو جريز اللؤم لو كان عانياً ولم يدن من زار الأسود الضراغم
وليس ابن حمراء العجان^(٣) بمقلتي ولم يزدجر طير النحوس الاثام
وإنكما قد هججاني عليكما فلا تجزعا واستمعاً للمراجم^(٤)
وصل لمعيت طول الفترة الأولى من الملاحاة بين جرير وفرزدق بس حظه
من شتم الفرزدق وهجائه مثل جرير .

وفي هذه قضية إشارة إلى الحيدة التي كانت كثيراً ما تعترى بعض شعراء
حين يخلدون أنفسهم في موقف دقيق يتحتم عليهم فيه هجاء شاعر أو فرد عادي
تمت إتيانهم بصفة المرأة ودم فحين تنهى الصدام بندي استعري بين الفرزدق
ومسكين الندومي سبب مدح مسكين لرياد بن أبيه عدو الفرزدق كان الفرزدق
يقول : بحوت من أن يهجوئي مسكين، وإن أجنبه ذهبت سطر هجري وإن

٢ المبرد: الكامل (المصنف) ٣٩/٣ ؛ الأغاني ١٤/١٢

٤ الأغاني ٢٢/٢١ .

٥ تشير هذه الصفة إلى أصلها الفارسي أو إلى حقارة مهنتها. ولصق هذا القلب بالعبث

٦ ابن سلام ٣٢٨ ؛ ديوان الفرزدق ٣١٨/٢ .

فمسكت عنه كنت وصمة علي مدى الدهر^(١٠) ولكي يتفادى الشاعر شمل كل
نفسه دمهء فيه يلجأ عادة إلى أفراد الشخص المعني عن بقية لقوم باتهامه أنه
عريب عنهم لا تربطه بالأصل المشترك ربطة. ويتجنى هذا الاتجاه في أعنف صوره
بين شعراء جميع بلدات وبرزدق أقوم كل دعواه على البيت على حقاره أصه
وأنهم مسته. إذ رعمو أن لم البيت كانت حارية سحسنة^(١١). ونقسه فوق ذلك
«اس حمراء العجان» كما ذكرنا سابقاً، و «ابن النجينة»^(١٢). وذهب إلى ذلك
مذهباً بعيداً حين أنكر تميميته جملة في قوله :

وما أنت مِنّا غير أنك تدعي إلى آل قُرط^(١٣) بعد ما كنت عانياً^(١٤)

وحين سعى البيت نردّ على هجمات خصمه أبرز في هجائه لؤم قومه ومخازيهم
ووصاية أصلهم. ونكر عبهم. كما فعل جرير بعده. صلتهم بتميم واحتجّ
عليهم بأنهم سلالة عبد أو قين يعني كما في قوله :

تناوتم لأعين^(١٥) إذ دعاكم بني القينات للقين السباني^(١٦)
وهو تبعه في فكرة. «القبيل» حرير وضاف إليها أن حدهم علح (أي أخني)
كما في قوله :

ولد الفرزدق والصعاصع كلهم علح كأن وجوههن مقالي^(١٧)

٧ الأعيان ٣٢/١٩ .

٨ ابن سلام ٣٢٦ .

٩ الفائق ١٢٥ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ديوان الفرزدق ١٥٢/٢ - ٣ ، ٢٦٨ .

١٠ قُرط بن سفيان بن مجاشع جد البيت. انظر الفائق ٤٥٣ .

١١ الفائق ٦٢٣ .

١٢ أعين بن ضبيعة المجاشعي أبو النور زوج الفرزدق قتل بالبصرة بعد الجمل انظر الطبري ٣٢٠٠ .

١٣ الفائق ١٢٥ .

١٤ نعه ٣٢٢ .

وقد مرّ بـ من قبل كيف أن حريراً وصف بني العجم بأنهم عرباء لا تعرفهم
لعرب، ونفى علاقة عريين وهي إحدى العشائر النعمانية بأصلها النعماني حين
هدّده أحد أفرادها بالقتل لهجائه سليطاً، فقال لهم :

عَرَيْنَ مِنْ عَرَيْنَةٍ^(١٥) لَيْسَ مِنَّا برئت إلى عَرَيْنَةٍ مِنْ عَرَيْنَ
عبيداً مسبيين لعبد قيس من القن المولود والقطين
عرفنا جعفرأ وبني عَيْد وأنكرنا زعانف آخرين^(١٦)
وسمّي الفرزدق حريراً وقومه عبيداً حين خاطبه بقوله :

وابن المراغة يدعي في دارم والعبد غير أيه قد يتنحل
ليس الكرام بناحليك أباهم حتى تُردّ إلى عطية تعتل^(١٧)

ولكن رغم هذه الحيلة فإن الشعراء كانوا يتخرجون من هجاء عشائريهم كما
ستنتف من حديث شاعر لم يعرف عنه أنواع في الضجاء وهو الفرزدق. وذلك
حين قال في أمر بني جارم من ضبة، أخواله :

لولا بنو سعد بن ضبة أصبحت بنو جارم مني على ظهر أجزل
قد كنت عس شمة لعسيرة محرمأ ولكن متى تستعجل نشر يعجل^(١٨)

ورغم كثرة هذه المشاجرات^(١٩) فلم ينبع أي منها مدى لعنف ندي بلعه
صراع بين حريز والفرزدق. وقد ذكرنا من قبل أن تورط هذا لشاعر لأحير في
لصراع الندي كان قائم بين جرير والبعيث قد أضفى على النزاع صبغة مختلفة

١٥ قبيلة عجم .

١٦ الضائف ٣١ .

١٧ ع ٢٠٢ .

١٨ ديوان الفرزدق ١١٤/٢ .

١٩ ر حسب نوع بين حريز والفرزدق وشعره الذين ذكرناهم بصر الشعر وشعره لاس فتيبة ٢ ٦٦٧
والنفاص ١٢٤ لما جرى بين الفرزدق ومرة بن مَحْكَان .

وأكسبه بُعداً حديدية. فقد أضيف إلى المعهود بغيمة متأنية من الفخر يقوم لشعر طنت تقوى مع نرمس، وقد بلغ هذا التصور قمته قليل الدلائل الحصومات بين قنن مصرّة بعد موت يزيد الأول وبذلك أصبح لنراع بين الشعريين لكبيرين لا يعترّ عما يحول في دائرة عشريتهما نصيقة فحسب بل شمل إلى ذلك قدراً كبيراً من تعبير عن جوانب أخرى كما سيتضح لنا في بعد ولكننا سقتصر هنا على حذب النراع المتعلق بعشريتهما مجاشع وكتيب مرحثن الحديث عن الجوانب الأخرى لمرحلة متأخرة من هذا الفصل .

وسدي يتضح لنا - بعد أن نضع في الاعتبار كل نغامن الشخصية التي نعد العلاقات عدة في أي مجتمع بشري - أن اندافع ضد الصراع ولكن الأون الأخرى التي شهدتها الفترة كان يكس في شعور المشتركين فيه بأنهم على موعد مع المحاح وأنهم لا شك مصيبون فائدة ومكساً من وراء هذا لنشاط^(٢١) ولحقيقة الراسحة في الأدهن من أن معظم هذه اعشائر ولقروء كانت تعمل في ماضيها القريب مستفنة عن بعضها ولا تنوزع في بعض الأحاد عن الإغارة على أقرب قرّائها^(٢٢) لتحقيق مآربها لشخصية ثم يمكن أن يتكرر في ظروف الجديدة لإحراز نفس النتائج - هذه لحقيقة ماثلة في اسراف شعراء في استرجاع مآثر عشائريهم وعداد انتصاراتهم الحربية على غيرها في الجاهلية والإسلام وقد مهّد حرصهم شديد على تسجيل أيام العرب السبيل للمؤرخين وأمدّهم بمادة، وإن لم تكن دائماً دقيقة، لدراسة تاريخ العرب قبل للإسلام^(٢٣) ند أن هذه المادة التي مضرت لنها الأحوال تلاحقة من ناحية قيمتها تارخية كانت قضايا حية

٢١ انظر ص ٨٠ - ٨١ أعلاه

٢٢ رشت بنو شيان من بكر بني يربوع فخلوا بينهم وبين بني عمومتهم بني سعد من تميم، اسقاض ١٤٤

٣٢٦، ٥ .

٢٢ ابن رشيقي. المجلد ٢/ ١٩٨ - ٢٢٥، المقدم الفريد ٣/ ٦ - ١١١ .

(ي' لأنت) وهي صفة تُصِفُها بها غسان من قبل^(٣٧)، وتبعتها نارسى^(٣٨)، ويرمى حصصه بنهضة معاشرته أمه^(٣٩)، وجعل ساء كعب بالشم وعصا^(٤٠)، وهجا كعب إلى ذلك فقرهم الظاهر، وصور ساءهم إماء ورعة^(٤١)، وهو أمر عادية في مهنة عبد عرب، إذ أن رعي لايل لا يقوم به في لعادة غير رُحال^(٤٢)، ودل على حقارة مكنتهم الاجتماعية حين وصفهم بأنهم أصحاب عم وحمير^(٤٣) يؤذون مهوور فتيانهم حرفاً بدم الخمل، ويحرون في الساق على الحمير بس الخيول^(٤٤)، ورماهم فوق دنت بأنهم يأتون نهم ويتحدوها أرواحاً^(٤٥)، الأمر الذي أعصب عليه بعض الكنديين حتى كادوا أن يفسروه حين مرّ بديارهم دت مرة على إتيان دن فلم ينقذه من ذلك إلا ذكاؤه وسرعة بديته^(٤٦)

وبكفي أن نذكر هنا أن الشاعرين م يتورعا من استغلال كل الوسائل المشحة من لتحقيق مآربهما، فلم يأتوا جهداً في تعداد مصادر قويمهم، وذكر مساويء حصصهم مستعينين في ذلك بكل ما يستطيعان الاعتماد عليه، فإلى جانب فخرهما بتميم قضة مما ستعرض له فيما بعد، فخر الشعراء بطراد خاصة بعد فترة حكم بني الربيع - بكل عشائر تميم التي بضائها موية هما في الصراع، فأفاض مزريق في ذكر مآثر عشائر دارم المختلفة، رغم أنه كان قد هجا بعضها من

٣١ نسخة ١٧

٣٥ نسخة ٢٠٥

٣٣ نسخة ٢١٠

٣٤ نسخة ٢٣٢ - ٣ ، ٢٧٩ ، ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٥١٣ ، ٧٠٤ - ٥ ، ٧٧٣ ، ٨٧٨ .

٣٥ نسخة ٣٣٢

٣٦ نسخة

٣٧ نسخة ٣٩٣ - ٤ ، ٤٩١ ، ٥٧٢ ، ٦٠٤ ، ٦٢٣ ، ٧٩٢ .

٣٨ نسخة ٢٩١

٣٩ نقائص ٥٧٣ - ٤ ، ٦٢٧ ، ٧٩٣ ، ٨٢٣ .

٤٠ الأغاني ٤٠/١٩

قبل وفي قصيدة من قصائده^(٤١) فخر بمجاشع ونهشل وقيم وبني طهية وربائع ،
وسبي العدوثة وندحم وحصه وضبة في حين فخر حرير^(٤٢) . بعد أن ذكر انتصاره
على مجاشع ، بجلي تميم عمرو ومالك . وكان هذا الإحساس بالدائرة العريضة
التي تشمل في إطارها جميع تميم تحذراً أحياناً من علواء الشعراء وتدفعهم إلى تضيق
دائرة محاشهم . ولعلّ هذا الخوف من «تصعيد» الصراع هو الذي حدا بحريز
لإصدار محاولة سبب وشرذم من بعده لتصوير الصراع بينهم وكأنه كان براعاً
بين بني مالك وسبي يربوع ومرعين كبيرين من تميم للذين تنسب إليهم غنيرة هما
ويظهر ذلك في قوله للبعيث :

أنتم يربوعاً لأنتم مالكم
وغيرك مولى مالك وصميمها^(٤٣)

ولم يتوان من الفخر بالنسابة هو إلى مالك كما فخر حصمه البعيث بمكانته
العالية فيهم^(٤٤) ، وذلك حين قال :

في فصل في أفاء عمرو ومالك
ونكي يضل حجه محصمه من بني مجاشع كان يغري بني مالك بمجاشع
كما في قوله :

بني مالك لا صدق عند مجاشع
ولكن حظاً من فياش على دخل^(٤٥)
وقد تحلى في انصرع أثر عصاة القليلة في ندية عامه من حاسب آخر إذ

٤١ القائض ١٨٢ ؛ اطر الديوان ١٥٥/٢ - ٦١ ؛ ٣٩/١ - ٤٠ ؛ ٩٩ - ١٠٥ ؛ ٢٢٢ - ٤ ؛ ٢٨٢ ،

٤١٨ ، ٤٢٣ ، ٢١ ، ٤ ، ٢٦٩ ، ٧٠ ، ٢٦٤ ، ٥ ، ٣٠٥ ، ٦ ، ٣١٨ ، ٢١ ، ٣٢٤ .

٣٢٩ - ٣٢٥ ،

٤٢ القائض ٢٢٤ ؛ ديوان جرير ٣٥٨ ،

٤٣ القائض ١٢٤ ،

٤٤ نسه ١٤٣ .

٤٥ نسه ١٦٢ .

٤٦ نسه ١٦٥ .

يبرز لاتحده نحو الفخر محمد العشيرة لحرني وتعداد تصدريتها لا على العشيرة
لنفسه وحسب كما كان شأن في فترة مكررة، ولكن على كل المجموعات نقية
الأخرى خاصة بعد موت يزيد وحرير في هجائه لم يكتف مهجاء مجاشع
بل أخص في ذكر انتصارات فرعه بني كبيب على قبائل شيبان وكر وسواها^(٤٨).
وتعدى السبعث نفسه بطق لقبية اضيق وتجاوزه إلى آفاق أرحب حين هجا جريراً
وتحدث عن مآثر مجاشع في قوله :

وكل معدّ قد جزينا قروضهم فبؤسى ببؤسى أو بعماء أنعماء^(٤٩)
وفي هذه الأثناء بدح عصر حديد في المراء مشيراً إلى اطراد قوة قریش
تتي بسهي إنيها الأمويون. فحين يسعى جرير لاحتباط حجاج المرزوق يخاطبه بقوله:
فرجع إلى حكمتي قریش^(٥٠) إهم هل أسوء والكتاب المنز^(٥١)
دعلاً بذلك قریشاً يحكم إلى جب مصر وربعة^(٥٢). أما المرزوق فيعتبر
قریشاً القبيلة الوحيدة التي ترقى إلى مستوى قومه فيقول :

فما من معدي كفء نعه لنا غير يتي عبد شمس وهاشم^(٥٣)
وبن كان حظ تميم من هدا شعر كثيراً. كما أعتا إلى ذلك. وإهم لم
يكنوا في معظم الظن متفردين عن القبائل الأخرى الذين وإن لم يصلوا عنهم
شعر كثير إلا أنهم كانوا في مثل حال تميم كما يستدل من قصص التعديل بين
انفرج شاعر بكر بن وائل بني انتهى حصامه مع أساء عمه حوب رواج نختمهم
إلى معركة سال فيها الدم وطلبت فيها الثارات^(٥٤).

٤٧ الفائق ٦٦ - ٧٧ .

٤٨ نفسه

٤٩ أي عبد شمس (أمية) وهاشم .

٥٠ الفائق ٢٢٤ .

٥٢ الفائق ٧٤٧

٥٣ الأعاني ١١/٢٠ - ١٩ .

٥٤ ٢٢٥ : انظر أيضاً ٧٦٣ - ٤ .

القبيلة على القبائل والأحلاف الكبرى :

كان نحد عشر الصغيرة للانضمام إلى فروعها الكبيرة بعرض تكوين وحدات قبلية أكبر مثل تميم وقيس والأزد وبكر وعبد القيس وغيرها مما ارتكزت عليه خطة تقسيم مدينة إلى أحباس^(٥٤) بكس في أعماق تحفة شعراء وقد ضمهم ذلك قدر كبيراً من شعريهم ورغم أن كثرة هذا الشعر توسع في الحديث عن مراب لعشائر التي سمي إليها الشعراء مشيرة بذلك إلى تسلط العشيرة على عقولهم ومشاعرهم إلا أنها كانت تعبر بصورة مطردة - تفتح أحياناً مع مدح عشيرة عن الفخر بأجداد الوحدة القبلية الكبيرة .

ومن المهم أن نسه هنا إلى أنه رغم أن شعور الانتماء إلى مجموعه أكبر كان دائماً حقيقة واقعة في عصره كما دللت على ذلك أحداث واقعة الجبل. إلا أنه نادراً ما يُشار إليه - على الأقل في الشعر - إلا في أوقات الأزمات أو حتدهم العداوة مع المجموعات الكبرى الأخرى خاصة بعد موت يريد من معويته وأنه من الأوفى هذا أن نسق لحودث ونذكر أن ضعف الإحساس انساني هذا الشعور هو الذي حدا بحريز لأن يكون، تحت ظروف معينة. لسار قيس عيلان الذين كانوا في كثير من مواقف أعداء قبيلته تميم الألداء^(٥٥). وعسى أن تعين دراسة ما وصينا من هذا شعر دراسة برعي فيها التسلسل الزممي. على تين ارتفاع لحظ النبني فده ظاهرة فيها لم اعتبرا تماماً نموذجاً هذا الذي يحري أمكسا ملاحظة سيرة لإشارة لتسم في أسعد الفترة المسكرة خاصة تلك المتعققة بالزعر بن العشائر المحلقة. ولكن كما اردت أهمية تميم كتفة على مسرح الحياة السياسية قبلية سرت نغمة موازية لذلك في الشعر وازدادت قوة مع الزمن. ومثل هذا الاتجاه واضح حتى في الشعر الذي يطب في ذكر مآثر لعشيرة الصغيرة. وكثيراً ما فخر الشعراء

٥٤ عبر الباب الأول ص ١٨ .

٥٥ نظر ص ١٤٧ و ١٨٦ أدناه

سميع واعتزرو بأنهم إبنها وهم يهجون العشائر المدافعة لهم. فحريز حين يعدد مآثر قومه يقول للبعيث :

ويوم عبيد الله خضنا براية وزافرة تَمَّت إلينا تيمها^(٥٦)

وذكر البعيث مثل ذلك لجرير في قوله :

والفيتنا نحمي تيماً وتنتمي إلينا تيم بالفوارس والرجس^(٥٧)

وقد نطقي هذه المعاناة أحياناً على موضوع لواء لأصلي كما يستدل من كلمات جرير عن البعيث والفرزدق في ولاية القباع :

تمني رجال من تيم لي الردي وما زاد عن أحسابهم ذائد مثلي

كانهم لا يعلمون مواطني وقد علموا أني أنا السابق المبلي^(٥٨)

وقد ضعف من حدة الشعور بالانتماء للقبيصة الأم ما كان يضطرم دحل مدينة من عيال وصدام بين القبائل. فحرق ابن الحضرمي عام ٣٨ هـ ٦٥٩ م^(٥٩) الذي قام به جماعة بعضهم من تيم صوره نغرندس لأزدي وصمة تيم جميعهم دغار وأرر في ذات الوقت إحارة زياد فصيبة لجميع الأزد^(٦٠). والواقع أن لأزمة لدولية التي استحكمت في أعقاب موت يزيد الأول كانت من أكبر العوامل في شحذ حدة الانقسامات القبلية. وكان دور تيم في توسيع شقة الخلاف القبلي بارزاً كما يستدل من أبيات حارثة بن بدر العدالي^(٦١) التي قام حين اضطلعت تيم المراء لأكر في تولية عبد الله بن حارث مشهور ببنه حكاماً على لبصرة^(٦٢)

٥٦ الفانص ١١٢ .

٥٧ صه ٦٤٣ .

٥٨ صه ١٦١ .

٥٩ انظر الباب الأول ص ٢١ .

٦٠ انظر الباب الخامس ص ٢٢٧ للشعر .

٦١ انظر الباب الخامس ص ٢٢٩ للشعر .

٦٢ الطنري ٤٤٤/٢ : وانظر الباب الأول ص ٢٤ .

وعل ذلك كان سره لأرد وكر وعد القيس^(٦٣) الذين لم يندوا ماصاً من صم
صفوفهم لمواجهة تجمعات مضر^(٦٤) . وقد صور حارثة بن بدر الصدام الحربي
بين الجانبين تصويراً جياً حين قال للأحنف بن قيس :

سيكبت عس نحو كهس مقارعة الأزد بالمربد
ويكفيك عمرو وأشياها لكيز بن أفصى وما عددوا
وأكفيك بكرة إذا أقبلت طعن يشيب له الأمر^(٦٥)

وكانت نتيجة هذه المعركة مقتل مسعود بن عمرو الغتكي زعيم الأرد وقد
صر شمس لشدته في لإصار انعم للأحلاف قسبة كما يستشف من أبيات
عزهم بن قيس^(٦٦) :

ومسعود بن عمرو إذ أتانا صبحنا حذ مطرور سنيثا
رجا التأمر مسعود فأضحى صريعاً قد أدفاه سور
سيجمع جمعنا لني أينا كما لزوا القرينة والقرينا
وتغني الزط عبد القيس عنا وتكفينا الأساورة المزونا^(٦٧)

وقد ذكر سور بن حيان المصيري الرابطة القائمة بين قيس وتميم حين تحالفا
كمضر .

ألم تكن في قتل مسعود غير جاء يريد إمرة فما أمر
حتى ضربنا رأس مسعود فخر ولم يوسد خدّه حيث انعفسر
فأصبح العبد المزوني عثر حتى رأى الموت قريباً قد حضر

٦٣ القصص ١١٢ .

٦٤ انظر الباب الأول ص ٢٤ .

٦٥ الأعاني ٢٩/٢٩ ، اللرد : الكامل ١٢٩/٢ .

٦٦ القصص ١١٥ ، الطبري ٥٥٦/٢ حيث ذكر الاسم جرهم .

٦٧ نفسه ٤ بلا ٣٢ هامش ٧ لمطة مزوب .

يطمهم بحجر تميم إذ زحر وقيس عيلان يبجر فانفجر
من حوطم فا دروا أين المفر حتى علا السيل عليهم فغمر^(٦٨)

وقد كُتبت العوامل السياسية هذه الانقسامات وضاعفت من حدتها فكانت
لمجموعة المضربة خاصة قيس^(٦٩) ومعظم تميم^(٧٠) زبيريه ومحالفة لني مية وقد
دارت معركة لحفرة على أسس هذه التجمعات لقبية^(٧١) وحين هزم مصعب بن
الزبير ابن أسيد قال أبو نخيلة متحدثاً بلسان قومه تميم :

نحن ضربنا الأزدي بالعراق والحي من ربيعة المراق
وابن أسيد قائد النفاق بلا معونات ولا أرزاق
إلا بقايا كرم الأعراق لشدة الخشية والاشفاق
من المخازي والحديث الباقي^(٧٢)

وقد نُقِيت أحدث حرس بطلها الكثيف على مسرح الحياة في مصر وترب
عنها انقسام المعسكر لمضري^(٧٣). وقد بدأ اصدم عام ٦٧٤ هـ / ٦٩٣ م حين قتلت
تميم عبد الله بن حارم القيسي. وكان نشاط بشر بن مروان الذي كُتبت أمه من
قيس وشاط الحجاج^(٧٤) من بعده عاملاً حاسماً في التمكن لقيس. وبدوا أنهما
أعزياً حريراً تمدح قيس والتحدث بلسانها وقد قام بدئت في حماس إذ أن أحوله
كان من قيس^(٧٥). وقد ضمن حكم لحجاج الصارم استقرار الأمن القلي مدى

٦٨ التفاتص ١١٧ .

٦٩ سلاوي أساب ٣١٤/٥ ، ٣١٩ ؛ ابن سلام ٤٣٧ .

٧٠ انظر الباب الرابع للشعر في ذلك .

٧١ انظر الباب الأول ص ٢٥ .

٧٢ سيرة الكامل ١٠٢/٢ ؛ ابن المعتز : طبقات ١٨ .

٧٣ انظر الباب الأول .

٧٤ انظر الباب الأول .

٧٥ المبرد : الكامل (المصفي) ٢١٩/٤ .

عشرين عاماً. وممته سمرت الحلاوت من جديد ووصل الانقسام بين قيس
وتميم عايته حين قتلت تميم حاكم خرسان قتيبة بن مسلم^{٨٠} ومدهده للحضة
ترتبط العلاقات قتيبة رتبط لا يفصم بالسياسة الأموية ويتولى اشعرء - كما
سيتضح في باب الثاني - وصف أشكال الأحلاف قتيبة استغية "بدا" داخل
الإطار العام للسياسة الأموية .

البَابُ الرَّابِعُ
الشَّعْرُ وَالذَّوْلَةُ

الفضل الأول

الشعراء والخلافة

لعلَّ خير تعبير عن نخوة عصرة العام في سياسة ما قانته ثم كعب بن سور لأردني في مرحلة متقدمة من تاريخ المدينة وكر كعب من قضاء مدينة مشهورين^(١) ثم من هو وإخوانه ثلاثة أو لأربعة في وقعة الحبل وحول عقه مصحف^(٢) فوقفت أهمه النكلى تطر إلى أحسادهم المسحاة في ألم وحسرة وتقول من خلال عبراتها :

يا عين جودي بدمع صرب على فتية من خيار العرب
وما لهم غير حين النفو س أيُّ أميري قریش غلب^(٣)

بد أنه رغم شعور عدم مهابة هذا الذي يرجع في عمومته إلى إشعل أهل عصرة بتقساماتهم القليلة لحادة وما يحجم عنها من صراع كثيراً ما قصصهم عن تيار السياسة الأموية عام^(٤) . فإن الصورة العامة التي يملكت بها شعر نصري صورة يمثل فيها الاعتراف بأسس الخلافة الدينية وقبول حق قریش فيها بيد أن ما

١ انظر ابن سعد ٢/٧ ص ٦٥ - ٦٦ لاعتزاله الفتنة أولاً .

٢ المبرد: الكامل (المرصفي) ١٥٢/٨ .

٣ ص ١٥٣ .

٤ انظر الباب الأول .

وصب عن هذه الأيام لأولى مبتسر. فأنحلاف بين معذوبة وعي أنذي انتهى دنتصار
 الأمويين لم يترك إلا ضعف الأثر^٥ في وصب من شعر وعسى أن يكون مرده
 قلة شعر في هذا المجال إلى ضعف حماسة انسواد الأعظم من أهل مصره لدي
 وصب في تمعهم لشديد في الامحيار كلية لهذا الحاب^٦ أو ذلك^٧ وحين أصبح
 ذلك لامحيار ضرورة ختمت الصورة. ومن ثم كانت انتشاع المترنة على انحصار
 العصر المصري وعلى رأسه تميم لم يري على المروانيين بعد موت يريد عم ٦٤ هـ /
 ٦٨٣ هـ عصيمة وقع في مجال لسياسة والشعر. وأصاب بدعوة الأموية من جراء
 ذلك نكسة كبيرة. إذ كان أغلبية لشعراء معارضين لهم وقد عرف الأمويون عنهم
 ذلك حتى أن عند مالك بن مروان حرم كل شعراء مضر من انتول بين يديه لميوضه
 نزيهة^٨. وقد عثر الفرزدق عن عاطفة تميم الطاعبة في هذه اعتره وذلك حين
 حاط بعض التميميين الذين وقفوا مع مروانيين في وقعة حقرة^٩.

عجبت لأقوام تميم أبوهم وهم في بني سعد عراض المبارك
 وكنا سراة ناس قبل مسيرهم إلى الأرد مصترأ لحاها ومالك
 ونحن نفينا مالكا عن بلادنا ونحن فقأنا عينه بالنيارك
 فما ظنكم بابن الحوارى مصعب إذا اقتر عن أبيابه غير ضاحك^{١٠}

ولكن لتكرين الذين كان مالك المذكور زعيمهم لم يكونوا كلهم معارضين
 لأن ربيع فقد نصح أحد زعمائهم سويد بن معجوف سدوسي^{١١} مصعباً وحذره
 بخيانة من يحيطون به :

٥ انظر ديوان أبي الأسود الدؤلي الذي كان شعباً من ١٧٤ - ٩

٦ انظر ص ٢٩ أعلاه .

٧ ابن سلام ٣٥٧

٨ انظر الباب الأول ص ٢٥ ؛ الطبري ٧٩٩/٢ - ٨٠٠ ؛ القلائص ٧٥٠ - ٢ .

٩ ديوان الفرزدق ٥٧/٢ ؛ الطبري ٨٠٠/٢ - ١ ؛ النفاض ٧٥٢ .

١٠ ابن سلام ٤٠٩ ، ٤٠٢ ؛ البلاذري كتاب ١٧١/٥ .

ألا ابْلغ مصعباً عني رسولا
ولن تلقى النصيح بكل واد
تعلم ان أكثر من تناجي
وإن أدنيتهم فهم الأعادي^(١١)

ومما يمتدح نصر في هذه عمرة المضطربة أن بعض الشعراء الذين أحسوا ما هو
الذي أصاب قريشاً من حرارة هذا الانقسام في صفوفها وحدو الشجاعة بتصدي
نفر يشد بلفظ جبهة فحين ستم عبد الله بن الزبير الفرزدق وقال له : ما أنت
وقومك إلا جالية العرب^(١٢) ، أجابه الشاعر بقوله :

فإن تغضب قريش أو تغضب فإن الأرض توصلها تميم
هم عدد النجوم وكل حي سواهم لا تعد له نجوم
ولولا بيت مكة ما ثوبتم بها صح المنابت والأروم
بها كثر العبد وطاب منكم وغيركم أخبذ الجيش هم
فهلاً عن تعلل من غدرتم بخونته وعذبه الحميم
أعد الله مهلاً عن أذاتي فإني لا الضعيف ولا السؤوم^(١٣)

ولم يكن مثل هذا فقد العلني يذهب في الناس دائماً دون أن يصدى له
بعض المصريين الآخرين بنود. فحين أنشد أبو حُرَابة التميمي قصيدة في المريد
صممها دماً لعبد الله بن علي والي سحستان وكان قرشياً شحيحاً وقال فيها :

فأرفض قريشاً كلها من أجل ذي الداء العضال^(١٤)

قال له عود بن عبد الرحمن التميمي : ما قلت ؟ اتشاهر لدس بشتم قريش ؟
فقد له أبو حُرَابة : إني لم أعصم إنما سميت رجلاً واحداً. فأغضب له عود حتى

١١ البلاذري : أنساب ٣٤٣/٥

١٢ الأعاني ١٠/١٩ .

١٣ م ١٠ - ١١

١٤ م ١٥٥ .

انصرف عن ذلك الموضوع. ثم أمر عون ابن أخ له فسق أبا خزابة في شرابه شرباً فسبح أمام بابيه ومرض أشهراً وأتى بعد ذلك المريد فهجى عون من عبد الرحمن هجاء مراً صاح به الناس^(١٥).

وأياً ما كان الحال فإن الزبيرين لم ينالوا حصاً وهداً من الذكر في الشعر. واستشهد فئة من المقطوعات المنعثة^(١٦) في المصادر فليس من شعر بصري كثير يتصدى للدفاع عنهم أو لشرح دعوتهم وتزيين سياستهم. واحتمال أن يكون الشعر الذي قيل فيهم قد أسقطه الشعراء من شعرهم خوفاً من بني أمية أو أسقطه الأمويون أو أسقطه الاثنان معاً افتراض ليس بالبعيد. إذ أن الدائرة قد دارت على آل الزبير بانتصار المروانيين وتوبيهم أمر الخلافة. ومن ثم توجه الشعر خاصة شعر الفحول بطراد لتحدث عن أعمال الخلفاء وولاتهم مشيداً بفضلهم ومزايهم. ولم يستغرق التحول زمنًا طويلاً فبمجرد قتل مصعب بن الزبير (٥٧٢ / ٦٩١ م) فتح البعيت البشكري الباب للشعراء من بعده حين قال :

ولا رأينا الأمر نكساً صدوره وهمّ الهوادي أن يكن تواليها
صبرنا لأمر الله حتى يقيمه ولم نرض إلا من أمية واليا
وحن قتلنا مصعباً وابن مصعب أخا أسد ولحجي الهانبا^(١٧)

ما الأمويون وقد كسوا الحولة في ميدان القتال فلم يتوانوا في السعي لكسب قلوب الناس وعقولهم. وتوجهت جهودهم للتأثير عليهم مستعينين في ذلك سلاح الدرس. فطنبوا في الحديث عن الخلافة وما يتصل بها من المراسم الدنية واستخدموا كل ذلك في تصوير الأمويين الذين تولوا أمرها حمداً للإسلام ورمي خصومهم بمعاداة الدين والكيد للإسلام. ومطابقة محتوى الشعر البصري الذي يصور هذا

١٥ هـ ١٥٣ .

١٦ نظر الأعاني ١٧/٦٥ حيث يمدح ابن مقرئ ابن الزبير ؛ ديوان المعاج ٣ حيث يمدح مصعباً .

١٧ الطبري ٢/١٦٠

الجلاب من الحياة السياسية لدعوى الأمويين السياسية أمر ملفت للنظر حقاً فمن يسير علينا أن نرى في نمصر الديني الذي يطغى على كثير من هذا الشعر أهم معام سياستهم خاصة تلك التي كان يادي بها الحجاج (٧٥ - ٩٥ هـ / ٦٩٥ - ٧١٤ م) وعبد الملك .

ولحجاج كان يرغم أن طاعة الحليفة فرض واجب على الناس في كل ما يرويه ويحدث على ذلك^(١٨) وقد روى أبان بن عثمان كلماته في هذا الشأن. قال قال الحجاج « والله لصاعتي أوجب من طاعة الله لأن الله تعالى يقول : فاتقوا الله ما استطعتم »^(١٩) . فجعلها مشيئة . وقال : « واسمعوا وأطيعوا »^(٢٠) ولم يجعل فيها مشيئة ولو قت لرجل . ادخل من هذا الباب ، فلم يدخل لحل لي دمه^(٢١) . وعن ابن عباس قال : كنا عند عبد الله إذ أتاه كتاب الحجاج يعرض فيه أمر الخلافة ويزعم أن ما قامت سموت والأرض إلا بها ، وأن الحليفة عند الله أفضل من ملائكة ومقرئين والأنبياء ومرسين ، وذلك أن الله خلق آدم بيده وأسجد له الملائكة وأسكنه حته ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفة^(٢٢) وجعل الملائكة رسلاً له وعجب عبد الملك بذلك وقال لوددت أن عندي بعض الخوارج فخاصمه بهذا الكتاب^(٢٣) . وحرج لحجاج من كل ذلك أن خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله إليهم^(٢٤) وكان يدعم حخته بسؤال من حوله : ويحكم خليفة أحكم في أهله أكرم عليه أم رسوله إليهم ؟^(٢٥) ومقتضى هذه الأفكار تنع الحجاج كل

١٨ ابن حجر : تهذيب التهذيب ٢/ ٢١٠ - ١١

١٩ سورة النعازن آية ١٦

٢٠ م

٢١ الخارط : الحيون ٥/ ٣

٢٢ سورة البقرة آية ٣٠ - ٣٥

٢٣ العقد الفريد ٥/ ٣٣٢

٢٤ م ٣٣٤

٢٥ م ٣٣٣

من انضم إلى ثورة ابن الأشعث الفاشلة^(٣٦) فعرضهم على السيف. فمن أقر له أنه كفر بخروجه عليه أطلقه ومن امتنع قتله صراً^(٣٧). وقد ذكر ذلك الفرزدق بعد موت للحجاج (٩٥ هـ / ٧١٤ م) وتولى سليمان الخلافة (٩٦ هـ / ٧١٥ م) في قوله:

وإد أنتم من لم يقل أنا كفر تردى هاراً عثرة لا يقها
وفارق أم الرأس منه بضربة سريع لبين المنكبين زياها
وإن كان قد صلى ثمانين حجة وصام وأهدى المدن بيضاً خلاها^(٣٨)

وقد لخص جرير مذهب الحجاج حين قال في مدحه :

تري نصر الامام عليك حقاً إذا لبوا بدينهم ارتيا^(٣٩)
وهكـ تجردت كل اقتصادا السياسية واستحالت تبعاً لذلك قضايا دينية .
معرضة أهل العراق لحكم بني أمية تظهر في شعر جرير معارضة للعقيدة كما
في قوله للحجاج :

قدمت على أهل العراق ومنهم محالف ديس المسلمين وتخاذل
فكت لم لا يرى الدين قلسه شفاء وحنّ المدهن المتناقل^(٤٠)
وبرر سو مروان حصناً للإسلام ودرعاً له في كثير من الشعر فالمرزدق يقول
لسليمان :

وحدثني مروان أوتاد دينها كما الأرض أوتد عليها جبالها
ونم هذا الدين كالقبسة التي بها إن يضل الناس يهدي ضلالها^(٤١)

٢٦ اطر الناب الأول

٢٦ من حجر هديب ٢/ ٢١١ .

٢٨ ديوان الفرزدق ٢/ ٧٥

٢٩ ديوان جرير ٢١ .

٣٠ ديوان جرير ٣٥٥ ؛ اطر ابن قتيبة. الشعر والشعراء ١/ ٣٧٦ ، وبيان الجاحظ ١/ ٣٠٠ لأبيات مماثلة

٥٥ العدد من المرح

٣١ دس من الفرزدق ٢/ ٧٦٢ ؛ ونصر ١/ ٨٩ وديوان جرير ٢٧٨

ولتوضح تفانيهم في حماية ندين والدود عنه يقول الفرزدق في مدح عبد الملك :

إذا لاقى بنو مروان سلّوا لدين الله أسياً غصاباً
صوام تمنع الإسلام^(٣٢) منهم يوكل وقعهن بمن أرابا^(٣٣)

ويوحى من نفس هذا المدافع أظن لشعراء خاصة جرير وفرزدق في استخدام بعض الألفاظ ذات المدلولات الدينية يصمون هـ خصوم الأمويين السيسيين فدمغوا أتباع ابن الزبير بالإنحاد^(٣٤) كما جاء في بيتي فرزدق في مدح بني أمية :

بن لقوا بمكة ملحدتها ومسكن يحسنون بها الضرابا
فلم يترك من أحد يصلي وراء مكذب إلا أنابا^(٣٥)

وحين مدح جرير عبد الملك خاطب ابن الزبير بقوله :
دعوت الملحدين أبا خبيب جماحاً هل شفيت من الجماح؟^(٣٦)
وفي مقام آخر يتطرق فيه الفرزدق إلى ابن الزبير يطلق عليه صفة مسيلمة كذاب اليمامة وذلك حين قال :

بعد الفساد الذي قد كد قم به كذاب مكسة من مكر وتخريب^(٣٧)
وهيك إلى جانب ذلك أنفاظ أخرى من أنفاظ الدم أطلقوه على خصوم بني

٣٢ انظر الباب الخامس حيث قرنا هذا المصطلح حين يرد في مثل هذا الموضع بالدولة لا العقيدة .

٣٣ ديوان الفرزدق ٢٢/١ ، انظر درر ربيعة ١٤٤ ، ١٤٦ في سلسلة بن عبد الملك .

٣٤ عن هذا المصطلح انظر

L. Massignon La Passion d'al-Hajjaj, 1921 P 188, B. Lewis, "Some observations on the significance of heresy in the history of Islam" Studia Islamica, I, 56

٣٥ ديوان الفرزدق ٢٢/١ ، انظر ١٥١٢ .

٣٦ د ر جرير ٧٨ .

٣٧ ديوان الفرزدق ٢٤/١

أمية معرض تشويه سمعتهم وفصحهم في نظر الجماهير المؤمنة فتواترت صفات بعينها في معرض الحديث عن كل مجموعة مميزة من مجموعات المعارضة. وقد استخدم الشعراء هذه الصفات بطريقة منظمة توحى بما وراءها من خطة هدفها دمع جماعة المنعية بأنهم أو شبهة بروح لها الشعراء في قصائدهم ويضمون لها التديب والانتشار كما حدث في وصف اتاع ابن تزيير بالملحددين. وأطلقوا على معرضي الحجاج في العراق لقب «المنافقين» كما في بيت الفرزدق :

إذا حارب الحجاج أي منافق علاه بسيف كلما هرّ يقطع^(٣٨)

ويطرب جرير الذي كان على صفة وثيقة بالحجاج في الضرب على هذا الوتر. قال مرة يخاطب الحجاج :

وإذا رأيت منافقين تخيروا سبل الضجاج أقمت كل ضجاج

داويتهم وشفيتهم من فتنة غبراء ذات دواخن وأجاج^(٣٩)

ولا يكفي جرير بذكر الصفة مجردة بل يقرها بقبضها في مثل قوله للحجاج :

يسر لك البغضاء كل منافق كما كل دي دين عليك شقيق^(٤٠)

وصوره التأثيرين على الحجاج فوق ذلك «عفاريت» و «شياطين» كما في بيت جرير الذي يوجهه للحجاج :

عسريت العراق شفيت منهم فأمسوا حاصعين لك الرقابا^(٤١)

وفي تصوير الشدة ولحزم الذي سعى به الحجاج لإسكات معارضيه يقول الفرزدق :

لقد ضرب الحجاج ضربة حازم كبا جند إبليس لها وتضعضوا

٣٨ ص ٤١٧/١

٣٩ ديوان جرير ٧٤ ، انظر أيضاً ٧٤ ، ٩٦ ، ٣١٦ ، ديوان الفرزدق ٢٨٣

٤٠ ديوان جرير ٣١٦

٤١ ص ٢١ .

وحرّت شياطين البلاد كأنها مخافة أخرى في الأزمة خضع^(٤٧)
أما اثاثرون في المراحل المتأخرة فقد أطلقوا عليهم صفات لا مواراة فيها ولا
تردد. فاتباع قتيبة بن مسلم الذين ثاروا على عبد الملك بن مروان عام ٩٦ هـ /
٧١٥ م ليسوا غير مشركين في نظر الفرزدق الذي يقول :

ونا رينب المشركين يقوده
صربنا بسيف في يمينك لم تدع
قتيبة زحماً في حموج لزمارم
نه دون باب الصين عيباً لظلم^(٤٨)
ونال الثوار اليمينيون بقيادة آل المهلب كل الصفات المقصورة على غير المسلمين
في العرف العام. فيسميهم جرير في مدحه ليزيد الثاني « كفاراً » :

نقد تركت فلا نعدمك إدا كهمرو^(٤٩) لابن المهلب عظماً غير مجبور^(٥٠)
أما الحجاج الذي كثرت في عهده الثورات والفتن فقد أضفوا عليه كثيراً من
الصفات التي تناسب هذا الفهم الديني في تصوير أمور السياسة. ففي مسح عبد
الملك يقول الفرزدق عن الحجاج :

أرض رمت إليها وهي فاسدة
لا يغمد السيف إلا ما يجرده
بصارم من سيوف الله مشبوب
على قفا محرم بالسوق مصلوب
مجاهد لعبادة الله محتسب
جهادهم بضراب غير تذييب^(٥١)

ويغمره نفس الشاعر بصفات التقوى والصلاح في قوله :
ولم أر كالحجاج عوباً على التقى ولا صالهاً يوماً صريدة ثابلاً^(٥٢)

٤٢ ديوان الفرزدق : ٢٠

٤٣ ديوان الفرزدق : ٣١٢

٤٤ انظر ديوان جرير ١٦٧ : ديوان الفرزدق ٣٤٣/١ : ٣٥٣/٢ .

٤٥ ديوان جرير ١٩٥ .

٤٦ ديوان الفرزدق ٢٤/١

٤٧ عنه ١٣٧

وزادوا على ذلك أن أمدّوه بالعون الإلهي كما في قول الفرزدق :

تهون عليك نفسك وهو أدنى لنفك عند خالقها ثوابا
فمن يمتن عليك النصر يكذب سوى الله الذي رفع السحابا
تفرّد بالبلاء عليك رب إذا ناداه مختشع أجابا^(٤٨)

ولا يفتأ جرير يجري المقارنة بين واقعة بدر حيث نزلت الملائكة عواً للمسلمين وبين وقائع الحجاج بأعدائه كما في قوله :

ولو لم يرض ربك لم ينزل مع النصر الملائكة الفضابا^(٤٩)
ويضعه جرير في مصاف الأنبياء في مثل قوله :

دعا الحجاج مثل دعاء نوح فأسمع ذا المعارج فاستجابا^(٥٠)
وما دام الحكام قد صوّروا حكماً تحيط بهم مثل هذه الحالة من القداسة فتم يصح لرعاياهم من حير غير الخضوع لهم ولانصياع لحكمهم ولا وجهها مغبة عصيانهم حسرة في الدنيا والآخرة. وبين جرير الدرس الذي لا بد أن يعيه الناس من ذلك في قوله :

لقد جهد الحجاج في الدين واجتنبى جباً لم تغلّه في الحياض الغوائل
أطيعوا فلا الحجاج مبسّ عليكم ولا جبرائيل ذو الجناحين غافل^(٥١)
ولم يكن الشعراء في كل حين مرددين لأصداء السياسة فحسب بل كثيراً ما تدخروا معاً مقترحين ومضالين بوزار لعقب دلعصة واستردين. كما ورد في شعر الفرزدق مخاطباً الحجاج :

فدى لك أُمي اجعل عليهم علامة وحرم عليهم صالحات الحلائل

٤٨ نفسه ٨١/١ ، ١٣٨/٢

٤٩ ديوان جرير ٢١ .

٥٠ هـ ٢١ ، انظر ٩٥ حيث يشبه يهود .

٥١ هـ ٣٥٦ .

تزيّل بين المؤمنين وبينهم إذا دخلوا الأسواق بين الخافل
فلا قوم شرّ منهم غير أنهم تظنهم أمثال ترك وكابل^(٥٢)

وإنّ بحدّ ذكره في هذا المقام أنّ المعارضين والتأثيرين من كل صنف وأجناس
وقد وجهتهم هذه الحملة معرصة من حملات تشهير والتقذف. وقد عيّنوا بشهارة
نفس أسلّاح في وجه حصونهم ولم يكن خروج الذين أقاموا حجتهم في هذا
المحاج على أساس ديني محدد، الثور وحيد الدين الدين عتروا أنفسهم المؤمنين
"الحقيقيين" دون كل حصونهم الآخرين^(٥٣) بل إنّ تأثيرين آخرين لا يدعون كل
دعوى خروج استعروا نفس أسلّاح فضيل من عامر من وثنة لمصري وأحد
أتباع التأثير ابن الأشعث يقول :

ألا أبلغ الحجاج أن قد أظلمه عذاب بأيدي المؤمنين مصيب
متى تهبط المصيرين يضرب محمد وليس بمنحي ابن اللعين هروب^(٥٤)

وفي مدح الشعراء مجموعة عديدة كثيرة تركز الخبيثة وأهميته القصوى لسلامة
مجتمع إذ عليه يرتكز ميزان العدالة والأمان. ويميّز جانب كبير من هذا الشعر
في تأكيد سطوة الخبيثة وفي استنساخ المحجج والدعوى التي يستند عليها حقه
في ولاية الخلافة ولا يملك القدر الكثير من هذا الشعر إلّا التعجب من جهل
هؤلاء الشعراء في هذا السبيل. أمّوحة هي لإقناع الممدوح أم لإقناع رعاياه^(٥٥) والواقع
أنّ شعراء كانوا على وعي تام بالدعوة السياسية التي كان عليها بشرها. واستناداً
إلى استحسانهم بوق في هذا السبيل. فهم فيما يبدو م بكونهم يفرضون في أي فرصة
تسبّح لهم لحمل رسالة إلى الآخرين ومن ثمّ تحوّل في المدح التقديري الذي

٥٢ ديوان الفردوق ١٣٧/٢ - ٩ : وانظر البلاذري : أنساب الأشراف ١٦٣/٤ لاجراءات مماثلة وتعب

مصنف هل خصمه .

٥٣ العهد الفريد ٨٤/١ .

٥٤ الصبري ١٠٦٦/٢ .

كان يبرز مسائل الفرد وحصله الشخصية لبصيح شعراً سياسياً يمتزج فيه عنصر الدعاية بالمدح الشخصي وقد أغفلنا خصوصية التعبير الشعري المرتبطة بأشخاص الشعراء تبعاً لنسقاً منظماً من الأفكار والمفاهيم تعكس في وضح إطار السياسة الأموية العام كما ألمعنا إلى ذلك من قبل. فتدور أهمية الحليفة وضرورته لسلامة المجتمع من ناحيتين الروحية والمادية كفكرة أساسية في كثير من هذا الشعر. ويصور ذلك جرير في إحدى قصائده في عبد الملك حين يقول :

لولا لحليفة والقرآن يقرأه ما قدم للناس أحكام ولا جمع^(٥٥)

ولحليفة لم ينل الولاية إلا بقضاء من الله لا يبدل كما ذكر نفس الشاعر :

الله طوّقك الخلافة والهدى والله ليس لما قضى تبديل^(٥٦)

والاستشهاد بالقرآن^(٥٧) واضح في قول الفرزدق في عبد الملك :

فالأرض لله ولأهلها خليفته وصاحب الأمر فيها غير مغلوب^(٥٨)

ومن هنا جاءت تسمية الحليفة بخليفة الله^(٥٩). وأطلقوا عليه ألقاباً أخرى مثل

أمين الله^(٦٠) وراعي الله^(٦١) وخلافها .

يبد أنه ما دامت الخلافة في كثير من الأحوال موضوع مراع. وما أسهل على المسارعين عليها إبطال حجة خصومهم القائمة على الحق الإلهي، فلم يكن من بد

٥٥ ديوان جرير ٢٧٨ .

٥٦ ديوان جرير ٣٨٠ .

٥٧ سورة البقرة يت ٣٠ ٣٥

٥٨ ديوان الفرزدق ٢٤/١ ؛ انظر ٢٥/١ : ٢٦/٢ : ٢٧/٢ : ٢٨/٢ : ٢٩/٢ : ٣٠/٢ : ٣١/٢ ؛ ديوان جرير ٢١١ ،

٣٠٦ ، ٣٣١ ، ٣٩٦

٥٩ ديوان جرير ١٩٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٣٠٣ .

٦٠ نفسه ٢٧٨ ؛ انظر ديوان الفرزدق ٢٨٦/١ ؛ ٩/٢ ؛ ٣٠١ .

٦١ انظر ديوان الفرزدق ٢٥٠/١ .

من الاستناد على حجاج لا يسهل دفعها. ومن هنا جاء الحديث عن استحقاق الأمويين لشرف خلافة بعملهم اندثب ه كما في قول جرير :

إن الخلافة بالذي أبلستم فيكم فليس للمكها تحويل^(٢٢)

وفكرة ألس الذي يورث تمثل انحداء واقعيأ في النظر إلى الأمور. ها دامت الخلافة قد أصحت مكأ دنيوأ فلا بد لها من أصل ترجع إليه ومن ثم بدأ انشعراء منذ خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) يطنون في الحديث عن إرث عثمان إذ جمعوا حق الروائيين في الخلافة يسند على خلافة عثمان. وقد وضّح ذلك الفرزدق حين قال :

تراث عثمان كاسو الأولياء له سريال منك عليهم غير مسوب^(٢٣)

وأكد الفرزدق حقّ الوراثة في الخلافة في قوله :

توارثها بنو مروان عنه وعن عثمان بعد ثأى كبير^(٢٤)

وفي حالات قبيّة جداً ذكروا الخلافة بحسبانها إرث محمد^(٢٥) وما أكثر ما ذهبوا إلى أن حقّ للأمويين في الخلافة يرجع إلى أسلافهم القدماء كما أورد ذلك الفرزدق مخاطباً سليمان بن عبد الملك :

ورثتم قناة الملك غير كلاله عن ابني مناف عبد شمس وهاشم^(٢٦)

٢٢ ديوان جرير ٣٨٠

٢٣ ديوان الفرزدق ٢٥١

٢٤ نفسه ٢٨٥٠١ وانظر ١/٦٦٢، ٧٩، ٨١، ٢٤٩، ٣٣٦، ٢/٨٩، ٩٢ - ٣، ٢١٤، ٢١٠، ٢١٤.

٢٥ انظر نفسه ٢٨٣/٢ - ٤

٢٦ نفسه ٣٠٩/٢ وانظر ٢/٢١٥، ٢١٥، ١/٨٠١، ١٥١، ٢١٥، ٢٦٧، ٢/٢٠٩، ١٥٠، ٢١١

٢٧ ديوان جرير ١٠٧، ١٠٨، ١١٤، ٢١١، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣٠٧، ٣٩٦، ٣٩٧

٢٨ ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤.

وأصبح حق الخفاء في توريث الخلافة أساءهم حقاً معترفاً به. فالفرزدق يصف يزيد الثاني بأنه :

ربيب ملوك في مواريث لم يزل بها ملك إن مات أورث متبراً^(٦٧)
وقل نفس الشاعر لسليمان :

وأصبح غير مغتصب بظلم تراث أبيك حين إليك آلا^(٦٨)
ولئن اضلوا في الحديث عن هذا الحق الذي لا تحول عن نبي أمية يثارته
الأبناء منهم عن الآباء^(٦٩) فهم يذكرون أحياناً إلى حابه طرقاتاً دستورية أخرى.
فالفرزدق يصف خلافة الوليد الأول بأنها :

خلافة لم تكن غصباً مشورتها أرسى قواعد الرحمن ذو النعم^(٧٠)
نكن هذه المشورة لا تطق فيما نعلم على خلافة لوليد هذا فقد عيه أمره عند
ملك ولي عهد له ولعل الشاعر لم يكن يشير بحال لأي مشورة اهتدى بها سو
أمية من كان يشير إلى المشورة المشهورة التي أقام لها عمر بن الخطاب مجلساً من
أربعة أشخاص انتهى أمره بتولية عثمان الخلافة، وقد قوي هذا الافتراض عبارة
أخرى لنفس الشاعر في هشام :

رأيت بني مروان ثبت ملكهم مشورة حق كان منها قريبها^(٧١)
وورد ذكر البعة المشروطة مرة في شعر جرير وهو يخاطب سليمان بقوله :
صفت لك بعة بثبات عهد فوزن العدل أصبح لا يميل^(٧٢)

٦٧ ديوان الفرزدق ٣٤٨/١ .

٦٨ نفسه ٩٩/٢ ؛ وانظر ١٤٣/١ ، ٢٤٨ - ٢٥١ ، ١٤٣/٢ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ٢١٠ ، ٣٠٢ .

٦٩ نفسه ٢٥/١ ، ٢١٣ ، ٢١٠/٢ ؛ ديوان جرير ٣٨٠ .

٧٠ ديوان الفرزدق ٢١٠/٢ .

٧١ هـ ٦٢/١ .

٧٢ ديوان جرير ٣٤٧ .

ولئن تدخل بعض الشعراء خاصة حرير^{٧٣} تدخلاً شخصياً في قضايا تولي
الخلافه، فإن الانحياز العام كان التأييد المطلق لمن يباح في الاستيلاء على السلطة
ومرور الزمن أصبحت اسحابة ملحة لإعلاء شأن الخلفاء ورفع ذكرهم في الناس
ومن ثمّ توجهت جهود الشعراء للتركيز على هذا الجانب. فلاحظ في كثير من
شعر الموجه لمتشعّرين من خلفاء بني أمية إفراطاً كبيراً في التمجيد ومبالغة في
ضفاء الصفات والأنقاب. فالفرزدق حين يخاطب الوليد الأول يقول له :
إلى خير من تحت السماء أمانةً وأولاه بالحق الذي لا يكذب
حلقت بأيدي البدن

لأم أتينا بالوليد خليفة من الشمس لو كان ابنها البدن، أنجب
وتولي سليمان خلافه تدخل فكرة المهدي في الشعر كعصر لا يتحرّز من
المدح خاصة في شعر الفرزدق. وم تكن هذه الصفة مجرد لقب فارح من ألقاب
المدح يطلقه الشاعر على الممدوح في عفوية وعدم تعمّل، بل يبدو أنها كانت صدى
لعقيدة شعبية كانت قد انتشرت في هذه لفترة بالذات. وقد عبّر الفرزدق عن
ذلك في قوله لسليمان :

أنت الذي بعث الكتاب لنا في ناطق التوراة والزبور
كم كان من قس نخبرنا بخلافة المهدي أو حر^{٧٤}

وكان الزمان رمد عسرة ومشقة في أعقاب حكم الحجاج 'ضعيف. وكان
حاس قبل تولي سليمان خلافة يتوقعون منه إصلاح ما أفسده سابقوه ويبدو أنه
وعده الناس بذلك كما يستشف من قول الفرزدق :

٧٣ انظر ديوان حرير ١٣ - ١٤ ، ٣٣ - ٣٦ ، وانظر ديوان الفرزدق ١/٢٤٤ - ٧ ، ١٠١ - ٩٩/٢ ، ٢٤٤ - ٧ .

٧٤ ديوان الفرزدق ١/٨٠ .

٧٥ ديوان الفرزدق ١/٢٦٤ ، انظر ١/١٢٢ ، ١٧/٢ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ٣١١ ، ديوان حرير
٣٤ ، ١١٦ ، ٢١١ ، ٣٤٦ ، ٤١٠ .

فأجاب دعوتنا وأقصدنا بخلافة المهدي من ضر
أنت ابتليت بما زعمت لنا إن أنت كنت لنا على أمر^(٧٦)

و بمحيى يريد اثني (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م) تلغ موحدة التمجيد
غايتها. فأمة تُشبه بالسيدة مريم أم المسيح كما في قول الفرزدق :

فلا أم إلا أم عيسى علمتها كأملك خيراً أمهات وأمجدا^(٧٧)
ويعترف الأنبياء بسلطانه في قول نفس الشاعر :

ولو صاحته الأنبياء دوو ننهي رأوه مع بك العظم المسود^(٧٨)
ولا يكتفي الفرزدق بحمله خير الأحياء والأموات بعد رسول الله في قوله :
يا خير حيّ وقت نعل له قدما وميت بعد رسل الله مقبور^(٧٩)
بل يضيف عليه صفات الأنبياء في قوله :

ولو كان بعد المصطفى من عباده نبي لهم منهم لأمر العزائم
كمت الذي يخاره الله بعده لحمل الأمامات الثقاب المعاضم^(٨٠)

وكان يمكن للحبيبة أن تكون النبي لولا أن عيسى بشر بمحمد فالفرزدق يقول :

لو لم يبشر به عيسى وبينه كنت النبي الذي يدعو إلى النور
فأنت إن لم تكن إياه، صاحبه مع الشهيد والصدیق في السور
في غرف الجنة العليا التي جعلت لهم هناك بسعي كان مشكور^(٨١)

٧٦ ديوان الفرزدق ١/ ٢٦٢ .

٧٧ نفسه ١/ ١٤٤ .

٧٨ عه

٧٩ صه ١/ ٢١٣ ، انظر ١/ ٣٤٦ .

٨٠ نفسه ٢/ ٢٨٢ .

٨١ عه ١/ ٢١٤ .

وعسى أن يكون هذا تمجيداً والتعظيم صدى لما كان يثبته الأمويون وولائهم من دعاية وأفكار. ولعل ما يؤيد هذا نزعهم ما روهه من أن خالداً القسري والي العراق (١٠٦ - ١٢٠ هـ / ٧٢٤ - ٧٣٨ م) كان يحادل على قدسة الحليمة وحرمة كما كان يفعل الحجاج قبله وذكروا أنه كان يرى أن هشاماً أفضل من النبي^{٨٧}.

وفي هذه الفترة يتضح حلياً أن أنصار الدس أصبحت تتجه في قوة إلى الماضي تملاؤه وتستعيد صورته المشرقة. فيتذكر الشعراء أمجادهم في مدحهم هؤلاء الأمويين المتأخرين ويصورونهم مترسمين خطي أبطال الإسلام الأول ومصلحيه. فينتظرون من سيئان أن يعيد سس الحلفاء الراشدين ولأمويين الأوائل الذين اتبعوا سس الرسول^{٨٨} ويصفونه بأنه اتبع سس عمر بن الخطاب وعثمان^{٨٩}. ويوصف هشام بأنه أعاد سس العنبرين وملاً لأرض عدلاً بعد أن هنت حور^{٩٠}. ولا يفتق فضل هذه الحليمة عند استعادة سس لشريفة بل زاد فضله بحيرته لآثار الرسول: انثر ونعصا ونحاته^{٩١}. وفي كل ذلك ما فيه من تعويض عن سوء الحال الذي يراه الناس في ضعف الخلفاء وفي اضطراب أمور دينهم. فهذه المبالغة في تمجيد الخلفاء. وفي إضفاء كل هذه الهالة من القداسة عليهم تشف عما تحتها من شعور بهوان هؤلاء الحلفاء وضعفهم. وهي فوق ذلك محاولة لستر ما تحتها من مهانة وتفكك في هيكل الخلافة والدولة بغرض إقناع الجماهير بتماسك قوة السلطة وهيبتها. وهذه السطرة إلى الوراء. وتتصلع إلى ماضي الإسلام الذهبي هروب واضح من الحاضر

٨٢ الأعاني ١٩/٦٠.

٨٣ انظر ديوان الفرزدق ١/٢٦٥ - ٦.

٨٤ نفسه ١٠٦/٢.

٨٥ نفسه ٢٩٤/٢.

٨٦ نفسه ٥٩/١ ٤ ٣٠٢/٢.

المؤلم . ورعة مدحة في إصلاح الحال ولكنها رعة محصورة باليأس ، ومن هنا تبعث أهمية هذا الشعر ودلالته الكبرى على ما كان يجيش في قلوب الناس وعقوئهم في عصر الأموي من تضلع واستشراق كان يحلق نحو المناسب للاقبال العباسي .

وعن ارغم من أن الشعراء لم يقصروا على أسلوب معين في الاحتجاج أو على مجموعة من الحجج مطردة ، إلا أن الأمر الواضح أنهم كانوا يعكسون في معظم الأحوال مدى وأفكاراً يشها أنصار الأسرة الأموية ويشيعونها بين الناس^(٨٧) .

٨٧ انظر الحوي : أدب السياسة في العصر الأموي ١١٨ وما بعدها .

الفصل الثاني

الشعراء والولاة

في المقالة المسبقة إلى عثمان من أن الله بزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن تصوير حتى لو افعل بعض شعراء هذه الفترة الذين تعاطف نشاطهم فتبادوا في تحدي سلطة لدولة بإعلان حقهم في اتخاذ ما يروق لهم من سلوك وإن تعرض ذلك مع العرف الرسمي. بيد أن مثل هذا سلوك من جانب هؤلاء الشعراء حين ينظر إليه من زاوية التطور الاجتماعي لمصر عامة لا يمثل تصرفاً فردياً تخليه الدوافع لشخصية وحسب قد ما يمثل انحداراً اجتماعياً عاماً وبلا حظ في مثل هذا المجال انحطاً من السلوك متسلسلة تتصاق ومراحل التطور المتتابعة التي مرت على حياة مصر. فالبليل إلى التمرد والثورة يتحلى بوجه عام في لبادية أكثر منه في المدينة. أما في فترات الاضطراب السياسي حين تضعف سلطة الدولة، فإن المدينة نفسها تصبح مباءة لكثير من صوف القوصى واضطراب النظام. ويوجد كل ذلك طريقه إلى شعر الشعراء المعاصرين .

ولو نظرنا إلى هذه الفترة ككل واضعير في حساب التمددات في اطراد مسيرة التطور الحضري لما قد يسبحم عنه مجاورة امراحل المختلفة بعضها لبعض في ذات الوقت، فإن الصورة العامة التي تخرج من صورة تطور وارتفاع تتحول فيها شراسة

سددو وحموهم الوصح في المراحل الأولى - باطراد وتدرج - إلى ضرب من التسيير والخضوع لمواضعات الجماعة والانصياع لأوامرها .

ونعل حير شاهد على نفور هؤلاء الأعراب من السلطة قصة ضابيء بن الحارث الترحمي^(١) . وكان صياداً ببادية البصرة على أيام عثمان . فاستعار كلباً من بني عبد الله بن هودبة بن سہل بن دره فكان يصيد به الصاء والشر والضباع . فلما سمعوا به حسدوه وطلبوا كلبهم فأخذوه منه ، فغضب منهم وهجاهم بقوله :

فأمكم لا تسلموها لكلبكم فإن عقوق الوالدات كبير
وإنك كلب قد ضربت بما ترى سميع بما فوق الفراش بصير
إذا عثت من آخر الليل دُخنة يبيت له فوق الفراش هرب^(٢)

وستعدوا عليه عثمان بن عفان فأرسل إليه فأقدمه ونشده الشعر الذي قل في أمهم . وحين سمعه الحليفة قل . « ما أعمى في العرب رجلاً أفحش ولا ألام ملك وفي لأظن رسول الله لو كان حياً لنزل فيك قرآن » . فقضى عثمان لنبي هودبة عليه خير شعره وحمس إليه وانحدروا من المدينة إلى ديارهم وحبسوه عند أمهم فقال ضابيء :

من مبلغ الفتيان عني رسالة بأني أسير ربتي أم غالب

فقال أمهم : « والذي أبا أمة له ليظنق » . فأصق وأخذ ضابيء بعد ذلك ثمame بن عبد الله بن هودبة فضر به وشحه فاستعدوا عليه عثمان فأرسل عثمان إليه وشخص به إلى مدينة وسأهم أسينة فلم تكرر لهم أسينة فحبس عثمان ضاباً في السجن . وعرض عثمان ذات يوم أهل السجن ، فخرج ضابيء وقد شد سكيناً على ساقه يريد أن يفتك بعثمان . فمض له . وأخر فضر به بالسيف فمُتس . فقال ضابيء في حبسه وفيما هم به من قتل عثمان :

١ الفائق ٢١٩ - ٢٢٢ ؛ الحاشط : الحيوان ١/١٨١ - ٢ .

من قافل أدى إليه ركابه
فلا يقبل بعدي امرؤ ضم خطة
ولا تتبعني إن هلكت ملامه
هممت ولم أفعل وكدت وليتني
وقائلة إن مات في السجن ضائي
لنعم الفتى نخلو به ونداخله

وبنس ابن عم المرء يوم دعوته
فلم يزل محبوساً حتى أصابته الدويلة فأتى ومات في سجن عثمان^(٢). وتكشف
هذه الغمة الشخصية التي تسري في ثنايا هذه الأبيات وفي بقية القصيدة - في
حاشي تصوير شعوره العميق بالخيبة لتحادل أقربائه عن نصرته عن تصوره
لمسألة جميعه بحسبانه مشادة شخصية بينه وبين عثمان الرجل كبرد لا كرمز
لدولة^(٣). وثما دعه مثل هذا التصور في أدهان نسائحه بعض الحفدة الأول
حصة معاوية الذي كان يتحلى بالحلم في معاملاته مع الأعراب، ويتصرف في
كثير من الأحيان كما يتصرف شيخ قبيلة لا كما يتصرف المنك. وقد روى
"تفاح العبري" شعر نصري محصر عن وقعة له مع معاوية. قال:

يسألني معاوية بن هند:
فقلت له رأيت أباك شيخاً
يقود به أفيحاح عبد سوء
كبيراً ليس مضروباً بطمس
فقال: بل ابنه ليزيل ليسي^(٤)
قيت أساة عبد شمس؟

ومن الجلي أن هذه الغمة لطبيعة علاقة بين احكام وشعر كان فهماً منياً
عن ناس لم يعد له وجود في الحياة، وصح بذلك لا يستقيم والتظورات الأخيرة

٢ التفاتص ٢٢٩ - ٢

٣ انظر دبل الأمالي ١٣٧ لقصة عائلة بطلها مالك بن ربيب

٤ المرزباني: معجم الشعراء ٢٢٩ .

تحي حدثت في حياة العرب. إذ أنه رغم نقاء هيكل قسي لذي تنسق معه هذه
 مضرة، فإن بروز الدولة وعلى رأسها الخبيثة وولاته الذين بضطون إدارة الامبراطورية
 نصبت - وسرعان ما منى - تعبيراً مماثلاً في وجهات النظر. فاقتضت دواعي الحكم
 الرشيد استخدام العنف لاستئصال شؤفة التمرد وتطرف وكان الشعراء الذين كثيراً
 ما تعرضوا شائهم ومثل هذه المتطلبات أكثر اساس عرضة لتدابير استأدينية.
 وأصبحت حريتهم في الحوص فيما كان رصفائهم الخاهليون يخصوصون فيه دون
 ردة. شتلى بطراد بازدياد قوة الدولة وهيمنتها التدرجية على كل عناصر المعارضة
 وحلاف". وكان أهم تصور في هذا المجال تخلي القيد عن حقوقها في إحادة
 أفرادهم حين يقترون حرماً أو يستكون دماً. إذ تولت الدولة عنهم هذه الوظيفة ولم
 يعد ندس من خيار غير المنجى إليها لطلب العدالة وتوقيع العقوبة على المعتدين
 وكان هذا مما أضعف من موقف شعراء في مواجعتهم للدولة عية الإضعاف وعلى
 أن يكون يعي ضائيق المير على ابن عمه فراس تحاده عن نصرته دلالة على حيله
 كبير بالتعبير لذي طرأ على الحياة من حوله. بيد أن حساس شعراء لآخرين
 هذا التصور لم يست أن تخفى في شتى الصور والأشكال. فقد اكتشف اشاعر
 وزعيم تميمي حادثة من بدر العدني ذلك حين سعى في الأرض فساداً، فأهسر
 علي بن أبي طالب دمه. فهرب فاستحار بأشراف ناس هم يحرم أحد، فقبل له:
 عيبك سعيد من قيس الحمدني فعنه يحرك. فقطب سعيداً فم يحده فجلس في
 ظنه حتى جاء، فأحد نحامه فقال. أحرلي أحرارك الله قال: ويحك مالك؟
 قال أهدر أمير المؤمنين دمي. قال: وفيم؟ قال: سعيت في الأرض فساداً
 قل ومن أنت؟ قال: حادثة بن بدر العدني. قال: أقم واصرف إلى علي فوحده
 قائم على المير يحطب فقال يا أمير المؤمنين ما حزن الذين يحاربون الله ورسوله
 ويسعون في الأرض فساداً؟ قال أن يقتلوا أو يصلوا أو يقطع أسبهم وأرحلهم

من حلاف أو يبنوا من الأرض. قال يا أمير المؤمنين إلامن؟ قال: إلامن تاب. قال: فهذا حارثة بن بدر قد جاء ثائباً وقد أحرته. قال: أنت رجل من مسلمين وقد أجز من أحررت ثم قال علي: إني كنت قد نذرت دم حارثة بن بدر فمن ألقبه فلا يعرض له فاصرف إليه سعيد بن قيس فأعلمه وحممه وكسبه وأحاره فقال فيه حارثة:

الله يجزي سعيد الخير ناقله أعني سعيد بن قيس قرم همدان
أقلدني من شفا عره مظلمة لولا شعاعه أبست أكماني
قالت تميم بن مُر لا تخاطبه وقد أبست ذلكم قيس بن عيلان^(١)

وكانت فترات الاضطراب والهوضى ظروف مواتية لحكم لتشديد مضتهم. والفتنة التي أعقبت مقتل عتبات أملت تدابير رباد (٤٥ ٥٣ ٥٠ ٦٦٢ - ٦٧٢ م) سي كان يعين جيد تأثير الكلمات والأفكار على السبقة^(٢). وفي أيامه أصبح الخوف من سلطان عصر واضحاً في شعر لشعراء ويبرز ذلك بخلاء في شعر حررق حين اضطره زياد إلى الفرار والانتحاء إلى المدينة. وكان خوفه حقيقياً وعميقاً كما يستدل من قوله:

أتاني وعيد من زياد فلم أنم وسيل اللوى دوني وهضب التهايم
فبت كئاني مشعر خيرية سرت في عظامي أو دماء الأراقم
زياد بن حرب لو أظنك تاركي وإذا الضغن قد حشمته غير ظالم
لقد كافحت مني العراق قصيدة رجوم مع الماضي رؤوس المخارم
رأيتك من تغضب عليه من امرئ ولو كان ذا رهط يست غير نائم^(٣)

٦ الأغاني ٣٥/٢١ - ٣٦.

٧ ثم سار عن فرقة حامية كان كلام يسبق منه. وج خيرة و تتمرد ما روي عنه حين مع رجلاً يست
بدهر. - قال: لو كان يعلم ما دهر تقطع منه إلى الدهر هو السعداء كمثل مرد (مرصفي)
١١٦٣

٨ ديوان الفرزدق ٢/٢١٥ - ٦.

وكانت مجرد الذكرى كفيلة بإثارة مخاوفه :

د ذكرت نفسي زياداً تكلمت من احواف أحشائي وشأت مفارقي^(٩)
 ويسأل في تصوير شدة ريد يدي لا يخيف البشر وحدهم بل تخشاه لأسود :
 فراراً من شتم الوجه ورد^(١٠) يُغز الأسد خوفاً بالوعيد^(١١)
 وحين لاقى لشاعر أسد وهو يقطع الصحراء فراراً من زيد حاطه بقوله :
 ولأنت أهون من زياد جانباً فاذهب إليك مخزماً السقار^(١٢)

وكانت حراءات عبيد لله بن زياد التأديبية ضد ابن مئزر^(١٣) . وإحراءات
 ابتاع ضد حرير والمغردي^(١٤) ومرة بن محكان^(١٥) . وإحراءات مصعب بن الزبير
 ضد مرة هذا^(١٦) . وما فعله خالد بن أسيد بالمغردي^(١٧) . ثم دعه من قوة لدوة
 في ملاحظته بتسودي الشعر . وقد أصبح مثل هذا الصنيع عنصراً جوهرياً من
 عنصر سياسة العمة أيام الحجاج . فكان هذا الوالي يتصيد إلى إحافة الشعر قصداً
 وكان يرى من الضروري تكيله شدته في ضرب على يدي معارضييه . وقد اضطرت
 إحراءاتة لنفسه في هذا السبيل عدداً من الشعراء وعلماء الدين وقع عليهم سحبه
 غضب الحمة خارج سلطانه . فتذكر نرويت أن أرم عمرو بن نعلاء تقيته
 دعوي فر بن اليمن^(١٨) . بينما نفي يحيى بن يعمر بن حراسان لأنه فيما تذكر

٩ نفسه ٤٠/٢ .

١٠ نفسه ١٤٦١ .

١١ نفسه ٢٥٧/١ .

١٢ ابن مسه الشعر والشعراء ٣١٩/١ - ٣٢٣ ، ياقوت : إرشاد الأريب ١٩٢/٧ - ٨ ، الأغاني ١٧/٥٢ -

٦٧ : ابن سلام ٥٥٤ - ٦ .

١٣ انظر الباب الثالث .

١٤ المرزباني . معجم الشعراء ٢٩٦ .

١٥ الأغاني ١٠/١٩ .

١٦ البلاذري : أنساب ١٦٤/ب - ٥٥ ، ١٦٨/٥ .

١٧ المرزباني : معجم ٧٢ ، ابن الأثير : الترهة ١٦ .

الروايات بين الحجاج خطاه للعوي^(٣٨). وإن كنت ميوله شيعية وقده نعلي
لنساء الحجاج مديته في واسط^(٣٩). أقرب لأن تكون نسب التحقيق لسطح الحجاج
عبيه. وقد حلى الحجاج إلى جانب ذلك عدداً كبيراً من قرء بعد ثورة بن
الأشعث^{٣٠} بعد أن قتل بعضهم^(٣١). وحسن تحرير^(٣٢). وكان صارماً مع أشعراء
خاصة أولئك الذين تحدوا سلطته. فصهر عدد من شعراء منهم نغدي بن نغدي
ومناك بن الرثب وسور بن نصر بن ويريد بن الحكيم إلى نقرر من عصه لست
و الآخر. فحج بعضهم بن لصحاء مثل ما حدث لسوار بن نصر بن تميمي
الذي يبدو أنه كان معارض تدابير الحجاج لإرغام الناس على الانصياع لحيش
المهلب الذي كان يحارب الأزارقة آنذاك. وقد ذكر ذلك في قوله :

أقاتلي الحجاج إن لم أزر له ذراب وأترك عند هند فؤاديا
فإن كان لا يرضيك حتى تردني إلى قطري ما إخالك راضيا
إذا جاوزت أرض المجيزين فاقتي فباست أبي الحجاج لما ثانيا
أرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تمم والقلاة وراثيا^(٣٣)

وسلك اصعبك التسمي منك بن اريب نفس المسك. وكان فني قد
تشكك في عدالة الدولة حين قال :

أحقاً على السلطان أما الذي له فيعطي وأما ما يراد فيهنع
فشأنكم في آل مروان فاطلبوا سقاطي فما فيه لباغيه مطمع
وما أنا كالعير المقيم لأهله على القيد في بحبوحة الضم يرتع

١٨ ياقوت: إرشاد ٢٩٦/٧ .

١٩ السيوطي: العية ٤١٧ ؛ العقد الفريد ٤٧/٢ .

٢٠ العقد الفريد ٣٦٧/٣ - ٨ ؛ المورد: الكامل ٩/٥ - ١٠ .

٢١ ابن حجر: تهذيب التهذيب ٢١١/٢ - ١٢ .

٢٢ ابن سعد ١/٧ ص ١٥٧ .

٢٣ المورد: الكامل (المرصفي) ٢١/٥ - ٢ .

ولولا رسول الله ان كان منكم تبين من بالنصف يرضى ويقنع^(٢٤)

وحين خرج على الحجاج خاطب بني مروان بقوله :

إن تنصفونا يأل مروان نقرب إليكم وإلا فأذنوا ببعاد
فإن لنا عنكم مزاحاً ومزحلاً يعيس إلى ربح القلاة صواد
ففي الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أوطت كبلاد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبداً من عبيد إباد
زمان هو العمد المقر بذلة يراوح صبيان القرى ويقادى^(٢٥)

بيد أنه لم يكن من اليسير الفرار من غضب الحجاج وإن حالت بينه وبين
أهاريين مجاهل الصحراء. وقصة العديل بن الفرخ خير شاهد على ذلك. فقد قر
ب قبصر نروم إم لا تركه جريمة قتل^(٢٦) أو لأنه حو الحجاج^(٢٧) وحرص عليه
أمن عرق^(٢٨) وسعى إلى استغلال ما كان بينه وبين يزيد بن المهلب من تماس
حين قال :

لئن ارتج الحجاج بالبخل باباه فباب الفتى الأزدي بالعرف يفتح
يداه يد بالعرف تنهب ما حوت وأخرى على الأعداء تسطو وتجرح
هلموا إلى سيب الأمير وعرفه فإن عصاياه على الناس تنفح
وليس كعلاج من ثمود بكفه من الجود والمعروف حزم مطرح^(٢٩)
واطمأن بعض الوقت في جوار قبصر وعبر عن مشاعره في قوله :

٢٤ الأعمى ١٩/١٦٤ .

٢٥ المرد: الكامل ٢٦/٥ - ٢٨ .

٢٦ الأعمى ٢٠/١٢ .

٢٧ نفسه ٢٠/١٣ : ابن قتيبة: الشعر وشعره ٣٧٥ .

٢٨ الأعمى ٢٠/١٨ .

٢٩ عه ٢٠/١٣٠ .

ودون يد الحجاج من أن تنالني بساط لأيدي اليممات عريض
 منهامه أشباه كأن سرامها ملاء بأيدي الغاسلات وحيض^(٣٠)
 ولكن يد الحجاج وصلته فقبل به كتب لقبصر. والله نتعن به أو لأعوينك
 حياءً يكون أوه عسك وحرها عدي. فعث به إليه^(٣١). وسقط في يد أشعر وملاء
 الرعب قلبه فقال :

أخوف بالحجاج حتى كأنما يحرك عظم في الفؤاد مبيض
 إذا ذكر الحجاج أضمرت خيفة لها بين أحناء الضلوع نقيض^(٣٢)
 وكان ليس قد بلغ منه مبلغاً عظيماً إذ وجد نفسه بين يدي الحجاج فقال :
 ها أنا ذا ضاقت بي الأرض كلها إليك وقد جوت كل مكان
 فلو كنت في شعلان أو شعبتي أجا لخلتك إلا أن تصدّ ترائي^(٣٣)

وقد ذكروا أنه لما سح الحجاج في طيه لفضته الأرض وسا به كل مكان هرب
 إليه فأتى قومه بكر س وائل وهم يومئذ بدون جمع منهم بنو شيان وبنو عجل
 وبنو يشكر فشك بينهم أمره وقال لهم : أنا مقتول اقتصموني هكذا وأتم أعز عرب ؟
 قالوا : لا والله ولكن الحجاج لا يرغم. ونحن ستوهك منه. فإن أحاب فقد
 كعبت وإن حادن في أمرك معاك وسأله أمير المؤمنين أن يهبك لنا فقام فيهم
 وحتمت وحوه بكر س وائل في الحجاج فقتلوا. إن قد حيا جميعاً عبيت جباية
 لا يغفر مثله. وما نحن قد استسلمنا وأتينا بأيدينا إليك وما وهبت فاه ذلك
 نت. وإما عاقبت فكنت المسقط المالك اعداء فتسم وقال : قد عفوت عن
 كل حرم إلا جرم المسقط عذيل ! فقاموا على أرجحهم فقتلوا. مثلت في الأمير

٣٠ الأعرابي ١٣/٢٠ : ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٣٧٥ .

٣١ الشعر والشعراء ٣٧٦ .

٣٢ لأعي ١٨/٢٠ ١٣

٣٣ صه ١٨/٢٠ .

لا يستسى على أهل طاعته وتوحيته في شيء، وإن رأيت ألا تكدر ملك باستشه
وإن تهب لنا العديل في أول من تهب. قال قد فعلت فبهتوه قسحج الله فأتوه به
فلما مثل بين يديه أنشأ يقول :

فلو كنت في سلمى أجا وشعابها لكان لحجاج عليّ دليل
بنى قبة الإسلام حتى كأنما هدى الناس من بعد الضلال رسول
إذا جاز حكم الله ألبأ حكمه إلى الله قاض بالكتاب عقول
خليل أمير المؤمنين وسيفه لكل إمام صاحب و خليل
وعفى عنه (٣٤) .

وكان فخر الشعراء بثوة قبائلهم كفخر المسور نسق بقومه تميم فحراً
لا عاء فيه في معظم الأحوال حين يقع الشاعر فعلاً في قصة السطون وقد حدث
ذلك لمعدوية بن صعصعة بن الأخنف بن قيس رعيمة تميم وكان ولياً على البحرين .
فغضب عليه الحجاج وعزله وأمره أربعين ألف درهم ثم حسسه ولم يحرك أهله
سائناً، فقال يعزّي نفسه في مرارة وحسرة :

أما من تميم دافع لعظيمة ولا صابر عند الحفاظ مواسي
ولو كنت من حيي ربيعة شرفت دعائم بيتي منهم وأساس (٣٥)

وقد وجد هذا الحرف لدي أماره في نفوس الناس إهاب الحجاج أبلغ تعبير
عنه في شعر حرير والفردق بنين أهدأ إلى السكينة في عهده الطويل (٧٥ -
٩٥ هـ ٦٩٥ - ٧١٤ م) وحضعا حضوراً غير معهود فيهما. وفي شعرهم إشارات

٣٤ هـ ١٤/٢٠ و انظر الطبري ١٩٢/٢ فقد ذكر أن ابن مفرغ استجار بالأخنف بن قيس من عبيد الله
بن زياد فهدى له لاجب ، لا تيم على من سمى - شئت كمينت شعره بي تيمم و من قس
المفرغ بن الحارود حمايته، انتزع منه عبيد الله قسراً ولم يستطع شيئاً فهجاه ابن مفرغ
٣٥ المرزباني : معجم الشعراء ٣١٤ .

كثيره إلى ما كان يقوم به الحجاج وعماله من إرهاب وقسر لإخضاع شعراء (٣٦)
وقد تحدث القزويني في مديحه لمحبيته عبد الملك عن محكم بن يزيد حبيبة
الحجاج في البصرة مصوراً خوفه منه :

كاد الفؤاد تطير الطائرات به من المخافة، إذ قال ابن أيوب
في الدار: إنك إن تحدث فقد وجبت فيك العقوبة من قطع وتعذيب
في محسن يتردى به ذو ريب يخشى عليّ، شديد الطول مرهوب
فقت: هل ينفعني إن حصرتك بطاعة وفؤاد منك مرعوب
ما منه عنه في لست قدسه وما نسي من حلم مثل تجريب
وما يفوتك شيء أنت طالبه وما منعت فشيء غير مقروب (٣٧)
وخاطب الحجاج في مناسبة أخرى بقوله :

نقد أصبحت مسك على فصل كفص العث ينفع من أصه
ولو أتي بصين استان أهلي وقد أغلقت من هجرين بابا
عليّ، رأيت، يا ابن أبي عقيل ورأيت منك أظفارا وتابا
فعفوك يا من يوسف حير عمرو وأنت أشد منقم عقاب
رأيت الناس قد خافوك حتى خشوا بيدك، إذ فرقوا الحسابا (٣٨)
وموضح أن إهبة والخوف ندي يشبه الحجاج في قلوب مشاهديه عظيم فيما
يصوره نفس الشاعر :

إذا ما بدا الحجاج ناس أطرقوا واسكت منهم كل من كان يطق
فما هو إلا بأهل من مخافة وآخر منهم ظل بالريق يشرق

٣٦ مصر عن لامي ٤٣

٣٧ ديوان القزويني ٢٦/١ .

٣٨ ص ٨٣/١ .

وضارت قذوب لئاس شرفاً ومعرباً
 لها الناس إلا مُهَجَس أو مَلَقَس^(٣٩)
 ويررر في تصوير الفردوق تحذير زوجه له من الحجاج . خوف عامة الناس
 من هذا الحاكم :

تقول وعيناها تفيضان هل ترى مكانك ممن لا أراك تخصمه
 تنح عن الحجاج إن زحامه شديد إذا أغضى علي من يزاحمه
 ومن يأمن الحجاج والجبن تنقي عقوبته إلا ضعيف عزائم^(٤٠)
 وقد بلغ خوف اشاعر منه درجة دفعته لبسوح به للحيمة الوليد بن عبد الملك
 بطريقة تعيد إلى الأذهان اعتراف النابعة للنعمان :

وقد خفت حتى لو أرى الموت مقبلاً ليأخذني والموت يُكره رائره
 لكان من الحجاج أهون روعة إذا هو أغضى وهو سام نواظره
 أدب ودوني سير شهر كأنني أراك وليل مستحير عسكره
 ذكرت الذي بيني وبينك بعدما رمى بي من تجدي تهامة غائره
 فأيقنت أني إن نأيتك لم يرد بي النأي إلا كل شيء أحاذره
 وأن لو ركبت الريح ثم طلبتني لكنت كشيء أدركته مقاديره
 فلم أر شيئاً غير إقبال ناقتي إليك وأمرى قد تعايت مصادره
 وما أخاف شيء لم يمت من مخافة كما قد أسرت في فؤادي ضمايره
 أخاف من الحجاج سورة مخدر ضارب بالأعتاق منه خوايره^(٤١)

وحتى حرير الندي توثقت لعلاقة بينه وبين الحجاج . وكان كثير ما فخر
 بمركزه القوي في دوائر الحاكمين في مثل قوله :

٣٩ نصح ٥٣/٢ ، ١٣٧/٢

٤٠ ديوان الفردوق ٢٠٤/٢

٤١ نصح ٢٥١/١

أصبحت عند ولادة الأمر أثبتهم فلجأ وأبعدهم غلواً إذا نزعوا^(٤٦)
لم يجد مناصاً من تصوير خوفه وخوف غيره من الحجاج. فهو يقول في مدحه للحجاج :

ومن يأمن الحجاج ؟ أما عقابه فمرّ وأما عقده فوثيق
وما ذقت طعم النوم إلا مفزعاً وما ساغ لي بين الحيازم ريق
وخفتك حتى استزلتني مخافتي وقد حال دوني من عماية نيق^(٤٧)
ويخاطبه في مناسبة أخرى بقوله :

وحافوك حتى اتقوه ترو قلوبهم نزع انقط التفت عليه لحدس^(٤٨)

يبدو أن هناك من استواهد ما يشير إلى أن قدراً كبيراً من شعر النبي قيل في أيام الحجاج في تصوير خوف الناس منه ، يمكن استجابة صعبة موقف حقيقية وإن وجدت هذه أحياناً بقدر ما كان جزءاً من سياسة إرهاب وحوف منظمة وضعها حجاج وسار بها في حزم وشباط تضمن نجاح التدبير المديدة التي سعى لإخماد صوت معارضة ولا نسي أن معظم هذا الشعر الذي يصب في تصوير خصائص لعنف وصفت أشد التي يتحلل بها الحجاج كان ينشد في حضرته أو حضرة لحلفه كمدح، وفي ذلك إشارة إلى إعجابه الكبير بهذا ضرب من الشعر. وكانت حساسيته عظيمة لأي شعر - وإن كان في مدحه - يشتم منه روح التحريض أو الدلالة الدائرين فقد روي أنه حين سمع قول عبد الله بن النضر^(٤٩) في مدحه :

دعوا الجبن يا أهل العراق فإنما يهان ويسبى كل من لا يقاتل

٤٦ ديوان حرير ٢٧٧

٤٧ نسخة ٦١٥ - ٦٩ ؛ ذيل الأمالي ٤٣ .

٤٨ ديوان حرير ٣٥٣ .

٤٩ نسب أيضاً حرير انظر ديوانه ٣٥٤ - ٥ .

لقد جرد الحجاج للحق سيفه ألا فاستقيموا لا يميلن مائل
وخافوه حتى القوم بين ضلوعهم كثر و القفا ضمت عليه الجبائل
وأصبح كالبازي يقطب طرفه على مرقب والطير منه رواحل^(٤٦)
قل لأصحابه: ما تقولون؟ قلوا: نقول إنه مدح فدا. كلا ولكنه حرض
عليّ أهل العرق. وأمر صه فهر^(٤٧). وحين قل حرير في قصيدة مشهورة
في مدحه:

قل للجبان إذا تأخر سرجه هل أنت من شرك المنية ناج
فتعلقن بينات نعش هارباً أو بالبحور وشدة الأمواج
من سدّ مطلع النفاق عليهم أو من يصول كصوله الحجاج^(٤٨)
قل له: حرّث عليّ الناس يا س المجده! قل حرير وثمة ما أثبت لها
بالأ أيها الأمير إلا وقني هذا^(٤٩).

ووحى من هذه سياسة المرسومة كان لشعراء يجهدون أنفسهم في تصوير
حجاج في إهاب من سعة وقوة ويضمون عليه كل الصفات والخصال التي
تزعزع رعب في قلوب الناس. فهر في كثير من هذا الشعر سيف الله مصمت على
رقاب أعداء النظام القائم. ويمثل هذا يخاطب الفرزدق عبد الملك:

أمير المؤمنين وقد بلونا أمورك كلها رشداً صوابا
تعلم إنما الحجاج سيف تجذّ به الجماجم والرقابا
هو السيف الذي نصر ابن أروى به مروان عثمان المصابا^(٥٠)

٤٦ الأعاني ١٨/٢٠.

٤٧ صه

٤٨ ديوان حرير ٧٤.

٤٩ العقد الفريد ٨٤/١.

٥٠ ديوان الفرزدق ٨٢/١، واطر ٢٤/١، انظر ص ١٦٠ أعلاه.

ويشبهه في مناسبة أخرى بالشهاب يُرمَى به الأعداء :

هو الشهاب الذي يرمى العدو به والمشرق الذي تعصى به مضر
أحيا العراق وقد ثلث دعائمه عمياء صماء لا تبقي ولا تذر^(٥١)
ويصور في حيوية رائعة ندائمه إرامية لإخضاع لعصاة بالعراق ويميل :
إذا أوعد الحجاج أو همَّ اسقطت مخافته ما في بطون الحوامل
له صولة من يؤقها أن تصيبه يعش وهو منها مستخف الخصائل
ولم أر كالحجاج عوناً على التقى ولا طالباً يوماً طريدة تابل
وما أصبح الحجاج يتلو رعية بسيرة مختال، ولا متضائل
وكم من عشي العينين أعمى فؤاده أقمت وذئ رأس عن الحق مائل
بسيف به لله تضرب من عصي على قَصَر الأعناق فوق الكواهل
شفيت من الداء العراق فلم تدع به ريبة بعد اصطفاق الزلازل
وكانوا كذي داء أصابت شفاءه طيب به، تحت الشراسيف داخل
كوى الداء بالكموة حتى جَلَاها عن القلب عيني كل جنّ ونجابل^(٥٢)

ويصور جرير بدوره فعالية الحجاج فيقول :

إذا سمر الخليفة نار حرب رأى الحجاج أثقبها شهابا
عفاريت العراق شفيت منهم فأموا خاضعين لك الرقابا
وقلوا: لس جدمعاً أمير أقام الحدّ واتبع الكتابا
إذا غلقت جبالك جبل عاصم رأى العاصي من الأجل اقترابا
بأن السيف ليس له مردّ إذا أفرى عن الرثة الحجابا^(٥٣)

وينصح الناس التزام الطاعة والحذر من العصيان فيقول :

٥١ نفسه ٣٤٩/١ .

٥٢ ديوان الفرزدق ١٣٧/٢ .

٥٣ ديوان جرير ٢١ - ٢٢ .

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقنوا
منع الرشا وأراكم سبل الهدى
فاستوثقوا وتبينوا سبل الهدى
إن العدو إذا رموك رميتهم
ولقد كسرت سنان كل منافق

ماضي البصيرة واضح المنهاج
واللص نكله عن الإدلاج
ودعوا النحى فليس حين تناجي
بذرى عماية أو بهضب سواج
ولقد منعت حقائب الحجاج^(٥٤)

ويصور بطشه بالخارجين عليه في مناسبة أخرى فيقول :

دعا أهل العراق دعاء هود
كأن المرجقين وهم تشاوى
فجاءوا خاطمين ظلم قفر
أقمت لهم بمسكن سوق موت
ترى نفس المنافق في حشاه
تحسهم السيوف كما تسامى

وقد ضلوا ضلالة قوم هود
نصارى يلعون غداة عيد
إلى الحجاج في أحمر الأسود
وأخرى يوم زاوية الجنود
تعارض كل جائفة عنود
حريق السر في أحمر الحصيد^(٥٥)

وكانت وفاة لحجاج عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م ونوب سليمان بن عبد الملك ذي
ميل بيمية الخلافة عام ٩٦ هـ / ٧١٤ م قطعت تحول في السياسة عامة وفي نظره
شعراء حاضره. فقد أدت أولاً بانتهاء تسلط قيس على العراق وحراسان، وانتهى
بمقتل حاكمهم قبيصة بن مسلم على يدي حموي تميم واليمر مشتركة^(٥٦) وكشفت
هذه الحادثة عن الصدام الخفي بين مصالح لأطراف المتنازعة التي تجتحت سياسة
لحجاج الصرامة في كونه مدى عشرين عاماً. فقد كان الحجاج رعم اعناده
كبير على قبيلته قيس في وفاته لأزمات^(٥٧). فوق مستوى الحزبيات على وجه

٥٤ نفسه ٧٤ .

٥٥ نفسه ٩٥ - ٩٦ ، انظر ٣١٥ - ٦ ، ٢٥٣ - ٦ .

٥٦ انظر الباب الأول ص ٢٨ .

٥٧ نفسه ص ٢٧ .

لعموم. وكان يسعى دعم كل شيء ليصبح حاكماً أمورياً أكثر منه حاكماً قسيمياً ولعل هذا، إلى حد صر منه المعهودة، يفسر حضور صوت شعر قبلي في أومه

ولم يعد ممكناً بعد وفاة الحجاج استمرار ولاء لأطراف الموحد الذي حظى به لبعض الوقت عند اندث من مروان وخلفه الوليد الأول. وأصبح صوت النخوصة سيمية يزداد ارتداعاً بعد وفاته بزيادة سعى لخنفاء المتابعين لمحمود عن مساندة هذا لطرف أو ذلك على نية الأطراف^(٥٨). وتعتشت القبلية حين أصبحت أكثر من أي وقت مضى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحجة السياسة العامة للدولة وانتهى الأمر بالخنفاء والولاء ليصبحوا ممثلين لمصالح قبلية محددة أكثر منهم ممثلين لمصالح المجموعة كلها. ومن ثم سعى الشعراء لابرار هذه الاتجاهات المتناقضة وفقاً لولاءاتهم وسماءاتهم. وهكذا وجدت سياسة سليمان معادية لقيس ولذكري الحجاج خير معبر عنها في الفرزدق الذي قال عن الحجاج :

لئن نفر الحجاج آل معتب	لقوا دولة كان العدو يدها
لقد أصبح لأحياء منهم أدلة	وفي البر متواهم كلوحاً سناها
وكانوا يرون الدائرات بغيرهم	فصار عليهم بالعذاب انفتاحها
وكان إذا قيل اتق الله شممت	به عزة لا يستطاع جداهها
هم إلى الإسلام ونفس عدت	فقد مات عن أرض العراق خباها ^(٥٩)

والشاعر، يحدد موقف قومه المعادي لقيس مضاداً لموقف الحليفة، لا يتردد في إعلان ولائهم به مشيراً إلى المهنة التي لحقت بهم من قبل في قوله :

إن نحن لم نمنع بطاعتنا	والحب للمهدي والشكر
فغدت علينا في منازلنا	رسل العذاب برغوة البكر

٥٨ موه ص ٢٨

٥٩ ديوان الفرزدق ٧٥/٢ - ٦ ؛ انظر أيضاً ١٩/١ - ٢٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٧٥/٢ ، ١٠٠ ، ٣٠٩ - ١٠ .

ولقد عززنا بعد ذلتنا بك بعد ما نابى عن القسر^(٥٠)
ويتهز فرصة مقتل قتيبة من مسم ليدهم هيباً على عصيانها ويمدح قومه
تيمماً ويصورهم حماة للخلافة وذلك حين قال مخاطباً جرير .

ندمت على العصيان لما رأيته كأننا ذرى الأطواد ذات المخارم
على طاعة لو أن أجدال طيء عمدن لها والمهضب هضب التهام
ليقلها لم يستطعن الذي رسا لها عند عالٍ فوق سبعين دائم
فما بين من لم يعط سمعاً وطاعة وبين تميم غير حسر الحلاقم^(٥١)

وكان موقف جرير في هذه فترة بئع الحرح إذ كان المدافع عن قيس وكان
وتبق قصيدة الحجاج . ويتضح هذا حرح في ديوانه إذ لم يتوجه لسليل إلا قصيدة
وحيدة^(٥٢) . في حين قال عرزدق فيه تسعاً . وقد وصف جرير في تلك القصيدة
ملاقته بر من متعجب مشير من صرف حمي إلى ضمير الحجاج . وحين رأى لزماً
عليه أن يرد مرغم حصمه عرزدق حين مقتل قتيبة ، سلك مسلكاً وسطاً ساعياً
بدلت إلى إرضاء كل من حلقة وقس . وإد كان وكيع قاتل قتيبة يسمي بـ
عشيرة جرير من الشعر كان حق من العرزدق بالفرزدق في فعه قريه أمام الخبيفة .
فقال للفرزدق :

فغيرك أذى للخليفة عهد وغيرك جلي عن وجوه الأهاتم
فإن وكيعاً حين خارت مجاشع كفى شعب صدع الفتنة المتفاقم^(٥٣)

ونكه كان في ذل الوقت شديد لحرص على دفع تهمة الخبيفة التي رمى
الفرزدق قساً به . فهو يعبر عن عظيم حربه لهمة قوم قتيبة . وبدل أن يصور

٥٠ نفسه ٢٦٣/١ - ٤

٥١ ديوان الفرزدق ٣١١/٢ - ١٢

٥٢ ديوان جرير ٢٤٦ - ٧ .

٥٣ نفسه ٤٦٠

مفتته كمنع كل قصد من الدواعي عن الخلافة. يتبعه. ويتك هي "الحقيقة. عملاً
من أعمال الأخذ بالتأثر وذلك حين يقول :

أباهل: ما أحببت قتل ابن مسلم ولا أن تروعا قومكم بالمظالم
أدهل: قد أوفيت من دماكم إذا ما قتلتم رهص قيس بن عاصم^(٩٤)

وما يدل على وضوح تعصر قبلي في العمل السياسي في هذه الفترة ردود الفعل
العنيفة التي أثارها ثورة يزيد بن المهلب (١٠١ - ١٠٢ هـ / ٧١٩ - ٧٢٠ م)
الذي تمكن من هرب من سجن عمر بن عبد العزيز قبل تولي يزيد الثاني نصير
قيس، الخلافة (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م)^(٩٥). ولم تكن محاولة ابن
المهلب تنزع خلافة حضراً عن الأمويين وحدهم، بل كانت حضراً عن مضر
وقيس جميعاً ومن ثم تبقى حرير ولخردق في فرجة - بريكة وفي إنشاء على صحيفة
يزيد الثاني^(٩٦) الذي أوقع به الهزيمة. وأثنا ثناء عاطراً على القواد الذين هزموه في
ميدان المعركة^(٩٧).

وقد وضع الآن، أن ما كان يبدو في مرحلة متقدمة كدفع فعل طبيعي من
حسب المدو على مصادر تسلط الدولة والسلطان عامة على حياتهم ثم تحل أمره
في شط بعض شعراء. كما مررنا، قد توطن الآن وتدعم ووجد تبريره الرسمي
بعد أن أصبحت الدولة ذات طرف من أطراف النزاع. وصصعت للصعة حربية
صسقة. وحار شعراء إلى مجموعاتهم القليلة المحتصة وصاروا - ياحمون - دولة ونحكام
كمتمحدثين بلسان قومهم وهكذا دفع نصيب عمر بن هيرة الفرزي^(٩٨) حاكماً

٩٤ ديوان حرير ٤٦٦ .

٩٥ انظر الباب الأول ص ٢٨ - ٢٩ ، وانظر Wellhausch, Arab Kingdom, 312-19

٩٦ ديوان الفرزدق ١١١/١ - ٢ ، ٢١٣ - ٦ ، ٣٣٠ ، ٣٧/٢ - ٨ ، ٢٥٢ ، ٣٤٩ ، ديوان جرير

١٦٥ - ١٦٠ ، ١٩٥ ، ٣٠٤ ، ٨

٩٧ ديوان الفرزدق ٢٦٠/١ ، ٤٠٧ ، ٣٦٠، ٢١/٢

٩٨ انظر الباب الأول ص ٢٩ : وانظر لهاورن ٣٢٠ .

عن عرق مكن مسلمة بن عبد الملك المرزوق لبعض أيتاء يصور فيها سحق
تحم وغضبها على هذا الشرف الذي حازته غرمتها قيس يقول فيها :

ولت بمسلمة الركاب مودعاً فارعى فزارة لا هناك المرتع
ولقد علمت إذا فزارة أمرت أن سوف تطمع في الإمارة أشجع
وأرى الأمور تنكرت أعلامها حتى أمية عن فزارة تنزع
نزع ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة^(٦٩) لملها يتوقع^(٧٠)

وتنادى الشاعر في هجاء الحاكم القيسي واشتهر بذلك^(٧١)، ووجه عدة
قصائد بشأنه للخليفة. فقال مرة مخاطباً يزيد الثاني :

أمير المؤمنين وأنت والي شفيق لست بالطبع الحريص
أأطعمت العراق ورافديه فزارياً أحتد يد القميص
ولم يك قبلها راغي مخاض ليأمنه على وركي قلوصل
تفهيق بالعراق أبو المثني وعلم قومه أكل الخييص
ستحملة الدنيثة عن قليل على سياء ذعلبة قموص^(٧٢)

وه نكر مخوف لمرزوق وقومه في معظم لأحوال ردود فعل عاطفية فحسب.
فقد كنت في أفعاب الحاكم ما يرره في بعض الأحيان. ويبدو أنه أخضع
الشاعر وقومه لعقوبات محددة. فقد خاطبه الشاعر مرة بقوله :

منعت عطاء من يد لم يكن لها بشدي فزاري نصيب تواصله
فأصبحت مما قد منعت كقايض على الماء لم تقبض عليه أنامله^(٧٣)

٦٩ ابن بشر هو عبد الملك بن بشر بن مروان وابن عمرو سعيد والي خراسان وأخو هراة سعيد بن عبد العزيز
بن حكة

٧٠ م. سلام ٢٨٨ ٩ الأعش ١٧/١٩ كمس سرد ١٧٥ - مهورن ٣٢٠ هامش ١

٧١ م. سرد كمس ٢٢٤/٦

٧٢ م. سرد مرزوق ٣٨٩/١ ابن سلام ٢٨٩ - ٩٠ : كامل المرزوق ٢٢٤/٦ - ٥ .

٧٣ ديوان المرزوق ٩٣/٢ .

ويشير إلى ما اتخذته الحاكم ضدهم من تدابير في قوله :

لو لم تكن غطفان لا ذنوب لها إلى لام ذوو أحلامهم عمرا
 مما تشجع مني حين هجهم بي من بين مغربها والقرن إذ فطرا
 إن تمنع النمر من رازان مائرتنا فلست مانع جلّ الحي من هجرا^(٧٥)
 واضطر الشاعر إلى طلب الحماية لدى الخليفة، فهو يقول :

إليك سبقت ابني فزارة بعدما أرادا ثواي في حلاق الأدهم
 فقلت: أليس الله قبلكما الذي كفاني زياداً ذا العرى والشكائم^(٧٥)
 ونصب في وصف سو، حانه في قصيدة ضربة ساقه بالحيفة تقوب فيه
 فلولا تراخيهم بي بعد ما دنت بكفي أسباب المناسيا الدوالف
 لكنت كظبي أدركته حباله وقد كان يخشى الظي إحدى الكفائف
 ولا جار بعد الله خير من الذي وضعت إلى أبوابه رجل خائف
 إلى خير جار مستجار بعبله وأوفاه حبلاً للطريد المشارف
 على هوة الموت التي إن تقاذفت به قدفته في بعيد مدد
 فلا بأس إني قد أخذت بعروة هي العروة الوثقى لخير الخلائف
 أتى دون ما أخشى بكفي منهما حيا الناس والأقدار ذات المتالف
 فطامن نفسي بعدما نشرت به ليخرج تنزاء القلوب الرواجف
 وردّ الذي كادوا وما أزمعوا له عليّ وما قد تمقوا في الصحائف^(٧٦)

ولكن يبدو أن الفرزدق حبس ولم يقبل عمر بن هبيرة أي شفاعته فيه حتى وجه إليه الراجز التميمي أبو نخيلة قوله :

أطلقت بالأمس أسير بسكر فهل فداك نصري ووفري

٧٤ ديوان الفرزدق ١/ ٢٣٠ .

٧٥ نصح ٢٨١/٢ .

٧٦ نصح ١٧/٢ .

من سبب أو حجة أو عذر ينجي التميمي القليل الشكر
من خلق القيد الثقيل السمر ما زال مجنوناً على است الدهر
ذا حسب يعلى وعقل يزرى هبه لأخوالك يوم الفطر^(٨٧)
فأطلقه من السجن .

وكان عهد هشام (١٠٥ - ١٢٥ هـ / ٧٢٣ - ٧٤٣ م) وواليه على العراق
خالد بن عبد الله القمري (١٠٥ - ١٢٠ هـ / ٧٢٣ - ٧٣٨ م) يمثل بحق قمة
شعور قسي . ويعيد بن لأدهن ذكرى آدم رباد وحجاج فرعه إنجازات خلده
لإدارة المعصمي في مدى خمسة عشر عاماً^(٨٨) . إلا أن ميوه الميمنية كانت
تصغره لتصدي لخصومه سياسيين وهم عدة يصاتون أعداءه القليلين في
عنف وسدة الأمر الذي كان يصانع من حدة التوتر تقدم . ويبدو أنه كان يضم
حده لا حدته لمضر وزير^(٨٩) . وهناك من الشواهد ما يشب أن العلاقات بينه وبين
بني تميم قد ساءت قبل فترة طويلة من تصيبه ولياً على لعرق فقد ذكروا^(٩٠)
أنه كان وائياً على المدينية من قبل سليمان (٩٦ - ٩٨ هـ) فجلد شاباً قوشياً جلدًا
مريحاً فرغ أبوه أمره للخليفة ورجا الفرزدق الذي كان يرور البلاط آنذاك لينشفع
من أجله . فقال الشاعر :

سلو خالداً لا أكرم الله خالداً متى وليت قسر قريشاً تدبها
أقبل رسول الله أم بعد عهده فتلك قريش قد أغت سمينا
رجونا هداه لا هدى الله خالداً فما أمه بالأم يهدى جنيها^(٩١)

٧٧ الأغاني ١٤١/١٨ - ٢ .

٧٨ انظر فلها وزن ٣٢٦ حيث يورد سرداً مصححاً لانهائه .

٧٩ الأغاني ٢٩/١٩ ، ٦٠ .

٨٠ نصح ٦١/١٩ ، المقد الفريد ١٩٢/٥ - ٣ ، ديوان الفرزدق ٣٠١/١ .

٨١ ديوان الفرزدق ٣٣٤/٢ ، الأغاني ٦١/١٩ ، المقد الفريد ١٩٣/٥ .

وعضب الخليفة على خالد وأمر بقطع يده ولكن شاعرة يزيد بن المهلب .
صفيّ الحليفة، حالت دون تنفيذ الحكم الذي عدل للجلد. وقد صور فرزدق
الحادثة في قوله :

لعمري لقد صبت على ظهر خالد	شأيب ما استهلان من سبل القطر
أضرب في العصيان من كان طائعا	وتعصي أمير المؤمنين أبا قسر
فلولا يزيد بمن المهلب حلقت	بكفك فتحاء إلى الفتخ في الوكر
فخذ بيدك الحنف إنك إنما	جُزيت قصاصاً بالمخرجة السمر
أظنك مقجوعاً بربع منافق	تلبس أثواب الخيانة والغدر ^{٨٢}

وكان للمواجهة التي تمت بين خالد وعمر بن يزيد الأسدي رعيم تميم في
حضرة هشام بن عبد شمس آثارها البعيدة على علاقة اطرفين. فقد أصاب عمر
الأسدي في هجاء يمين أمام الحليفة وسرد أطرافاً من ماضيهم المليء بالعصيان
الذي انتهى بثورة ابن المهلب^{٨٣}. فأوعر صدر خالد، وحين وجد هذا الفرصة
ساحة ضرب عمر الأسدي بالسوط ضرب انتلف فقته وتسبب بذلك في تعميق
حدّه الأزمة التي طلت تحتاج مسرح الحياة المصرية لفترة طويلة من الزمن. ويمدح
شعر هذه الفترة بصورة قاتمة من صور الإرهاب والحواف والانتقام. وتحول مسلك
الشعراء من الانصياع وتردد لذي برز في علاقتهم مع الحجاج إلى النقد الجارح
وتحدي الساهر. وكان الفرزدق أكثرهم حرأة حين قال مستعلاً ما عرف عن
أم خالد من أنها أمة مسيحية من بلاد الروم :

ألا قطع الرحمن ظهر مطبة	أنت تهادي من دمشق خالد
وكيف يوم الناس من كانت امه	تدين بأن الله ليس بواحد

٨٢ ديوان الفرزدق ١ : ٣٠١

٨٣ ابن سلام ٢٩٨ - ٣٠٢ .

بنى بيعة فيها النصاري لأمه ويهدم من كفر منار المساجد^(٨٥)
وسعى لتحريض الخليفة عليه في قوله :
عليك أمير المؤمنين بخالد وأصحابه لا طهر الله خالدا
سوى بيعة فيها الصليب لأمه ويهدم من بغض الصلاة المساجد^(٨٥)

والنظرة الفاحصة لما يروى في هذا الصدد تبين أن العداء لم يكن دائماً من جانب واحد. فقد روى لبطة ابن الفرزدق قل «لما ولي خالد العراق فقدّمه وكن من أشدّ خلق الله عصبية على نزار، قال فلبس أبي من صالح ثيابه وخرج يريد السلام عليه، فقلت له: يا أبت إن هذا الرجل يمتاني وفيه من العصبية ما قد علمت، فلو دخلت إليه فأنشدته مدحك في أهل اليمن لعل الله أن يأتيك منه بخير فإنك قد كرت عن الرحمة فجعل لا يرد على شيئاً حتى دوماً إلى النوب فدخل فاستجلسه ثم قال: إيه يا أبا فراس أنشدنا مما أحدثت، فأنشده :

يختلف الناس ما لم يجتمع لهم ولا خلاف إذا ما أجمعت مضر
وب الكواهل والأعناق تقدمها فيها الرؤوس وفيها السمع والبصر
ولا يخالف غير الله من أحد إلا السيوف إذا ما اغرورق النظر
ما العدو فإن لا سين لهم حتى يلين لفرس الماضع المحر^(٨٦)

ثم قدم فخره. قلت: أهكذا أوصيتك؟ قال: اسكت لا أم لك! هـ
كست قط أملاً لقله مني الساعة! ^(٨٧). والواقع أن شاعر كان يعلم علم اليقين
أن ما بينه وبين خالد لا يمكن صلاحه. وقد تبين له ذلك في مناسبة أخرى حين

٨٤ لرد الكامل (المصفي) ٢٣٠/٦ .

٨٥ ديوان الفرزدق ١٦٠/١ : المرد: الكامل ٢٣٠/٦ : وكان سبب هدمه منار المساجد سباً أخلاقياً إذ

شكى بعض الناس عن بطلان منها على بيوتهم، انظر الكامل (المصفي) ٢٣١/٦

٨٦ ديوان الفرزدق ٢٠٠/١ : الأغاني ٣٠/١٩ .

٨٧ الأغاني ٢٩/١٩ - ٣٠ .

أناهُ يستحممه في ديت حملها فقال: إيه يا فرزدق كافي بك قد قلت: آني
الحائك بن الحائك فأحده عن ماله إن أعصابي أو آدمه إن معي. هنا حائك
اس حائك ولست أعطيك شيئاً فاذمني كيف شئت، فهجاه الفرزدق بأشعر
كثيرة منها :

ليتني من بحيلة اللؤم^{٨٨} حتى يعزل العامل الذي بالعراق
فإذا عامل العراقيين وليّ عدت في أسرة الكرام العتاق^{٨٩}

وكان لراماً على الفرزدق أن يصطدم في البصرة بالقائم على شرطته مالك بن
سدر بن الجارود الذي ولاه خاند عليها. فقد استقل الشاعر هذه نسبة بقوله :
يبغض فيما شرطة مصر أنني رأيت عليها مالكا عفا الكلب^{٩٠}
وقد أثار مقتل عمر بن يزيد الأسدي كوامن عصب تميم على خالد وبائه
في لبصرة، مالك بن سدر بن الجارود، ندي نقد حكم الحلد امير عبيه. وقد
دعى ذلك الفرزدق لينظم ألياً عنيفة منها :

ألم يك قتل عبد القيس ظلماً أبا حفص من الحرم العظام
قتيل عداوة لم يجن ذنباً يقطع وهو يهتف بالأمام^{٩١}
وزعموا^{٩٢} أنه قال للخليفة هشام :
فإن نيك لا نيك المصيات إذ أتى بها الدهر، والأيام جم خصامها
ولكننا نكي تنهك خالد محارم منا لا محل حرامها

٨٨ بحبه فبده حاد

٨٩ لأعني ١٩ - ٢٠ - ٢١

٩٠ نفسه ٤١/١٩ .

٩١ س - الفرزدق ٢٧٦/٢ ، ابن سلام ٣٠٠ ، كامل المبرد ٧٧/٢ - ٨ ، انظر ديوان الفرزدق ٣٠٨/١

٩٢ سبت أبو عبدة في تسعة كل القصيدة للفرزدق ويرى أنه قد يكون نظم منها بيتين أو ثلاثة ونظم سائرهما

مصر من سيار وبجده ٥٠ - مصر ديوان الفرزدق ٢٣٩/٢

في ذلك وفي ظلمه لقومه تميم :

تنت رحال من تميم فشهدوا فصيعت حق الله في ظلم مالك^(٩٨)
وأنفقت مال الله في غير حقه على نهرك المشثوم غير المبارك^(٩٩)

وتذكر الروايات أن هذا الشاعر واحه سخط الخليفة هشام في مناسبة أخرى،
وقد حج الشاعر بعدد كبر وكان هشام بن عبد الملك قد حج في ذلك العام فرأى
في غمار الناس علي بن الحسين في الطواف. فقال: من هذا الشاب ندي تبرق
أسره وجهه كأنه امرأة صبية؟ فقالوا هـ علي بن الحسين بن علي. فقتل الفرزدق
فاضحاً صرله الشيعة^(١٠٠) :

هـ الذي تعرف البطحاء وطأته وليت يعرفه والحل والحرم
فغضب هشام فحبسه بين مكة والمدينة فقال :

أتحبسني بين المدينة والتي إليها قلوب الناس يهوى منيها
بقلب رأساً لم يكن رأس سيد وعيناً له حولاء ياد عيوبها^(١٠١)

فبلغ هشاماً شعره فوجّه فطنقه^(١٠٢). ويقولون أن خالداً حين بلغه هجاء الفرزدق
سهر المبارك كتب إلى مالك بن المنذر بن الجارود. أن احبس الفرزدق، فإنه
هجا نهر أمير المؤمنين^(١٠٣).

وقد بعثت لأمر دروتها حين حبس خالد القسري نصر بن سيار الكفائي
فصاح الفرزدق في تحدٍ وضيق :

٩٨ رث خالد شهادة التميميين الذين شهدوا على مالك بن الجارود أنه قتل عمر الأحمدي .

٩٩ ديوان الفرزدق ٥٩/٢ ؛ اطر ٥٨/٢ ؛ الأعاني ٢٣/١٩ ، ٤٢ ، ٦١

١٠٠ ديوان الفرزدق ١٧٨/٢ - ٨١ .

١٠١ الأعاني ٤١/١٩ ؛ اطر التقاض ٩٨٤ ؛ ديوان الفرزدق ٤٧/١ .

١٠٢ الأعاني ٤١/١٩ ، ٢

١٠٣ ابن سلام ٢٩٤ .

أخالد لولا الدين لم تعط طاعة
إذا لوجدتم دون شدّ وثاقه
ألا يا بني مروان مثل بلاتنا
جدير لأن ينسى إذا ما دعوتهم
أفي الحق أنا لا تزال كتيبة
وإلا تناهوا تخطر الخيل بالقنا
إليكم ، وتلقونا بني كل حرة
وإنا لقتالوا الملوك إذا اغتدوا
ولولا بني مروان لم توثقوا نصرا
بني الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا
إذا لم يصب من كان ينعمه شكرا
ويورث في صدر المعيد له عمرا
تطاعنها حتى تسدين لكم قسرا
وندع نجماً ثم لا نطلب عذرا
وقت ثم أدت لا قليلاً ولا وعرا
علانية الهيجاء، ولا نحسن العذرا^(١٠٤)

وكانت سبيحة كل ذلك أن ألقى القبض على الفرزدق وحسن. وحنّ جنونه
فصار يقول نصيدة تنو القصيدة يدافع فيها عن نفسه ويسمي التهم لكثيرة الموجهة
إليه. ويمدح لخليفة وحالداً ومالكاً ويصف خوفه وجزعه. وكان عجز قومه عن
حمايته وبصرته على الدولة واضحاً. وأكدت السلطة مرة أخرى قوته. وأصبح الشاعر
انتمرد في موقف الصعف والمدافعة تحت رحمة من كان يشوي ظهورهم بالهجاء.
فأُطِيب في مدح مالك وقومه^(١٠٥). وصوّر ما كان يتمتع به رئيس الشرطة من
صفات تنير المهنة والخوف في أسلوب يعيد إلى الأدهان ما كان يقوله في ريادة
والحجاج من قبل، فهو يقول :

إذا مالك ألقى العمامة فأحذروا
فإنهما ان يظلماك، فقيهما
بوادر كفيّ مالك حين يغضب
كأل لعريان العذاب عصيب^(١٠٦)
ويجسم خوف الناس منه في كلمات حيّة :
رأيت أبا غسان علّق سيفه
على كاهل شغب على من يشاغبه

١٠٤ ديوان الفرزدق ١/٣٢٣

١٠٥ انظر ديوان الفرزدق ١/٢٥٩ ، ٢/٥٦ ، ١٢١ - ٣ ، ١٣٣ ، ٣١٧ .

١٠٦ ديوان الفرزدق ١/٣٠ .

تري الناس كالدعوى له وقلوبهم
أذلّ به الله الذي كان ظالماً
وقد علم المصر الذي كان ضائعاً
بأنك سيف الله في الأرض سلّمه
وينفي عن نفسه التهمة^(١٠٨) ويطلب في تصوير سوء حاله في السجن ليستدر
عطف مالك :

حلفت بربّ الجاريات إذا جرت
لما زادني من خشية، إذ حبستني
أعوذ بقبر فيه أكفان منذر
فهل يخرجني منذر من مخيّس
وكيف بمن خمسون قيداً وحلقه
أبيت أقاسي الليل واقصوم منهم
ولو أنها صمّ الجبال تحملت
أمالك إن أخرج بكفّيك صالحاً
وعلمني مشي المقيد خالد
أقول لرجليّ اللتين عليهما
أما في بني الجارود من رائج لنا

ووجه بمش عدداً من قصائد إلى خالد يمدحه فيها ويبالغ في نفي التهم
عن نفسه ويذكر مآثر الأمير خاصة النهر فيقول :

لقد زعموا اني هجسوت لخالد له كلّ نهر للمبارك أكدر

١٠٧ نسخة ٧٠/١ - ١ ، اطر ٢٤٩/٢ .

١٠٨ اطر نسخة ١٢٢/٢ - ٣ ، ٢٤٨ .

١٠٩ نسخة ٢٤٨/٢ - ٥٠ ، اطر ١٢١/٢ - ٢ .

ولئن تنكروا شعري إذا خرجت له سواجٌ ولو مسّت حراء لمحركت
لئن صبرت نفسي لقد أمرت به وكنت من احذار وبو كنت خائفاً
ولكن أتوني آمناً لا أخافهم سوابق لو يرمى بها لتفكّرا
له الراسيات الشّم حتى تكورا وخير عباد الله من كان أصبرا
لكنك من لعصماء في الطود أخذرا نهراً وكن الله ما شاء قدر^(١١٠)

ولا يفتأ يذكر الموائد التي تعود على الناس من حفر النهر في عدة قصائد
يقول في إحداها :

أعطى خليفتنا بقوة خالداً نهراً يفيض له على الأنهار
إن المبارك كاسمه يسقى به حرث الطعام ولاحق الجّار
لما تدارك للمبارك مدّه رخص الطعام لمنايح وتجار^(١١١)

وحر يحطّب الخليفة بزعم أنه ما سجن إلا لحسبه ومنزلة قومه. ويتصرّع له
ليمكنه مذكر إياه بما كان قدّمه حدّه مروان من حمية لشاعر^(١١٢) فيقول له :

فإن أك مجبوساً بغير جريرة فقد أخذوني آمناً غير خائف
وما سجنوني غير أنّي غالب واني من الأثرين غير الزعائف
وفي لذي كانت تعدّ لثغرها تحمّ لأيت العدو المفاذف
وفي لأعداء الخادف مدره بذحل عني بالنواب كالف^(١١٣)

وبعد أن يذكر انتصاره على خصومه يتعرض لسوء حاله مشيراً إلى أعدائه
الكثيرين :

١١٠ نفسه ٢٩٦/١ ، انظر ٢٧٠/١

١١١ ديون المزدق ٢٦٩/١ : انظر أيضاً ١٣٢/١ - ٣ .

١١٢ نفسه ٧/٢ - ١٠ : انظر ٦١/١ ، ١٨٨/٢ - ٩ .

١١٣ نفسه ١٠/٢

أرى شعراء الناس غيري كأنهم بمكة قُطبان الحمام الأوالف
عجبت لقوم إن رأوني تعلقوا وإن غبت كانوا بين راوٍ وجانف
عليّ، وقد كانوا يخافون صولتي ويرقاً بي فيض العيون الذوارف
ولو كنت أخشى خالداً أن يروعي لطرت بوافٍ ريشه غير جادف
كما طرت من مصري زيادٍ وانه لتصرف لي أنيابه بالمتالف
وما كنت أخشى أن أرى في محبس قصير الخطى أمشي كمشي الرواسف
أبيت تطوف الزط حولي بجُلجل عليّ رقيب منهم كالمخالف^(١١٥)

يمكن أهمية هذه الروايت المختمة التي توردها المصادر عن حبس الفرزدق وإطلاقه وبعضها ظهر الوضع في دلالتها على توطد سلطة سونة. وعجز العون القبلي المحلي لوصح عن التصدي لهذه السلطة بتقديم المعاونة والمساعدة لم يحتج إليها من لأفراد دول لاستعانة بالتحصينات القبلية لكبرى. وقد تبين لفرزدق أن صفة الدم في مثل هذه الظروف لا عنى فيها ولا جدوى منها. وقد وصّح ذلك في قصيدته التي هج فيها أيوب بن عيسى الصّبّي - وصبة أخوال الشاعر - وكان أيوب على شرطة مالك بن المنذر بن الحارود. فاحتال على الفرزدق حتى أتى به مالكا، فقال الشاعر يهجو :

فلو كنت قيساً إذا ما حبستني ولكن زنجياً غليظاً مشافره
متت له بالرحم يميني وبينه فألفيته مني بعيداً أوامره
وقلت امرؤ من آل ضبة فاعتزى لغيرهم لون أسفه ومحاجره
فسوف يرى النوبي ما اقترحت له يداه إذا ما الشعر غتت نوافره^(١١٥)
وقد جهه شاعر سلمة بن عباس بخذلان قبيته له إذ قل «حست في

١١٤ نفسه ١١/٢ . ص ١٤٠١ - ٢٨٤/٢٠١ .

١١٥ الأعالي ١٢٩/٢١ - ١٣٢ .

السحن فإذا فيه الفرردق حسه مالك بن المدر بن الجارود - وكان يريد أن يقول ليت فيقول صدره فأسقه إلى لقافية، ويحيىء بالقافية فأسبقه إلى الصدر. قال لي: ممن؟ قلت: من قريش. قال: كل أير حمار من قريش! من أيهم أنت؟ قلت: من بني عمر. قال: لئام والله أدلة. جاورتهم فكناوا شر جيران. قلت: فلا تحبك بأدل منهم وألأم؟ قال: بلى. قلت: بنو نجاشع. قال: وبلك ولم؟ قلت: أنت شاعرهم وسيدهم وابن سيدهم. جاء شرطتي مالك حتى أدخلك اسحن لم يمنعوك. قال: فذلك الله! (١١٦). وكنت دلالة يأسه من قومه تحميه أنه أرسل إلى الزعيم الكلبي سعيد بن الوليد الأبرش بالشام يستعطفه ويحمله عبء العفو حين قال له:

إلى الأبرش الكلبي أسدت حاجة توافيها حياً تحمى ووائس (١١٧)

وكان منحه لأخير للحمدية قيس رغم عدائه السابق لهم. فقد روى أنه قال لأنه لصة وهو محبوس: اشخص إلى هشام ومدحه بقصيدة، وقال لابنه: اسنعر بأنقيسة ولا يمنعك منهم هجائي ثم فإنهم سيعضون لك (١١٨). وفي هذه الفترة بالذات لقيت قيس ومضر في عدتهما ليمنية، وتستمر الرواية لتذكر أن قيساً قمت في أمره وقلت للحليفة: يا أمير المؤمنين إذا ما كن في مضر باب أو شاعر أو سيد وثب عليه خلد فحسه (١١٩). وبحجت شاعتهم في إطلاقه قدحهم في عدة قصائد (١٢٠).

وقد تجلّت وحدة اهدف هذه في اتجاه منافس الفرردق وغريمه جرير الذي

١١٦ نفسه ١٣١/٢١، ١٦/١٩ - ١٧، ابن سلام ٢٨٧.

١١٧ ابن سلام ٢٩٦، الأغاني ٢٤/١٩.

١١٨ ابن سلام ٢٩٥.

١١٩ نفسه.

١٢٠ ديوان المرزوق ٢٠٢/٢، الأغاني ٢٥/١٩.

سترجم خالداً في قصيدة طويلة^(١٢١)، ورحله فك إسماعيل الشاعر. قال ابن شبة
قدم بريد من قبل حند على هشام بنس المرزوق، فقال هشام: عي من
الحطمي. وأقبل جرير يمشي في مقطعات له حتى إذا سم على هشام قل له:
يا جرير إن الله قد أحرق المدسوق. قال: أي الفساق يا أمير المؤمنين؟ قال: المرزوق.
هو جرير: يا أمير المؤمنين إن أردت أن تتحد يداً عند حاضرة مصر وباديتها
وأطلق لهم شاعرهم وسيدهم وابن سيدهم! فقال هشام: يا جرير، أما يسرك أن
يخزي المرزوق؟ قل: لا والله يا أمير المؤمنين إلا أن يخزي بلساني. قل: فأين
ما تقول له ويقول لك؟ قال: ما أقول ولا يقول إلا الباطل. فما انصرف جرير
اتبعه هشام بصرة وقال: ويحه أي امرئ هو عند حسبه^(١٢٢).

١٢١ ديوان جرير ١٣٩ - ١٤٠ ؛ النقايس ٩٨٥ وفيها مقطوعات المرزوق ؛ انظر ديوان المرزوق ١/

١٣٢ - ٣ .

١٢٢ النقايس ٩٨٤ - ٥ .

الفصل الثالث

الشعراء ضمير الشعب

للشعراء البصريين دور مشهود في المدفع عن شرف قومهم والمناصرة عن حقوقهم ، يتحدثون بسانهم في مختلف المناسبات ولقضايا التي تهمهم . وفي أشعارهم وشااطهم الشاهد على كل ذلك ، ولئن كان هذا الدور قد تجاوز في كثير من الحالات أبعاده الحقيقية وصُحِّمَ لاعتبارات المناصرة والتفاخر ، فإن كثيرين من الشعراء عاشوا من أجل الأهداف التي رسموها لأنفسهم . ورسمها لهم ولأولهم لقومهم وارتضوا هؤلاء قومه ارتضاً حياً في أيام العسرة والضيق . وهناك قدر كبير من شعر المدح موجّه لملوكهم وولاة والأمرء م تكن الغاية منه مجرد المنق وتتحيل لآخر المكسب مادي . وإن كانت أهمية هذا المكسب مادي لا تعيب عن ذلك بل صمّ إلى جانب ذلك حصيلة متنوعة من الإشارات والنقادات تستهجن الطم وتدعو إلى وقف تمدد . وتحد صور المقتدر المدفع والمشقة التي تعرض لها الناس في أعقاب مواسم الحذب وغيرها من المآسي مكاناً بارزاً في كثير من قصائد المدح . فحزير يقول للحجاج في نهاية قصيدة يذكر فيها انتصاره على ابن الأشعث :

ألا نشكو إليك زمان محلٍ وشرب الماء في زمن الجليلد
ومعتبة العيال وهم سغاب على درّ المجالحة الرّفود

زماناً يترك الفتيات سوداً وقد كان المهاجر غير سوداً^١

مُكنهم لم يتوسعوا في مثل هذه المواضع إلا في آخر أيام الحجاج وبعد موته.
ففي قصيدة مؤثرة وجهها المرردق للوليد بن عبد الملك يصب في مهاتها حماية
الحديقة من الحجاج يتحدث فيها الشاعر عن الأمسي التي تتعرض لها قائل مضر
فيقول :

رأوني فنادوني أسوق مطبتي	بأصوات هلاك سقاب حرثه
فقالوا أغثنا إن بلغت بدعوة	لما عند حير الناس إنك زثره
فقلت لهم إن يبلغ الله ناقتي	وإياي أني بالذي أنا خابره
سحيث رأيت الذئب كل عشية	يروح على مهزولكم ويأكره
ليجتر منكم إن رأى بارزاً له	من الجيف اللائي عليكم حظائره ^٢
أغث مضراً إن السنين تناعت	عليها بحز يكسر العظم جازره
وكل معد غيرهم حول ساعد	من الريف لم تحظر عليهم قناطره
وهم حيث حلّ الجوع بين تهامة	ونخير والوادي الذي الجوع حاضره
بواديه ماء الكلاب من الذي	بها أسد إذ أمسك الغيث ماطره
وحلت بدنهاء تمم وأجأت	إلى ريف برّي كثير تمائره
كانهم للمبتغي الزاد عندهم	بحاتي حماك ضمور قبسه
ولو لم تكن عبس تقاتل مسها	من الجوع ضر لا يغمض ساهره
ولكنهم يستكروهن عدوهم	إذا هز خرصان الرماح مساعره
أغثي بكنهي في نزار ومقبلي	فإني كريم المشرقين وشاعره ^٣

١ ديوان حرير ٩٦ .

٢ الباقى أملكها الخدم كن يعملوها حول الحي ليدفعوا الذئاب عن الإبل الحية

٣ ديوان الفرزدق ١/٢٤٨ - ٢٥٠ ، اطر ٢/١٢٦ .

ولا بد أن الأمور قد بلغت حدًّا لا يطاق حين اعتلى سليمان عرش بني أمية (٧٩٦/٧١٥ م) فقد ابتدع لمرزوق في إحدى قصائده في مدح سليمان: ولعلَّها أولاهـ طريفة مدرة في قوس الشعر. وذلك حين بدأها بتصوير حيٍّ للحالة المرورية التي كان ناس عليها كما تدو في أرباء نسايمهم وأشخاصهم انتهالكفة وبعد أن ينتهي من حديث عام عن البؤس والندقة يتحدث على لسان روحه النوار قلائلاً:

ألست ترى من حول بيتك عائداً	بقدرك قد أعبأ عليها احتياها
فكيف تريد الخفض بعد الذي ترى	نساءً بنجد عيّل ورجاها
وسوداء في أهدام كلّين أقبلت	إلينا هم تمشي وعنا سؤها
على عاتقها اثنان منهم وانها	لترعد قد كادت يقصّ هزها
ومن خلفها ثتان كلتاها لها	تعلق بالأهدام، والشرّ حالها
وفي حجرها مخزومة من ورائها	شعواء لم يتمم لحول فصاها
فخرت، وألقتهم إلينا كأنها	نعامة محلّ، جانبها رثاها
إلى حجرة كم من خباء وقبة	إليها، وهلاك كثير عيالها ^(١)

وقد تحدّث جرير في قصيدته لوحيدة التي قالها في سليمان عن حال اليتامى ولأراميل:

آلا هل للخليفة في نزار	فقد أمسوا وأكثرهم كلول
وتدعوك الأراميل واليتامى	ومن أمسى وليس به حويل
وتشكو المشايات إليك جهداً	ولا صعب لمن ولا ذلول
وأكثر زادهن ومن سُفّع	حطام الجلد والعصب المليل
ويدعوك المكلف بعد جهد	وعانٍ قد أضّر به الكبول ^(٢)

٤ ص ٧٢/٢ ، انظر ٢٦٣/١ ، ٢٦٦

٥ ديوان جرير ٣٤٧

ويبدو أن هذه الأحوال استمرت حتى زمن عمر بن عبد العزيز كما يستشف من أشعار جرير والفرزدق واسترحاماتهما المتكررة. فحرير يقول :

أأذكر الجهد والبلوى التي نزلت
ما زلت بعدك في دار تعسّفتني
لا ينفع الحاضر المجهود باديه
كم بالمواسم من شعناء أرملة
يدعوك دعوة ملهوف كأن به
ممن يعدّك تكفي فقد والده
يرجوك مثل رجاء الغيث تجرهم
فإن تسدّهم فمن يرجون بعدكم
وقال الفرزدق لعمر :

وساقنا من قسا يزجي ركائبنا
وجائحات ثلاث ما تركن لنا
ثتان لم تركا لحماً وحاطمة
فقلت كيف بأهلي حين عض بهم
عام أتى قبله عامان ما تركا
إليك متجعج الحاجات والقدر
مالاً به بعدهن الغيث يتظر
بالعظم حمراء حتى اجتاحت الغرر
عام له كل مال معنق جزر
مالاً ولا يلّ عوداً فيهما مطر^(٦)

وريادة على الحق التي تسببها كوارث الطبيعة فإن هناك مصائب لابتزار
لرسمي ولأرهاب الإداري. ثم ضاعف من مشاعر السحر العم وأضرب روح التذمر
في المصر وبادية. وأمدّ الشعراء بقضايا عادلة يدافعون عنها، ويجيد بعضهم في
عرضها عرضاً فنياً مؤثراً. والنواصب أن الأحوال - خاصة حالة ليمو الذين طردوا

٦ ديوان جرير ٢١٠ - ٢١١ ؛ للخلفاء الآخرين انظر ديوان الفرزدق ٥٩/١ - ١٤٣ + ١٢٤/٢ - ٢٩٣ ، ٥

٧ ديوان الفرزدق ١٨٢/١ - ٣

في صحرائهم قد أصبحت أسوأ مما كانت عليه من قبل. فقد حُرِّم الإسلام على هؤلاء الأعراب عدتهم القديمة في الاعارة والنهب مما كان يضمن لبعض القبائل الغفيرة الرمث ويحفظ عليها الحياة. وزاد على ذلك فرص الصدقات والركوة، وكان ذلك مصدراً للتدمير كما دلت على ذلك حروب الردة. وطلَّ بعد ذلك عبثاً مبهظاً كثيراً ما شكاه منه الشعراء.

أما عمال الحكومة وبخاصة السعاة الذين يجمعون الصدقات والشرطة فقد كانوا هدفاً طبيعياً للهجاء والنقد. ليس من الشعراء وحدهم بل من الأمراء أنفسهم كما يستدل بما قانه زياد حين أحرقه بمن تولى شرطة البصرة. فكار تعليقه عليه :

وساع مع السلطان يسعى عليهم ومُخْتَرَس من مثله وهو حارس^(٨)
وقد صَوَّر أبو الأسود الدؤلي^(٩) أو أنس بن أبي نَاس^(١٠) أسلوب الولاة في الحكم في الإثراء عن طريق السرقة وحياة الأموال العامة، وذلك حين عين زياد أو عبيد الله بن زياد حارثة بن بدر لشاعر التميمي أميراً على سرق. فقد نصحه الشاعر في سخرية بقوله :

أحار بن بدر قد وليت إمارة	فكن جرذاً فيها تحنون وتسرق
ولا تحقرن يا حار شيئاً تصيبه	فحظك من ملك العراق سرق
فإن جميع لنس إما مكذب	يقول بما يهوى وإما مصدق
يقولون أقوالاً بظن وشبهة	فإن قبل هاتوا حققوا لم يحقوا
فلا تعجزن فالعجز أبطأ مركب	وما كل من يدعى إلى الرزق يرزق
وكاثر تمهاً بالغنى أن للغنى	لساناً به يسطو العبيّ وينطق ^(١١)

٨ الملاحظ: الحيوان ١٠١/١ .

٩ ديوانه ٢٤٣ ، الأغاني ٣٣/٢١ .

١٠ المرد: الكامل (المصنف) ١٩١/٣ ، ٢ : الحيوان ٣٦/٣ ، ٩٧/٥ - ٨٠ .

١١ ديوان أبي الأسود ٢٤٣ ، الأغاني ٣٣/٢١ .

وتنقل حادثة لصح كنه لأمر المعهود. ويروون أنه قال في ذلك :

جزاك ملك الناس خيراً جزائه فقد قلت معروفاً وأوصيت كافياً
أمرت بحزم لو أمرت بغيره لألفيتني فيه لرأيك عاصياً^(١٢)

وقد كتب زياد إلى حارثة بن بدر بحثه على حباية الحراح فكتب إليه علقمة
ابن معبد المازني :

ألم تر أن حارثة بن بدر يصلي وهو أكفر من حمار
وان المال يعرف من حواه ويعرف بالزواني والعقار^(١٣)

وقد صور الرعي ظلم سعة خير تصوير حين قد لعبد الملك من مروان
أحيفة الرحمن إنا معشر حفاء نسجد بسكرة وأصيلا
عرب ترى لله في أموالنا حق لركة منزلاً تنزيلا
إن السعاة عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهي لو علمت وغولا
أخذوا العريف^(١٤) فشقوا حيزومه بالأصبحية قائماً مغلولا
حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحماً ولا لفؤاده معقولا
جاءوا بصكهم وأحذب أسارت منه السياط براعة إجفلا
نسى الأمانة من مخافة لقح شمس تركن بضيعه مجزولا
أخذوا حمولته وأصبح قاعداً لا يستطيع عن الدبار حويلا
يدعو أمير المؤمنين ودونه خرق تجر به الرياح ذيولا
كهدهد كسر الرماة جناحه يدعو بفارعة شريف هديلا
فارفع مظالم عيلت أبنائنا عن وقد شويبا الذكولا

١٢ الأعاني ٣٣/٢١

١٣ نسه ٣٠/٢١ .

١٤ انظر الباب الأول ص ٣٦ للعريف

ولئن بقيت لأدعونَ لطيّة تدع الفرائض بالشّريف قليلاً^(١٥)
وقد أفصح أسيت الأخير عن يأس الشاعر وبرمه بما يرى ويحس وقد رأى
فيه الخليفة دعوة صريحة إلى لثمد والعصيان. إذ قال له: «وإن من الله والسلطان
لا أم لك؟ فستدرك الشاعر» وقال: من عامل إلى عامل ومن مصدق إلى مصدق!
ولكن ذلك لم يذهب ما نفس الخليفة منه فصرفه خائباً^(١٦). وحين وفد عليه العام
القابل مخاطبه بقوله:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يُترك له سبيل
وختلّ ذو المال والمثرون قد بقيت على لتلاتل من أموالهم عقد
فإن رفعت بهم رأساً نعشتهم وإن لقوا مثلها في قابل فسدوا^(١٧)
فقال له عبد الملك: أنت العام أعقل منك عام أول^(١٨) وقال له فتريد
ماذا؟ قال: تردّ عليهم صدقاتهم فتنعشهم فقال الخليفة: هذا كثير. قال:
أنت أكثر منه. قال: قد فعلت. فسلي حجة تحضك. قال: قد قضيت حجتني
قال: سل حاجتك لنفسك. قال: ما كنت لأفسد هذه المكرمة^(١٩):

وقد بين الفرزدق مفاصد العمال للوليد بن عبد الملك حين قال له:

رجاك المشرقان لكل عان وأرملة وأصحاب الثغور
وكنّت جعلت للعمال عهداً وفيه العاصمات من الفجور
أمير المؤمنين وأنت تشفى بعذل يديك أدواء الصدور
فكيف بعامل يسعى علينا يكلفنا الدراهم في البذور

١٥ ابن سلام ٤٣٩ - ٤٤٢ ؛ كامل المبرد ١٠٢/٧ - ٣ ؛ الخزانة ١٢١/٣ ؛ الأغاني ١٧٢/٢٠ .

١٦ ابن سلام ٤٤٢

١٧ ابن سلام ٤٤٢

١٨ نفسه .

١٩ الأغاني ١٧٢/٢٠

وَأَنى بالدراهم وهي منا
 إِذا سقنا الفرائض لم يُردها
 إِذا وضع السياط لنا نهراً
 فأدخلنا جهنم ما أخذنا
 فلو سمع الخليفة صوت داع
 وأصوات النساء مقرّئات
 إِذاً لأجابن لسان داع
 كرافع راحتيه إلى العبور
 وصدّ عن الشويبة والبعير
 أخذنا بالرّبا سرق الحرير
 من الإرباء من دون الظهور
 يادي الله هل لي من بحير ؟
 وصين لمن على الحبور
 لدين الله مقضاب نصور^(٣١)

وعدّد نفس الشاعر مظالم العمال في مناسبة أخرى في قصيدة وجهها لسليمان
 ابن عبد الملك قال فيها :

كم فيك إن ملكت يدك لنا
 من حج حافية وصائمة
 لم يبق منهم غير السنة
 ويحْمَرُّون بغير أعطية
 ويكلفون أباغراً ذهب
 حتى عبطنا كلُّ مُحْتَمَل
 وتمت الأحياء أنهم
 والرافصات بكل مبتهل
 ما قلت إلا الحقّ تعرفه
 ما أصبحت أرض العراق بها
 إن نحن لم نمنع بطاعتنا
 يوماً، توأصينا من النادر
 ستين ، أم افيرخ زعر
 واعظم وحوصل حمر
 في البرّ من بعثوا وفي البحر
 جيفاً بلين ، تقادّم العصر
 يمشي بأعظمه إلى القبر
 تحت التراب وجيء بالحشر
 من فجّ كلّ عمايق عُبر
 في القول مرتجلاً وفي الشعر
 ورق لمختبط ولا قشر
 والحبّ للمهدي والشكر

٢٠ ديوان الفرزدق ٢٨٥/١ - ٦ ، انظر ١٩١/١ لشكوى من الضرائب وقلة المال خاصة في النادرة .

فغدت علينا في منازلنا رسل العذاب برغوة البكر^(٢١)

وأضرب الشعراء في وصف وسائل لتعذيب التي يسكنها عمال الحكومة مع رعايا. وتحدثوا عن مظاهر الفساد الرسمي في كل جوانب الحياة. فقد أصبح استخدام السوط لإحراق لتأنيح المظلومة أمراً عادياً كما يبدو من قول الصَّتان العبدى :

أرى أمة شهرت سيفها وقد زيد في سوطها الأصبحي^(٢٢)

وأشار الفرزدق إلى استغلال الرشوة لدى حم عنه كثير من المصير كما يظهر من أبياته التي وجهها للحجاج :

وكذا برص ي ابن يوسف لم يكن
يروى إذا الخصمان جاءا إليهم
وما تبتغي الحاحات عندك بالرشى
ولا تقنضى إلا بما في رُسُل^(٢٣)

ويبدو أن الفساد قد استشرى بحيث كان القائمون على آبار الشرب يفرضون فرضاً على من يشربونها، دون وجه حق، فيما يذكر الفرزدق عن واحد من هؤلاء :

لحا الله ماءً، حبل قيم له
إذا ما وردت الماء فادلف لحبل
أويت لأبناء الطريق من امرئ
ولو علم الحجاج علمك لم تبع
لحاولت جدعاً أو لألقيت مقعداً
ترحف تمشي مشية ابن وضيع^(٢٤)

وعبر العجاج عن مثل ذلك حين قال لسليمان بن عبد الملك :

٢١ ديوان الفرزدق ٢٦٢/١ - ٣

٢٢ مراد لكس ٢٤٦٢

٢٣ ديوان الفرزدق ١٣٧/٢ ديوان ذي الرمة ٤٧٣ - ٤ لحالة محددة .

٢٤ ديوان الفرزدق ٣٤٣/٢

وعرفاء للامام حُمِّل
لما استطاعوا من خَبال خُبِّل
من حرَمات الله ما لم يُحَلَّل
فان يُوضَّح بالخبيث الأقلَّل
وإن يقل لا جُعَل عندِي يعكَل
يقال عمال وشرُّ عُمَل
كلُّ صُمُّ قلبه مهما يبل
وجنَّ الكليب باللجام الصَّلَل
فأصبحوا بعد الزمان الدغفل

على العمى وعن هداهم ذُهَل
وللأمير مُعَيَّن غَلَل
وإن لقوا ذا ضعفه قالوا اجعل
يرضوا وينسوا خضر التَّروُّل
منها ثنى على ثنى معقَل
ولا أحاشي عن قُل ولا فل
م يعاف الصالحون يأكل
مستبطناً أمانة كالمنخل
كالبرد بعد الجذَّة المرعبل^(٣٥)

كان سلوك الأمراء واستغلاصهم لفوذهم الرسمي مادة طيبة لتقد الشعراء. فحين حوّل زيد دعوة حارثة بن بدر وديوانه في قريش لمكده منه قال رجل من بني كليب يهجوهُ :

شهدت بأن حارثة بن بدر
سجّاح في كتاب الله أدنى
غداني اللهازم والكلام
له من نوفل وبني هشام^(٣٦)

وقد لاه العجّاج الأمراء وتمهمهم سهدم النظام الاجتماعي في قوله :

وأمراء أفسدوا فعاثوا
فهشّثوا فكثّر الهشّثات^(٣٧)

وتعرّض أمراء بعيهم لسفد الشديد. فأفوض ابن مفرّج^(٣٨) في تعديد مساوي عبيد بن زيد ومطلّله، ولكن تحامل هذا الشاعر على بن زياد وعداءه اشخصي

٢٥ ديوان المعاج ٥٣

٢٦ الأغاني ٢٢/٢١ .

٢٧ ديوان المعاج ٧٥ ، انظر العقد الفريد ٣٠٥/٧ ، كامل المبرد ٤٦/٦ تقضيا أخرى .

٢٨ الأغاني ٦٥/١٧ .

نه يضع شهادته موضع الشك وتعرض الحارث القباع لسهام الشعراء فقال له
مروة بن محكان قبل أن يصدر عليه حكمه :

أحار تئت في القضاء فإنسه إذا ما امام جار في الحكم أقصدا
وبت موقوف على الحكم فحتفظ ومهما تصه اليوم تدرك به غدا
فإني مما أدرك لأمر بالأسى وأقطع في رأس الأمير المهدي^(٣٩)

ويبدو أن القصع ردّ عليه بجلده جلدأ مبرحاً ظلّ صدها يتردد في شعره^(٤٠).
وقد دفع الشاعر حيه ثمناً لتحديه السلطان، فيذكرون أن مصعب بن الزبير
حين ولي دعه فأنشده الأبيات، فقال: أما والله لأقطعن السيف في رأسك قبل
أن تقطعه في رأسي، وأمر به فحس. ثم دس إليه من قتله^(٤١). ولعلّ شهر أبيات
نححص رأي شعر معاصر في القباع تلك الأبيات التي أرسلها أبو الأسود الدؤلي
إلى عبد الله بن الزبير بشأنه :

أمير المؤمنين جزيت خيراً أرحنا من قباع بني المغيرة
بلوناه ولناه فأعيما علينا ما يمر لنا مريه
على أن الفتى نكح أكلول وللاج مذهب كثره^(٤٢)

وتصدى الشعراء لمصعب بن الزبير ينتقدون إسراره خاصة ما طهر منه عند
روجه من عشة ست ضحة فقد ذكروا أن مهرها بلغ ألف ألف درهم^(٤٣). فقال
عنه أنس بن أبي أناس مخاطباً عبد الله بن الزبير :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة من ناصح ما إن يريد متاعا

٢٩ صه ١٠/١٩ .

٣٠ المرزباني: معجم الشعراء ٢٩٩ .

٣١ الأعاني ١٠/١٩ .

٣٢ ديوان أبي الأسود الدؤلي ٢٢٠ - ١ ، المحاط: البيان والتبيين ١/١٦٩ ، انظر ١٢٢

٣٣ البلاذري: أنساب الأشراف ٢٨٢/٥ .

بضع الفتاة بألف ألف درهم وتبيت قادات الجيوش جياعا
فلو انني الفاروق أخبر بالذي شاهدته ورأيت لارتاعا^(٣٤)

وحين عزل عبد الله بن زيبر أخاه مصعباً لبعض الوقت ووضع محله ابنه حمزة بن عبد الله والياً على البصرة^(٣٥) غيّر سياسة عمه مصعب وشدد على الناس في الأمور حتى صدقوا به ولم يجد زعماء البصرة مناصاً من التصدي له، فأرغمه مالك بن مسمع البكري على استخلي عن الولاية وعزله. وقد صور هذه الحادثة العدیل بن نمرخ وهي حادثة تلقي الضوء على قوة بعض الزعماء القويين خاصة أمام ضعاف الأمراء. قال العدیل :

إذا ما خشينا من أمير ظلامة دعونا أبا غسان يوماً فمكروا
إذا ما أبو غسان لم يعط سؤله أراد أبو غسان أن يتأمر^(٣٦)

٣٤ البلاذري: أنساب الأشراف ٢٨٣/٥ ؛ الأغاني ١٢٢/٣ - ٣ ؛ ابن قتيبة اشعر ٧١٤/٢

٣٥ الأغاني ١٢٣/٣

٣٦ البلاذري: أنساب ٢٦٥/٥ ؛ الأغاني ١٧/٢٠ ؛ القلائص ١٠٩٠ ؛ وانظر زكي ٣١١ - ٣٢٠ .

البَابُ الْخَامِسُ
الشَّعْرُ وَالتَّحَوُّلُ الْاجْتِمَاعِيُّ

الفصل الأول

بين الجاهلية والإسلام

كان لا بد لقوى لاجتماعية المتعددة التي تعاقبت على حياة ابصرة^(١) وأسهمت في تكوين شخصيتها من أن تترك آثارها على إنتاج شعراء الذين تأثرت حياتهم بها أيضاً في درجات متفاوتة .

ولعل الواجب يفضيها قبل الخوض في مبدعة هذه الآثار أن نلفت النظر هنا إلى خطأ يتجلى في كثير من كتابات المؤرخين، وهو خطأ يقع فيه مؤرخ الأدب عادة حين يعانح أمر تأثير المكون الاجتماعي على الشعر أو على الأدب عامة . وفحوى ذلك أنه بدل أن ينظر إلى جماع تجربة الشاعر كما تتجلى في شعره كله، معتبر كل التيارات المختلفة والمتنافرة في بعض الأحوال أجزاء لا تتحرراً من شخصيته التي هي نتاج بيئته الاجتماعية، فإنه يميل إلى تغليب جانب بعينه على الجوانب الأخرى ومعنى ذلك أنه بدل أن ينسب كل الجوانب المختلفة التي تبرر بوضوح في إنتاجه إلى حياة المجتمع الذي عاش فيه، فإنه يتحجر بعض لطايفه التي قد تكون غائبة عن الشاعره ويعتبرها ممثلة لشخصية الشاعر في عمومها . ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يطرأ إلى هذه لطايف الطاغية من رابوة مطابقتها

لتصور عام نذى حدة على مجتمع الشاعر . فإن لم تستقم معه في زعمه عُدَّ الشاعر غريباً عن مجتمعه متميماً إلى عصر غير عصره .

وتمثل هذه النظرة نظراً إلى السود الأعظم من شعراء البصرة وعبروهم ممثلين لنهج الجاهلي في الحياة ومقلدين للأسلوب الجاهلي في قول الشعر والواقع أن تصوير هؤلاء الشعراء للمثل الجاهلية، مهما بلغ ضياعه على شعرهم، لم يكن إلا حراً من تحررهم الشعرية، وقد تحلَّى فيها - حتى في تلك الصورة - عنصراً حياً من عناصر المجتمع لبصري. ولم يقطع هذا العنصر على شعرهم بدافع من حين حصل إلى ماضٍ نذر أو من رغبة عامرة للعلاقة بمثل عصى عليها الزمن، ولم يعد لها في حياة الناس مكان وإن أحاطوها بوقار مفتعل وقداسة جوفاء - بل طمى بدفع من تحركة حياة معاشة كانوا يشعرون بها في حياتهم اليومية ويفعلون بما تركه في قلوبهم وعقولهم من مشاعر وأحاسيس وفصل هذا لعنصر، وبالتالي فصل الشعراء الذين بعثوه عنه، من بوتقة لحياة البصرية، ودمع كل ذلك بالجاهلي. أو بأنه استمرر للتقليد الجاهلي، مما يعتبر أمراً منفصلاً عن حياة المجتمع، مثل هذا نصيب لا يسجد عنه إلا تشويه طبيعة هذا الشعر، وإفساد صورة الحياة التي يسعى إلى نقلها إليها. ومن الحير أن نبدأ من افتراض أن هؤلاء شعراء كابوا، حتى حين يرددون صدى مثل الجاهلية في أوصاف صورها. لا يرددون صدى مثل مجتمع انقراض وتلاشي، بل كانوا يرددون في ذلك صدى مجتمعهم هم المعاش.

ومن لهم أيضاً في معالجتنا للمحتوى الاجتماعي لهذا الشعر أن نضع اعتباراً لحقيقة أن الشعراء يتفاوتون في درجة إحساسهم بالقضايا التي تقلق بال مجتمعاتهم، كما يتفاوت وعيهم بالتيارات الاجتماعية والسياسية لطاعية. وتختلف استجابتهم لها بيد أنه رغم هذه التقليدية الصاهرة في الموضوع والشكل التي تسم إشراج معظم الشعراء الذين هم موضع دراستنا هذا، فمن الاحداف العظيم بالملكة الشعرية أن نصرف كل فكرة أو نظرة يأتي بها هؤلاء الشعراء في محار الحديث عن وسطهم الاجتماعي.

على أساس أنها لم تكن مقصورة لذاتها أو أنها فرع ثانوي من العرض لأوليّ سواء أكان ذلك المدح أو الهجاء أو الرثاء أو ما إليه .

وعلىنا في نفس لوقت مقاومة الرغبة التي تستبد بنا أحياناً لإضفاء فضائل على هؤلاء الشعراء أو على بعضهم ليست فيهم. إذ أنه من المعث أن نحث في انتاجهم عن نظرة متكاملة أو مطردة مما يمكن أن يعبر عن فلسفة اجتماعية أو سياسية واضحة المعالم. وكل ما نأمل في العثور عليه لا يعدو أن يكون مجموعة متنوعة من المخاطر والنضرات تعبر عن استجابات الشعراء وردود فعلهم للقوى المختلفة التي تؤثر على بينهم ولئن لم نستطع تحديد أي نصرة متكاملة لدى أي شاعر بعينه من الشعراء، فإنا رغم ذلك نستطيع رسم صورة متماسكة إلى حد ما للوسط الاجتماعي بالنظر إلى ما يقوله الشعراء ككل في هذا الصدد .

التعادل بين القديم والجديد :

الوضع الذي كان عليه مجتمع البصرة لا يخرج عن الوضع العام المعهود في كل مجتمعات التي تخضع لظروف النمو والتطور السريعين. وهذه الظروف تفرض ميزاناً لتعادل يحكم العلاقة بين القديم والجديد. وللدرجة التي يتعايش فيها النظامان في حالة تأرجح شديد الاضطراب، آخذ دوماً في الميلان لصالح الجديد. تخضع للقدرة الذاتية الكامنة في كل من النظامين لمواجهة احتياجات المرحلة الجديدة، وملاءمة ظروف الحياة، التي تبرز إلى الوجود فيها. والأمر المشاهد أن عادت الماضي وتقاليد لا تموت بسرعة، كما وان المثل والمواضعات الجديدة تحتاج لفترات طويلة لتسرب إلى عقل المجتمع الباطن، ولهذا يحتاج ميزان التعادل بين القديم والجديد إلى القوة والضغط لإقامته والحفاظة عليه في أكثر الأحيان، إذ يمثل من هم في السطة عادة النظام الجديد. ومجتمع البصرة خير مثال على هذه العملية فرغم قبول هذا المجتمع لمظاهر الإسلام الكبرى الدينية وتمسكه بها في قوة وإيمان، إلا أننا

نشهد في كثير من الأحيان أن هذه الواجهة أو الإطار الإسلامي يخفى على المستوى الاجتماعي عواطف ومشاعر جاهلية بعيدة الجذور كثيراً ما تنفجر وتطفو إلى السطح كلما ضعفت سلطة الدولة أو تلاشت .

ولئن كان من الصعوبة بمكان على الباحث أن يحدّد بدقة درجة التلاحم القصوى بين العناصر بحيث تأخذ المظاهر الجاهلية التي كانت طاغية في البداية في التحول تحت تأثير العناصر الإسلامية أو تتلاشى لتحل محلها مظاهر إسلامية، فإنه لا يبعد عن الحق إن افترض أن كل ذلك كان خاضعاً لعملية تطور انتهت في نهاية الفترة التي ندرسها ببلوغ مجتمع البصرة مرحلة التعادل الاجتماعي حيث تحول المجتمع العربي إلى ما يمكن أن نسميه بالمجتمع الإسلامي ممهداً السبيل للانفجار العباسي .

المظاهر الجاهلية :

لعلّ أبغ دليل على قبضة العرف الجاهلي لقوية على عقول البصريين وقلوبهم سواء في المدينة أو البادية تلك الحوادث المتكررة التي يتردد صداها في إنتاج مختلف الشعراء. وليس عرضاً هنا أن نحصي في شمول ودقة كل ما حدث في هذا المجال بل تكفي الإشارة إلى الاتجاهات العامة وتحديد المظاهر الكبرى .

وإذا استثنينا الالتزام الظاهري بالشعائر الدينية والتمسك بالفروض فإن الاتجاه العام كان يرمي إلى الوصول إلى صيغة مريحة بتلاءم تمتصها انظام الإسلامي المثالي مع نظام الحياة العربية الموروثة. ومن ثمّ رأينا الإسلام كنظام سياسي ينظمه المحتنفة من نبوة وخلافة وما إليها يستخدم محرّد أداة لفخر القبلي. وهكذا نراهم في تعدادهم لمفاخر القبائل والأفراد في الجاهلية يضيفون إليها الإسلام كمظهر لفخر. وما أكثر المواضع التي فخرُوا فيها برابطة الدم التي يقوم عليها النظام الجاهلي وسعى الإسلام إلى إحلال رابطة العقيدة محلها. ويبرز لرسول ﷺ في كثير من

ذلك. فحرير إذ يعدّد مفاخر قومه يصور النبي الذي يشترك المسلمون جميعاً في نسبة إليه أو في نسبته إليهم، وكأنه خاصّ بقومه لا غير، وذلك في قوله :

لنا حوض النبي وساقياه ومن ورث النبوة والكتابا
ومنا من يميز حجيج جمع وإن خاطبت عزكم خطاباً^(٥)
بينما يقول الفرزدق في هجائه للمهلب بن أبي صفرة :

ومنا نبي الله يشلو كتابه به دوخت أوثانها ويهودها
وما بات من قوم يصلون قبله ولا غيرهم إلا قریش تقودها^(٦)

وبنفس هذه الروح يصور الفرزدق المشاعر الحرام بمكة وكأنها منك خاص
لمجموعته القبلية دون سائر الناس، فيقول :

لنا مسجداً الله الحرامان والهدى وأصبحت الأسماء منا كبيرها
سوى الله إن الله لا شيء مثله له الأمم الأولى يقوم نشورها
إمام الهدى كم من أب أو أخ له وقد كن للأرض عريضة نورها^(٧)
وأصبحت قوة الإسلام تفهم وكأنها قوة لتصعيد القلي الحاكم الذي أنجب
النبي أولاً ثم الخليفة ثانياً. ففي هجاء الطرماح الطائي يقول الفرزدق :

فلم يبق إلا من يؤدي زكاته إلينا ومعطٍ جزية حين حلت^(٨)
وصار الحبيفة ولقبه لرسمي أمير المؤمنين - أميراً خاصاً بالقبيلة في كثير
من هذا الشعر. فقد قال جرير للأخطل وقومه :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت سافكم إليّ قطينا^(٩)

٢ - المقنص ٤٥٠

٣ - ديوان الفرزدق ١/١٥٩ ، انظر أيضاً ١/٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٢ ، ٣٨٢/٢ ، المقنص ٩١٢ ، ٩١٣

٤ - ديوان الفرزدق ١/٣٦٨ ، المقنص ٥٢٩ ، انظر أيضاً ٥٧١ .

٥ - ديوان الفرزدق ١/١٦٥

٦ - ديوان جرير ٤٧٧ .

وكان ردّ الخليفة فيما زعموا قوله « ما زاد على أن جعلني شرطياً، أما أنه لو قل: لو شاء، لسقتهم إليه كما قل^(٧) ». والواضح أن هذه العبارة لا تمثل في أغلب الصن أكثر من رأي النقد المعاصرين في الأسلوب الصحيح لمخاطبة الخليفة. ونسبناها إلى الخليفة هامة من ناحية دلالتها على الجو العام خاصة ما كان سائداً منه في بداية العصر الأموي حين كن للعصية القليلة، خاصة في البلاط، المكاة العلية. وقد طغى هذا التصور عن شعر معظم شعراء المعسكر المضري ودائرة خندف الضيقة التي نبعت منها قريش .

وهناك إلى جانب ذلك، كما لاحظنا من قبل^(٨) . اتجاه وصح للمطابقة بين « الإسلام » وسلطة الدولة الدنيوية. فيتكرر ورود هذا المصطلح في هذا السياق في معظم الشعر الذي قيل في الفتن والثورات على الحكم الأموي. ففي هزيمة ابن المهلب يقول المرردق ليزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ / ٧٢٠ - ٧٢٤ م):

ما وجد الإسلام بعد محمد وأصحابه للدين مثلك راعياً
أرى الله بالإسلام والنصر جاعلاً على كعب من ناواك كعك عالياً
فأتركت بالمشرعين سيوفكم نكوباً عن الإسلام ممن ورائي^(٩)

ويجعل نفس الشاعر قومه « قوم الإسلام » بهذا المعنى فيحاطب الخليفة هشاماً بقوله :

قوم عرى الإسلام والأمر كله وهل طاعة إلا تحم قوامها
ألم يك في الإسلام مسا ومنكم حواجز أركان عزيز مرامها^(١٠)

ويكثر الشاعر من مدح هلال بن أخوز القائد التميمي الذي هزم آل المهلب

٧ لأعني ٦٣.٧

٨ انظر الباب الرابع ص ١٥٦ ود بعدها .

٩ ديوان المرردق ٢٥٢/٢ - ٣ .

١٠ سنة ٢٤٢

بضريقة تبدو فيها المطابقة بين السلطة الأموية والإسلام واضحة. فهو يقول :

يقيم عصا الإسلام من ابن أحوز إذا ما عصا الإسلام لانت كعوبها^(١١)

وفي مناسبة أخرى يقول عن نفس القائد :

لعصري لقد قاد ابن أحوز قودةً بها ذلّ للإسلام كل طريق^(١٢)

وقد رأينا من قبل^(١٣) كيف أن هؤلاء الشعراء هاجموا آل المهلب وأحلافهم الذين لم يعرف عنهم أي انحراف ديني ووصموهم بالخروج عن الدين. وأصفى المرزوق على هلال الذي هزمهم صفات البطولة التي تليق بهذا المعنى حين قال :

يشفي بأرماحه من كل مبتدع ديباً يجيد عن الفرقان والسن^(١٤)

ونخاطب الشاعر بني بكر الذي حالفوا آل المهلب متسائلاً :

أتابعة الأوثان بكر بن وائل

وقد أسلمت تسعين عاماً وصلت^(١٥) ؟

وقد استخدم حرير الدين بمعنى الحكم والسيطان حين قال في مدح المهاجر ابن عبد الله :

ترك العصاة أذلة في دينه والمعتدين وكل لص مارد^(١٦)

١١ - ص ٥٦١

١٢ - ص ٣٦/٢ .

١٣ - انظر الباب الرابع ص ١٥٩

١٤ - ديوان مرزوق ٣٤٠/٢ ؛ انظر ديوان جرير ١٠٠ .

١٥ - ديوان المرزوق ١١٢/١ .

١٦ - ديوان جرير ١٠٠ .

ومثل هذه العبارات وما جرى مجراها^(١٧) مما تعاور عليه الشعراء لا يتجاوز في دلالاته تأكيد حقيقة الأساس الديني للحلافة. ومن الممكن أن تؤخذ مأخذ الشعارات السياسية لوجهة التأثير على الناس بغرض كسبهم للدعوة الأموية. ومن الشطط قبواها بمعناها الحرفي واعتارها مؤشراً حقيقياً للدرجة التي هيمس بها الإسلام كدين وكنظام اجتماعي على حياة المجموعة. ولكنك نفسك اقدر نحاي الواقع إن صرفنا النظر عنها بحساسها قوالب حواء على ذلك الاعتبار وحده، فالشعارات التي لا تضرب على وتر حساس في نفوس الجماهير ولا تثير في قلوبهم عواطف وأحاسيس بعينها لا تعدو أن تكون حيلاً زائفة في لعبة السياسة. إذ الاستعانة بالدين من أجمع الوسائل لتحقيق الطموح السياسي. وكان ذلك السبب الذي دعا كل الأحزاب لسياسية، سواء منها الأمويون أو الشيعة أو الخوارج أو ما إليها. لإقامة دعاها على أسس دينية، لأن كل فكرة الدولة والسلطة والجماعة الخاضعة لها تابعة من دين الإسلام وجماعته. وهذا التصور الذي يسوي بين تعقيدة والحضوع للخليفة ويجعل طاعته واجبة كما مرّ بنا من قبل، وجد معارضة عنيفة من بعض الخوارج كما يستشف من كلمات عبيدة بن هلال حين وزن بين موقف حزبه وموقف معارضيه، وذلك حين قال :

ولسنا نقول الدهر : عصمة ديننا على كل حالٍ كان، طاعة مصعب
ولكن نقول : الحكم لله وحده وبالله نرضى ولنقيّ المقرب^(١٨)

وإذا تجاوز موضوع السياسة والسلطة من السير أن نكتشف عناصر كثيرة غريبة تتعرض مع إطار الإسلام العام. فثأر الجاهلية وأحدها كانت دائماً حاضرة في أذهان الشعراء. وكثيراً ما تذكر في نفس السبق مع اتحاد الإسلام. ففي مدح قبيلة عجل بالسماحة والشجاعة في الحرب يقول الفرزدق :

١٧ انظر الباب الرابع ص ١٥٤ - ١٦١ .

١٨ شعر الخوارج (تحقيق إحسان عباس) ٥٦ .

هما من كرام المآثرات اصطفاهما

على الناس في إشراك دين ومسلم^(١٩)

وحين مدح آل مالك بن النضر بن جارود القدوم على شرطة خالد بن قيسري
بالبصرة قال :

فشتان مجد الجاهلية فيهم وهم قبل هذا الناس لله أسلموا^(٢٠)

وكانت الإشارات إلى الجاهلية وعمّاها تقال في حرية تامة كما يمثل ذلك
قول جرير في هجاء قبيلة تميم، إذ قال :

وما أحسن انيحي في جاهلية منادمة الجبار فوق المنار^(٢١)

وقد خرح الفرزدق عن طوره حين سعى إلى انكار نسبة بني المهلب إلى العرب،
وذكر الأصم ومما إليهم من شعائر الجاهلية بحسبانها علامة العربي الأصل،
فقال :

نغم أنوفاً لم تكن عريّة	ليحى نبط، أفواهما لم تعرب
فكيف ولم يأتوا بمكة منسكاً	ولم يعبدوا الأوثان عند المحصب
ولم يدع داع : يا صباحاً فيركبوا	إلى الروع إلا في السفين المضب
وما وُجعت أزدية من ختانية	ولا شربت في جلد حوب معلب
وما انتابها القنّاص بالبيض والجنّا	ولا أكتت فور المنيع المعقب
ولا سمكت عنها سماء وليدة	مظلة أعرابية فوق أسقب ^(٢٢)

وخاطبهم في مناسبة أخرى بقوله :

١٩ ديوان الفرزدق ٢/٢٢٠ .

٢٠ ديوان الفرزدق ٢/٢٥٠ .

٢١ ديوان جرير ٣١٧ .

٢٢ ديوان الفرزدق ١/١٦٦ .

وكيف ولم يقدم فرساً أبوكم ولم يحمل بنيه إلى الدوار
 ولم يعبد يغوث ولم يشاهد لحمير ما تدين ولا نزار
 وما لله تسجد أزد بصرى ولكن يسجدون بكسل نار^(٣٣)

وكثير من هذه العاصر الجاهلية المتخفية وراء لإطار الإسلامي مردها إلى عبلة الأعراب الذين يشمون في الأصل إلى الجناح الشرقي من جزيرة العرب وطفياهم على حياة البصرة. وقد بينا آنفاً^(٣٤) أن هؤلاء الأعراب جاءوا معهم بكثير من نظمهم البدوية وسعوا إلى تطويعها لظروف بيئتهم الحضرية. وكان من أهم هذه نظام الإحارة الذي كان من مآثر اجاهلية وسمح به الإسلام لبعض الوقت^(٣٥). ولكنه كان عند التطبيق يتعارض وسلطة الدولة التي تهدف إلى ضمان حقوق الأفراد بصرف النظر عن أصولهم القبلية. وبازدياد قوة الدولة واطراد فعاليتها ازداد تباطؤ القائل والأفراد وتلكؤهم في الالتزام بإحارة أي فرد من الأمير وإن كان هذا الفرد من أقرب الأقربين كما تبين لكثير من الشعراء بعد أن دفعوا ثمناً غالياً لرقهم^(٣٦).

بيد ان لفكرة استمرت رغم هذا خاصة في أوقات الأزمات، وظل الشعراء يولونها أهمية كبيرة. ومن هنا جاء إلحاح جرير على خيانة مجشع آل الفرزدق للزبير ابن العوام حين أجاروه في واقعة الجمل، ولكن أحد الناس تصدى له وقتله في جوارهم^(٣٧). فقال لهم مرة :

بلح أصحاب السفين بعدركم ويحوص على مران تجري ضمورها
 تراغيستم يوم الزبير كأنكم ضباع أصلت في مفار جعورها

٢٣ نحه ٢٠٨/١ .

٢٤ انظر الباب الأول الفصل الثاني ٣١ - ٣٢ .

٢٥ بحر سيرة بن هشام عن لأمة . وديوانية محمد بن مؤيد الثاني لأو . و ص ٤٤ ٤٦ خلاه

٢٦ بحر "باب مزاج غصن الندي

٢٧ "الفصل ٨٠ - ٨١

ولو كنت منا ما تقسم جاركم سباع وطير لم تجد من يطيرها^(٣٨)
وتبرز الفكرة بوضوح في المقائض بين الشعراء التميميين^(٣٩). فامرردق يقول
عن قوم خصمه :

قبح الإله بني كليب اتهم لا يغدرون ولا يفون لجار^(٤٠)
ولكنه حين يفخر بقومه يقول :

تري جارنا فينا يحير وإن جنى فلا هو مما يُنطف الجار يُنطف
ويعنع مولانا وإن كان نائياً بنا جاره مما يخاف ويأف^(٤١)

وحين تضطرب الأمور وتندعى سلطة الدولة يرجع الناس بالضرورة لعاداتهم
انقديمة طلباً للحماية والأمن. وقد اضطرب الأمراء والولاة أنفسهم إلى الاستعانة
بإمكانيات الحماية والحوار التي توفرها القبيلة القوية. فزياد لجأ إلى الأزد بعد موت
علي وطلب منهم الاحارة^(٤٢)، وقد سلك ابنه عبيد الله نفس المسلك عام ٦٥٥ هـ /
٦٨٥ م. وقد ورد الشاعر الأزدي العرنذس العوذلي بين وفاء الأزد لزياد ونخادل
تمم عن جدهم ابن نحرصي حين خبوا بيه وبين مطاردية فأحرقوه حياً عام ٣٨ هـ /
٦٥٩ م^(٤٣)، وذلك حين قال مفتخراً :

رددنا زياداً إلى داره وجار تمم دخاناً ذهب
لحي الله قوماً شؤوا جارهم ولم يدفعوا عنه حرّ اللهب^(٤٤)

بيد أن فعالية الحوار الذي تمنحه القبيلة لم تكن تبلغ غايتها إلا حين تتدهور

٢٨ ديوان حرير ٢٠٧ - ٨ ، انقائض ٥٤٤ - ٥ - انظر ديوان حرير ٢١٨ .

٢٩ انقائض ١٢٠ ، ٦٩٩ ، ٧٥٢ ، ٧٩٢ .

٣٠ نسخة ٣٢٩ .

٣١ نسخة ٥٦٢ .

٣٢ الدينوري: الأخبار الطوال ٢٩٠ - ٢ .

٣٣ انظر الباب الأول الفصل الأول من ٢١ .

٣٤ المزياني: معجم الشعراء ١٧٢ .

السلطة المركزية. ولا نعدم الشواهد على حالات متطرفة كثيرة خاصة في البادية. ويكفي هنا الاستشهاد بما فعله هلال بن الأسعر التميمي حين قتل جاراً لثني عمه دون أن يعلم بإحارتهم له. فسموا في طلبه حتى أسلموه إلى أهل القتيل^(٥٦). ولكن أهمية الإحارة تضاعفت مع الزمن لأن حماية الدولة حلت محلها، وإن ظل نظام منفرع عنها هو نظام الولاء يلعب دوره الاجتماعي الكبير^(٥٧).

والسعي الكبرى التي يتبعج بها شعراء القبائل في هذا المجال خاصة ما كان من حرير ولفرزدق لا تمثل مفارقة بقدر ما تعبّر عن حنين وتحرق وتشثت بمثال وقعة قريبة إلى قلوب العرب ولكنها مهددة بالانسحاق والتلاشي أمام مدّ السلطة المدنية الراحف. وبدافع من هذه المشاعر القوية تجاوز الفرزدق حدود القول إلى العمل وأعلن قبر أبيه غالب حراماً وملاًداً وآلى على نفسه كما كان يفعل الجاهليون أن يقيم في نصرة كل من استعاد به^(٥٨). وقد كان ذلك مادة حصبة للشاعر ومصدرًا حياً للفخر وقد استغله في منافسته مع جرير. فقال مرة :

إني ضمنت لمن أتاني ما حى	وأني، وكان وكنت غير غدير
يقري المثين وميم أعظم غالب	فيقي بها، ويفك كل أسير
والمستجار به، فما كجباله	للمستغيث به، حبال مجير ^(٥٩)

وقد كان لصنيع الفرزدق تأثير قوي على عقول معاصريه حتى روي أن ثمامة بن اليزيد بن القعقاع بن حبيد ستجار قبر هشام بن عبد الملك من يريد من هيرة وهو على قسرين فبعث إليه يزيد بن هيرة فضربه حتى مات. وقد أثار ذلك أبا الشَّعب العبيسي فقال في ذلك :

٣٥ 'لأبي ١٨٤/٢ .

٣٦ انظر الباب الأول ص ٤٤ وما بعدها .

٣٧ انظر القناص ٣٧٩ - ٣٨١ ، اس سلام ٢٦١ - ٢ ، ٢٦٣ ؛ المردد الكامل ٢٤٠/٤ - ٣ .

٣٨ القناص ٩١٠ .

يا آل مروان ان الغدر مدرككم حتى ينيحكم يوماً بجمع
أضحت قبور بني مروان مخروقة لا تستجار ولا يرعى لها الراعي
قبر التميمي خير من قبوركم يسعى بلمته في قومه ساع^(٥٩)

ومما يتصل بفكرة الجوار نظام الحلف بين الأفراد والقبائل، وكانت غايته توفير الأمن والحماية خاصة حين تضطرب الأمور وتتاوّم. وقد أشرنا آنفاً إلى أن تقسيم البصرة على أساس الانتباعات القبلية مما عمق من حدة الأزمات، وكان عاملاً مساعداً في التعجيل بانفجار العداوات في مثل هذه الظروف^(٦٠). وقد وضّح الفرزدق علاقة بين سلطة الدولة وتكوين الأحلاف حين سخر من الحلف الذي كان قائماً بين الأزد ويكر بن وائل في قوله :

لعمرك ما في الأزد بالملتك قوائم ولا عدل ما أضحي من الأمر مايل
ولا ضمها السلطان قسراً لدعوة فترضى بهذا الحلف بكر بن وائل^(٦١)

ولكنه زوار هذا السلطان بالذات الذي دفع بكرّاً لطلب الحلف حتى مع الأزد لمواجهة تميم والعسكر المضري وقد أمان ذلك حازنة بن بدر الغداني حين قال بعيث موت يزيد بن معاوية :

نزعنا وأمرنا وبكر بن وائل نجر خصاها تبغي من تحالف
وما بات بكري من الدهر ليلة فيصح إلا وهو للذل عارف^(٦٢)

وكان الصراع من أجل الخلافة وما لارمه من انفراط عقد الأمن والنظام لم يترك القبائل في شك من أمرها فيما يتعلق بضرورة إعادة كل الأحلاف التي كانت قائمة بينها في الجاهلية مع صعها ما صبغة لإسلامية. مثل حدث شأن حنن

٣٩ سنة ٣٨٠ .

٤٠ انظر الباب الأول الفصل الأول .

٤١ ديوان الفرزدق ٨٣/٢

٤٢ الطبري ٤٤٥/٢ ، البلاذري ، أنساب ٤/١٠٥ ، النفاض ٧٢٩ ، انظر النفاض ١١٢ - ١١٧

الحام بن تميم وقبيلة كلب اليمنية الذي جدّد بعد موت عثمان^(٤٣). ويبدو أن هذا الحلف استمر فترة طويلة إلى ما بعد وفاة المرزوق عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ م^(٤٤)، وقد باركه الشاعران التميميان ومدحاه^(٤٥). وأضاف الفرزدق إلى هذا الحلف رابطة الإسلام حين قال :

وانا وكلباً اخوة بيننا عرى من العقد قد شدّ القوي من غيرها
حليفان بالإسلام والحق تنتهي إلى ابن سليم بالسوفاء أمورها
نجير على كلب فيمضي جوارنا ويعقد من كلب علينا نجيرها^(٤٦)

وكان دور البادية في هذا المجال بعيد الأثر. فقد ساعدت الحرية النسبية التي كان اندو يتمتعون بها، فيما رأينا آنفاً، على استمرار حياة تنقلية دون كبير تعبير بفعل الأحداث التي جدّت بظهور الإسلام. فطوا يسلكون في كثير من جوانب حياتهم مسالكهم القديمة لا يصدّهم عنها مانع رسمي. وما كان من الهيئ فرض هذا المنع عليهم. وكان انهيار السلطة في المدينة يبدّل لهم بالتمادي في حياة السلب والنهب والإعادة التي عهدوها من قبل. فكانت الغارات والحروب بسبب المياه والمرعي أمراً عادياً^(٤٧) وفتح حو الاضطراب الباب على مصراعيه للعبث والسلب. وقد مدح القحيف النعري التميمي قومه على السلب حين قال :

فدى لقوم قتلوا مسعوداً واستلبوا يلمعه الحديد
واستلّاموا ولبسوا الحديداً^(٤٨)

٤٣ - قصص ٢٥

٤٤ - الأغانى ٤٤/١٩ ٤ ديوان الفرزدق ١٧/١ - ١٨ .

٤٥ - الأغانى ٢٤/١٩ - ٤٥ ديوان الفرزدق ٢٥٨/١ - ٩ ٢٣٩/٢ - ٨ .

٤٦ - ديوان الفرزدق ٢٥٨/١ - ٩ .

٤٧ - نصر ابن العبد الثالث ص ١١٨

٤٨ - ديوان معجم شعراء ٢١٠

وتحدثت وود بن خبيفة التميمي عن نفس لفكرة حين قال في هرب عبيد الله بن زياد :

يا رُبَّ جَبَّارٍ شَدِيدٍ كَلْبِهِ قَدْ صَارَ قَيْنًا تَاجَهُ وَسِلْبُهُ
مِنْهُمْ عَبِيدُ اللَّهِ حِينَ نَسْلَبُهُ جِيَادُهُ وَبَزَّهْ وَنَهَبُهُ^(٤٩)

وكثيراً ما احتاحت لدولة إلى فرص القيد والأوامر التي تنسج وروح الإسلام ولكن الأمور سرعان ما تعود إلى سابق عهدهم بزوال السلطة الرسمية المباشرة. وهكذا أعاد غالب أبو المردوق إلى العودية عبده السابق سجيناً الذي أعنته عثمان بن عفان. مباشرة بعد الثورة عليه^(٥٠). وهمل الناس قرار علي الذي يمنع استعباد مسلم أثناء ثورة ابن الزبير^(٥١). ولكن الأخذ بالثأر كان أكبر هذه الأخطار على الإطلاق. فقد كان الموتورون يجددون مساعيهم للأخذ بثأراتهم كما وهبت قوة لدولة أو تلاشت^(٥٢) وكانت هذه هجمات متكررة تنقي بظلم الكتيبة على حياة المصر وكان بعض لشعراء يثيرون حفائظ الناس بتذكيرهم بأنهم بالحوادث التي وقعت بينهم في ماضيهم القريب. فالمردوق يطالب في تمجيد ما قام به أس القصاص في الأخذ بثأر أخيه، وذلك حين يقول :

لو كنت مثل أخي القصاص وسيفه يوم الشباك لكنت غير قروور
ضرب ابن عبله ضربة مذكرة أبكى بها وشفى غليل صدور
وبنى بها حسباً وراح عشية بثياب لا دنس ولا موتور^(٥٣)
وكان هذا الشعر يثير حماسة قومه في كثير من المناسبات ليأخذوا بثأراتهم مشمًا فعل حين حرضهم على بني قُصَيِّ الذين قتلوا أحد التميميين .

٤٩ الضدي ٤٥٦/٢ .

٥٠ القانص ٤١٧

٥١ نفسه ٧١٧ ، وأطر ص ٢٣٨ هامش ٢ أدناه

٥٢ ابن سلام ٤٩٧ - ٩٠ ديوان الفرزدق ٢٨٧/١ - ٢٩١ .

٥٣ القانص ٩١٨ ، أطر أيضاً ١٢٢/١ ، ١٥٢ ، در الربة ٢٧٥ ، ٤٩١

يا آل تميم ألا لله أمكم! لقد رميتم بإحدى المصملات
 فاستشعروا بشباب اللؤم واعترفوا إن لم تروغوا بني أفصى بغارات
 وتقتلوا بفتى الفتيان قاتله أو تقتلون جميعاً غير أشتات^(٥٥)
 وكسر العصف لا ينجم عنه غير العنف والقتل لا يؤدي إلا إلى مزيد من القتل.
 وقد وضّح ذلك نفس الشاعر حين قال

إن تقسوا ما حداشاً فإنها عني إرث أصغان لكم ودحول
 قتلتنا زياداً والفصيل وثابتاً وعبدت عضّ السيف بعد جميل
 أولاء ، وأنتم تفخرون بواحد وقد بساء منكم خمسة بقتيل^(٥٦)

وقد تتعدّد الأمور بحيث تحرف حتى من يخدمون الدولة مثل الشرطة الذين
 تقع عليهم مسؤولية الحفاظ على الأمن واتصدي للعصاة وقتل المجرمين على الدولة.
 فكثيراً ما وقع هؤلاء في شباك الثأر المصوبة. وقد عثر عن هذا الوضع الشاعر
 التميمي مرةً بر محمّد بن علي شعا الموت على يد مصعب بن جذاش الأسدي
 الشرطي بأمر من مصعب بن الزبير حاكم لعراق إذ قال للأسدي :

بي سُد إن تقتسوني تحاربوا تمياً إذا الحرب العوان اشمعلت^(٥٧)

وبدكر في هذا المجال حادثة أخرى كان ها وقع كبير في فترة متقدمة عن
 هذه وتردد صداها في كثير من الشعر وكان بطلها هبيرة بن ضَمْضم المحشعي
 وكان شرطياً في خدمة زياد^(٥٨) أو ابنه عبيد الله^(٥٩) وحوي القصّة أن بني القَعْقَاع
 من تميم قتلوا أحد بني طُهَيْة في ثأر لهم ووجه الزوي هبيرة هذا في طلب المتعديين

٥٤ ديوان الفرزدق ١٠٧/١ - ٨ .

٥٥ نسخة ٩١ ٢

٥٦ الطبري ٨٠٣/٢ ؛ البلاذري: أنساب ١٦٣ ب ١ ؛ كامل المبرد ٢٤٧/٢

٥٧ القناص ٧٨

٥٨ ديوان الفرزدق ١٨٧/٢ .

سير ولو مرور. وسببت لمصادرة بأن قتل هبيرة أحدهم ويدعى عمرو، وقد عثر
عمرو هذا عن استهجانه لعمل الشرطي في رجز قاله وهو يجود بأنفاسه :
إن كنت لا تدري فأني أدري أنا القبايع وابن أم القمر
هل أقتلن إن قتلت ثأري ؟ (٥٩)

وقد استهجن الفرزدق صنيع هبيرة ودعا أهل المقبوض للأخذ بثأريهم منه (٦٠).
ونكر هؤلاء تربثوا حتى اضطربت الأمور بعد هروب ابن زياد من البصرة وأخذوا
بثأريهم من أحد أقراء هبيرة يدعى مزد بن الأقفص (٦١). وقد تردد قتل مزاد هذا
في كثير من شعر حرير وقد رأى فيه علامة وصحة لصعف محشع وهو : لم
لم تر عوفاً لا تزال كلابه تجر بأكماع السباكين ألحما
فأتم حزايسا وسخرير قراكم وناث الصدى يدعو عقلاً وصحفاً (٦٢)

وفي بعض لأحيان. وسلطة الدولة قائمة. قد ترفض الأسرة المكبوة عون
الحكومة وتسعى إلى أخذ ثأريها بيديها كما فعل آل عبّاد بن أخضر ندي قتلته
الخوارج، لأنه قتل أبا بلال مرداس، فغدروه فصاح ببني كبيب فم يأنه أحد،
وسع لحر بني مازن فأقبل أخوه معبد بن عقيقة وقال للشرطة : خنوا عا وثأرنا،
ورث إليهم معبد رجلاً بعددهم فقتلوا لخوارج، فقال الفرزدق في ذلك :

لقد طلبت بالذحل غير ذميمة ذا ذم طلاب الذحول الأخاضر
هم حردوا الأسياف يوم ابن أخضر فنالوا التي لا فوقها نل نائر

٥٩ الفائق ٧٩ .

٦٠ ديوان الفرزدق ١٨١٠٢ ٨

٦١ شخص ٧٩

أَقْدُوا لَهُ أَسْداً ضَا فِي اقْتِحَامِهِمْ عَلَى الْعِمْرَاتِ فِي الْحُرُوبِ بَصَائِرُ^(٩٦)
 وَقَدْ شَادَ الْفَرْدَقُ بَعْدَ اسْتِعَانَةِ السُّلْطَانِ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَدَلَّكَ فِي قَوْلِهِ :
 إِذَا كُنْتُ فِي دَارِ تَخَافِ بِهِ الرَّدَى فَصَمَّمْتُ كَتِصَمِّمِ الْغَدَايِ سَالِمِ
 مَحَا طَلِباً لِلْوَتْرِ نَفْساً بِمَوْتِهِ فَاتِ كَرِيماً عَائِفاً لِلْمَلَاتِمِ
 وَلَمَّا رَأَى السُّلْطَانُ لَا يَنْصِفُونَهُ قَضَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ بِأَبْيَضِ صَارِمِ
 وَلَمْ يَتَّأَرْ الْعَاقِبَاتِ وَلَمْ يَنْمِ وَلَيْسَ أَخُو الْوَتْرِ الْعَشُومُ بِنَائِمِ^(٩٧)
 وَقَدْ تَسَاءَلَ ذُو الرِّمَةِ سَاخِرُاً مِنْ خُصُومِهِ حِينَ خَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ :

مَهْلًا قَنَسْتُمْ ثَأْرَكُمْ مِثْلَ قَتْلِنَا أَحَاكِمِ رَضَحْنَا رَأْسَهُ بِبِلْجَادِلِ^(٩٨)
 وَحِينَ لَجَأَ هَؤُلَاءِ الْخُصُومَ لِلْأَمِيرِ قَالَ لَهُمْ فِي زَهْوٍ وَفَخْرٍ :

فَإِنْ تَقْتُلُونِي بِالْأَمِيرِ فَإِنْسِنِي قَتَلْتُمْ غَضِباً بِغَيْرِ أَمِيرِ^(٩٩)

وَكَثِيراً مَا كَانَتْ الصَّقُوسُ الْحَاهِلِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّأَرْ تَحْتَنِي وَتَقَامُ، وَخَيْرُ شَاهِدٍ
 عَلَيْهَا مِسْكُ ابْنَةِ مَسْعُودِ الْعَنْكِي زَعِيمِ الْأَزْدِ الَّذِي قَتَلْتَهُ تَمِيمٌ وَفَتَحَ مَقْتَلَهُ الْبَابَ لِفَتْنَةِ
 عَمِيَاءِ احْتِاحَتْ انْصِرَافَ بَعْدَ مَوْتِ يَزِيدِ الْأَوَّلِ. فَحِينَ بَلَغَ الْفَتْنَةُ مَقْتَلُ أَبِيهَا رَكِبَتْ
 دَابَّةً مُوَكَّمَةً وَوَلَتْ وَجْهَهَا حَوْ ذَيْبِهَا وَبَشَرَتْ شَعْرَهَا وَتَجَلَّسَتْ مِسْحاً، وَكَانَتْ
 تَنَادِي قَائِلَةً :

مَسْعُودٌ مِنْ نَقْتَلِ بِكَ أَحْنَفُ لَا تُعْطَى بِكَ

فَقِيرُ^(١٠٠) لَا تَرْضَى بِكَ^(١٠١)

٩٦ ديوان الفرزدق ٣١٥/١ ، كامل المرد ١٩٦/٧ - ٨ .

٩٧ ديوان الفرزدق ٢٢٢/٢ .

٩٨ ديوان دي الرمة ٤٩١ .

٩٩ نفسه ٢٧٥ .

١٠٠ هو عبد الله بن عامر بن كريب الذي توسط بينهم .

١٠١ الغنائم ١١٥ .

ورغم أن أهله قَبِلوا فيه المديّة إلا أنهم فرصوا على قاتليه دية الملوكة كما يقضي به العرف الجاهلي وهي عشرة أصعاف ما فرضه الإسلام^(٦٩) والذي كان يحدث كثيراً في مثل هذه الأحوال عزوفهم عن قبول الدية كما كان يفعل أهل الجاهلية، إذ أن قبولها دلالة الضعف والهوان. وقد تحدّث لفرزدق عن تجمع أحد معاصريه عن قبولها وسعيه لأخذ القصاص من قاتل أخيه :

ألم تر أنا وجدنا الضبيح	شُر أخيه علينا بحيلة
كأننا نباري به حية	على جبل ما يريد النزولا
أصمّ، أي ما يوجب الرقي	ولم تره الشمس إلا قليلا
أي المقادة صعب النجى	إذا نحن قلنا أباي أن يقولوا
سوى أنه قال : إن القصاص	قصاص المعاقلة ترضي الدليلا
ولو قبلوا العقل من ثأرهم	أنحنا لهم شدّ قميّاً ذلولا ^(٧٠)

وكان الشاعر أين حجة عن استهجنه قبول الدية حين قال لبي نعيم الذين قبل أحدهم يدهى جلداً :

أجيبوا صدى جلد إذا ما دعاكم	بجرد تسامى الملجمين فحولها
اتقتلكم في غير جُرم عبيدكم	وفيكم روائي عامر وفصولها
فإن التي يأبى الأسير عليكم	لقاصدة للحق ضاح سيلها
فلا تقبلوا منه أباعر تشتري	بوكس ولا سوداً تصح فصولها
وإن تقتلوا بالفأس يحيى قتيلكم	وإلا فإن الفأس عارّ قتلها ^(٧١)

وفي بعض الحالات انادرة كان لشعر لفضل في تخفيف حدة هذه الحلقة

٦٩ نفسه ١١٧ ؛ الدينوري : الأخبار الطوال ٢٩٥ .

٧٠ ديوان الفرزدق ١٠٢/٢ .

٧١ نفسه ١٢٠/٢ .

مفرقة من جرائم القتل، كما حدث في قضية بني نقصاف التميميين التي مر ذكرها فقد قتل أحد بني تميم الله أخاهم مسعوداً بعد مقتل عثمان. وبعد فترة من الزمن استدرج بعضهم قاتل أخيههم فقتلوه وكان في حوار بني حارثة. وثار هؤلاء لانتهاك حرمة حورهم وكان يمكن لسلسلة القتل المتتابع أن تدور دون توقف لولا تدخل الأسلع بن نقصاف الذي سارع بنظم قصيدة طويلة عرض فيها وجهة نظره قومه ورحا الحابيين الاحتكام إلى العرف العربي الذي يقضي بأن النفس بالنفس. وكانت القصيدة من الإقذع بحيث ارتاح لها بنو حارثة وما كان منهم إلا أن قالوا « ما لنا على ركايبكم من سبيل قوم أدركوا بشأهم وضم جوار والدي بسنا وبينهم حسن »^{٧٢}.

ويتجلى في هذا الشعر بن جالب ما ذكرنا كثير من العادات والأفكار الطاهية المتعقبة بالموت والحرب. فعادة عقر لفرس أو الناقة على قبر الرجل العظيم كانت سائدة كما أوضح سموك المرردق في كثير من مناسبه فقد ذكروا أنه عقر فرسه على قبر بشر م مروان وبي العرق (٥٧٤ / ٦٩٤ م) وقال محاطاً الميت .

أقول لمحبوك السراة معاود	سباق الجياد قد أمر على شذر
ألت شحيحاً ان ركبتيك بعده	ليوم رهان أو غدوت معي تجري
حلقت له لا أركب الدهر بعده	صحيح نساً حتى يكوس على القبر ^{٧٣}

وفعل مثل ذلك على قبر الهذيل قائلاً لأهل هذا الميت :

فن مبلغ فتيان تغلب أني عقرت على قبر الهذيل ليذكر^{٧٤}

وقد عثر جرير بالقول عن هذا العرف حين قال في رثاء قيس بن ضرار :

٧٢ البقائص ٩٢١ .

٧٣ البلاذري : أساب ١٧٩/٥ .

٧٤ ديوان المرزوقي ٢٨٩/١ .

نَحَرٌ لَقَيْسٌ أَنْ يَبَاحَ لَهُ الْحَمَى وَأَنْ تَعْقِرَ الْوَجَنَاءُ إِنْ خَفَّ زَادُهَا^(٧٥)

وفي أثناء ظروف الموضي والحرب تبرز حماية الجاهلية في أعنف صورها وتحلى كثير من صورها المتطرفة. إذ درجوا في هذه الأحوال على التمثيل بأجساد من قتلوا من أعدائهم وهو أمر حرمه الإسلام. وقد صور الفرزدق منظر عمير من الحجاب وحلفاءه وقد مثلوا بهم :

سيخبر خُصْيًا ابن الحجاب ورأسه عمير على ما كان يوم الأراقم
عشية ألقوا في الخريطة رأسه وخصيه مشدوخاً سلب القوائم
تركنا أيور الباهليين بينهم معلقة تحت اللحي كالتائم^(٧٦)

وكان صلب الموتى أمراً عادياً. وكان أول مصلوب في الإسلام جيش قائد عبد الملك الذي قتله البصريون بالرَّبْدَة^(٧٧). وقال عمرو بن حفظة عنه :

فدى لأمريء سوى جيشاً على العصا قدامة قبل الناس من آل أجدر
أناخ له شر المطايا مطية وكان جيش قد طغى وتجبرا
وقال جيش للجنود تقدموا وظن قتال القوم قنأً وسكرا
ولما التقوا ولَّى الشأمون هرباً عزَّين وأجلوا عن جيش مقطرا^(٧٨)

وسبى المسلم أو استعباده محظور بأمر الدين^(٧٩). ولكن الفرزدق كان يعتبر

٧٥ ديوان جرير ٩١ .

٧٦ النقائص ٣٩٤ ، انظر ديوان الفرزدق ٣٧/٢ .

٧٧ المرزباني : معجم الشعراء ٤٧ ، وانظر البلاذري : أنساب ٣٦٩/٥ - ٣٧٠ حيث صلب النجاشي ابن ربيعة بعد قتله وربطه إلى كلب مما أثار عليه حفيظة عبد الملك ، وانظر أنساب الأشراف ٨٧/ب . صلب من المهلب ، انظر أيضاً ديوان الفرزدق ٢١٥/٦ .

٧٨ ن. ب. معجم الشعراء ٤٧ .

٧٩ انظر النقائص ٣٠٨ . أسر صلب من ربيعة من ربيعة من عجل حبيصة من دغوم وشتره أمورا من ن. ب. انه بعد انه حبيصة مع فلم يوفه فقهه نكوة بديده وبها علي بن أبي طالب فأتاه نكر من بني حبيصة بدين نكوة فذكر . ن. ب. في الإسلام ٢ ص لا يبعث وشتره من لؤي . ق. ب. يكن الفرزدق .

عن فكرة حية حين افتخر بأجداد قومه في الجاهلية في قوله :

زى كل حي قد خططنا ساتهم بأرعن مثل الطود جم صواهلـه
إذا ما التقينا أنكحتنا رماحنا من الحي أبكاراً كراماً عقائـه
وبنت كريم قد نكحنا ولم يكن لها خاطب إلا النان وعامله^{٨١}

وقد سقى العباس بن الوليد ابنة قطري بن الفحاة قائد اخوارج وتزوجها بمقتضى
اعرف الجاهلي^{٨٢} وكان الحخاف بن حكيم السلمي يصدر عن نفس العاطفة
حين قال بعد هزيمة بني تغلب في واقعة البشر :

نكحت بسفي من رهير ومالك نكاح اعتصب لا نكاح الدراهم^{٨٣}
وعبر عن ذلك ذو الرمة في قوله :

وقوم كرام أنكحت ساتهم طبات السيوف والرماح المداعس^{٨٤}
وقد أكد الفرزدق أهمية الدولة والدين في ردع مثل هذه الأعمال وذلك حين
قال بلجندل ابن الشاعر الراعي :

فولاً بنو مروان وسدين أنهم سو أمّا كموا الشديد عن الضهد
لقد أنكحت عرساك راعي مخاضنا وبعاك في بحران بالجدف نقهد^{٨٥}
ولكنه احتج في مناسبة أخرى بهذه الأعمال ورأى فيها السبوك الأمثل حتى

= وفي بني عجل ماء حطبة لما كدت فتنة من ثريب وقت سو عجل فاحدوا من الزوار منه غير وبين
ساحهم على ٥٠ وتركوا له ٥٠ اضطر لمقاتل ٧١٧ لأول نساء مسلمات يأسرن في الحرب بسر بن
أرطاة عام ٤٠ هـ / ٦٦٠ م .

٨١ القنص ٦٠٥ .

٨٢ المقد البريد ١٨٦/٥ .

٨٣ البلاذري : أنساب ٣٣٠/٥ .

٨٤ ديوان ذي الرمة ٣٢٣ .

٨٥ ديوان الفرزدق ١٧٨/١ .

المباراة في ذلك بين جنّاب بن شريك وبني نهشل . وقد عقر حَنَابُ هِيها ثمانين
بعيراً وقد سجّل ذلك الفرزدق في قصيدة مشهورة^(٨٩) . وقد مرّ بنا من قبل غضب
رياد على الفرزدق الذي احتذى مسلك والده حين أنهب الناس ماله وثيابه في
الربد^(٩٠) . ولم يكن التدحّل الرسمي دائماً العامل الحاسم في مثل هذه الأمور كما
يستدل من قصة مَرّة بن مَحْكَن الشاعر التميمي . قال المدائني : كان مرة سخياً
وكان أبو البكراء يوائمه في الشرف وهما جميعاً من بني الربيع . فأنهب مَرّة بن مَحْكَن
ماله الناس فحبسه زياد فقال في ذلك الأبيرد الرياحي :

حبست كريباً أن يجود بماله ستعرف ما في قومه من مقام
كأن دماء القوم إذ علقوا به على مكفهر من ثيابا المحارم
فإن أنت عاقبت ابن محكان في الندى فعاقب هداك الله أعظم حاتم
قال فطلقه زياد . فذبح أبو البكراء مائة شاة فنحر مَرّة مائة بعير فقال بعض
شعراء تميم يمدح مَرّة :

شري مائة فأنهبها جواد وأنت تنأب الحذف القهادا^(٩١)

وقد عبّر مقاتل بن مِسْمَع عن هذه الروح الجاهلية التي كانت تحكم كل
هذه التصرفات . فقد كان يحظر الناس بأفصاله حين كان والياً على سحستان
وعندما أتى إلى البصرة سخط الناس له أرديتهم فشى عبيها فلأه الزهو فقال « مثل
هذا فليعمل العاملون »^(٩٢) .

وكان بدل المال في الحمر علامة من علامات الكرم في الجاهلية . وقد نصح
تحريم الخمر في الإسلام كحاحاً جزئياً - خاصة في البداية - في حمل معاقريها

٨٩ سُدُص ٩٤٦ ، ديوان الفرزدق ١/٣٧٧ - ٨ .

٩٠ اطر الباب الثالث ص ١٢٣ .

٩١ الأعماني ٩/١٩ ؛ وانظر ١٨/٢٠ - ١٩ لمارة أخرى

٩٢ العقد الفريد ٥/٣٣٣ .

على السرية في ممارستها. وظل بعض الناس ومنهم بعض الحاكمين يتعاطونها حقبة. أما أغلبية الشعراء فقد كانوا حذرين في تعييمهم بها. وقد أبرز أبو حنيفة التميمي التفاف الواضح في هذا المسلك حين هجا يزيد الأول بقوله :

أشربها صرفاً إذا الليل جنَّه معتقة كالمسك تختال في القلب
ويلحى عليها شاربها وقلبه بهم بها إن غاب يوماً عن شرب^{٩٣}

وبواضح أن أبا حنيفة في هجائه ليزيد كان معيماً بكشف حقيقة حاكم فاسد أكثر من عمايته باستهجان موضوع شرب الخمر في دانه الذي كان وسع الانتشار في مجتمعه المصري. وقد حظى بعناية الشعراء كالفردق وحارثة بن بدر، وأبي الهندي في فترة متأخرة وكان الطابع الذي يعلب على مسلك الحكام حيال شربها التسامح^{٩٤}. إذ ظل حاكم حزم كزياد على صلة وثيقة بحارثة بن بدر الذي كان لا يخفى إعجابه بشربها وبطرب في مدحها في شعره. وحين عوتب على ذلك قال :
و توهموني على حارثة فوالله ما تفل في مجلسي قط ولا حكت ركابه ركابي ولا سار
معي في علاوة نريح فعمر عي ولا دعوته قط وحتحت إلى تخشم الالتفات إليه
حتى يوازيي ولا شاورته في شيء إلا نصحتني ولا سألته عن شيء من أمر العرب
وأخبارها إلا وحدته به بصيراً^{٩٥}. وقد أتاح هذا التسامح ارتسمي هذا الشعر حرية
كبيرة للإغراق في شرب الخمر وللإطباب في مدحها وهجاء كل من ألح عليه
في تركها أو أسه عليها. فهو يصف أثرها في حيوية وعلان إصراره عليها في قوله :
أذهب عي لغمّ والهمّ والذي به تطرق الأحداث شرب المروق

٩٣ الأغاني ١٩/١٥٤ .

٩٤ مصر مدائن ٣٥٩ بقية واتبع من في سود الدم معنى إلى حدّ قننة من مسلم للإغراق في شرب
من شرب عيب

٩٥ لأغاني ٣٩/٢٦ - ٤٠ ، كامل المبرد ٣/١٩٠ - ١ ، انظر بلا ١٥٤ - ٦ دائرة المعارف الإسلامية
الطبعة الثانية مادة حارثة بن بدر .

فوالله ما أنفك بالراح مهترا ولو لام فيها كل حر موفق
سأشربها صرفاً وأسقي صحابتي وأطلب غرأت الغزال منطق^(٩٦)
وكان مولعاً بلوم عداله عليها وهجائهم. فيقول :

فلست عن الصهاء ما عشت مقصراً وإن لآمني فيها اللثام الأشائب
أترك لذاتي وآتي هواكم ألا ليس مثلي يا ابن قيس يخالب^(٩٧)
وحين نصحه قريبه الأحنف بن قيس بتركها قال له :

يذم أبو بحر أموراً أريدها ويكرهها للأريحي المسود
وإن كنت عيلاً فقل ما تريده ودع عنك شرابي لست فيه بأوحد
سأشربها صهباء كالمسك ريحها وأشربها في كل نادٍ ومشهد
ففسدت فصبح يا ابن قيس وخلني ورأيتي فما رأيي برأي مفند^(٩٨)
ومن الواضح أنه لم يكن الوحيد الذي يشربها علناً فقد قل هو عن ذلك :

سأشربها ما حج لله راكب مجاهرة وحدي ومع كل مسعد
وسعد ندماني وانبع شهوتي وأبذل عمواً كل ما ملكت يدي
كلنا العيش لا عيش ابن قيس وصحبه

من الشرب للماء القراح المصرد^(٩٩)

وقد دفعه كثرة العذل والنوم إلى استخدام أسلوب جدي يظن على كثير من
شعره الخمري. وقد سجل لنا هذا الخذل مع أحد هؤلاء العدال ويدعى محارقاً :

٩٦ الأعاني ٤١/٢١ .

٩٧ مث ٢١ ٢١ .

٩٨ الأعاني ٢٦/٢١ .

٩٩ مث .

غدا ناصحاً لم يأل جهداً مخارق
فقلت أبا صخر دع الناس يحجلوا
ترها إذا ما جاء حاصد جسمها
لها أرج كالمسك يذهب ريحها
وقال لصديقه أنس بن زُئيم ان جهله
بمزايها هو الذي حدا به للوم الشاعر
ودعاه ليختر لذتها بنفسه قائلاً :

يعيب عليّ الراح من لو يذوقها
فدعها أو امدحها فإننا نجبها
علام تذم الراح والراح كاسمها
فلمني فإن اللوم فيها يزيدي
وبالله أولى صادقاً لو شربتها
وان شئت جربها ودقها عتيقة
فإن أنت لم تخلع عذارك فالحني

واستخدم هذا الأسلوب الجدي لاثمه المنحاح أس لساق الذكر فقال له مرة :

فحتى متى أنت ابن بلر مخيم
فإن كان شراً فاله عنه ونجله
وان كان غنياً يا ابن بلر فقد أرى
وان كنت ذا علم بها واحتسانها
وصحبك يحسون الحليب من الكرم
لغيرك من أهل التخييط والظلم
سئمت من الإكثار من ذلك الغنم
فألك تأتي ما يشينك عن علم^(١٠٦)

ويلجأ حارثة إلى نفس المنطق الجاهلي في تبريره بذل المال في شرب الخمر

١٠٠ نضه ٤٢

١٠١ نضه ٣٨ ٩

١٠٢ نضه ٣٨ ٤ انظر ٣٣ ٤ ٣٤ .

معيداً إلى لادها كدمات مماثلة لطرفة بن العبد^(١٠٣) ويقول حارثة :

وقائلة يا حار هل أنت ممسك عليك من التذير قلت لها اقصدي
ولا تمري بي بأسداد فأسي رأيت الكثير المال غير مخلد
ولا عيب لي إلا اصطباحي قهوة متى يمتزجها الماء في الكأس تريد^(١٠٤)

وهو يرى في مسكه هذا عين الصواب ونذلك يحاطب الأحنف بن قيس بقوله :

فإني امرؤ عودت نفسي عادةً وكل امرئ لا شك ما اعتاد طالب
أجود بمالي ما حيت سماحة وأنت بخيل يجتويك المصاحب
قد أنت و ما عي من كان غاويًا إذ أنت لم تُسد عليك المذاهب^(١٠٥)

وكان تقديم الخمر لنضيوف سمة للكرم في الجاهلية وقد ظل كذلك في

مجتمع لبصرة^(١٠٦). فقد مدح سليمان بن عمرو البكري حارثة بن بدر بقوله :

فريت فأحسنست القرى وسقينا معتقة صهواء كلعنر الرطب
وواست فيما ملكت تبرعا وكنت ابن بدر نعم ذو منزل الركب^(١٠٧)
ومدح الفرزدق تيمياً شريفاً بقوله :

جمع الشواء مع القديد لضعفه كرمًا وبثني بالسلاف القرقف
من عاقر كرم الرعاف مدامة صهواء أشبهها دماء الرعف^(١٠٨)
وفي ثنائه على آخر يدعى دبكل يقول نفس الشاعر :

١٠٣ انظر معقته (شرح التبريزي) ٩١ .

١٠٤ الأغاني ٢٦/٢١ .

١٠٥ منه ٢٧ .

١٠٦ العبد الفريد ٨/٨ لحانة محددة .

١٠٧ الأغاني ٢٦/٢١ ؛ انظر رد حارثة عليها

١٠٨ ديوان الفرزدق ١٨/٢ .

شرت وبادمت الملوكة فلم أجد على الكأس دماً لها مثل ديك^(١٠٩)
 بيد أن الفرزدق لم يكن داعية للحمر مثلما كان حارثة بن بدر^(١١٠). والواضح
 أنه كان يلتذ لشربها ويتحاشى الرد على اتهامات جرير المتكررة عن سلوكه في
 هذا المجال. ويبدو أنه كان في هذا المسلك يعبر عن مسلك الكثيرين من معاصريه
 وقد وضح ذلك أبو الهندي أشهر شعراء الحمرة الأوائل في الإسلام^(١١١) حين قال
 في أواخر عهد بني أمية :

إذا صليت خمساً كل يوم فإن الله يغفر لي فسوق
 ولم أشرك برب الناس شيئاً فقد أمسكت بالدين الوثيق
 وجاهدت العدو ونلت مالاً يبلغني إلى البيت العتيق
 فهذا الدين ليس به خفاء دعوني من بنيات الطريق^(١١٢)

أما عدم اهتمام كثير من الأعراب بمقتضيات الشرع في تطبيق كثير من المسائل
 ولشواهد عليه قائمة في أفعالهم وأقوالهم. وقد مرّ بنا من قبل مسلك وكيع بن
 أبي سود في تمسكه بالعرف الجاهلي في العقاب بالسيف دون السوط^(١١٣). ويروون
 أن وكيعاً هذا حين علم أن قتية بن مسلم قتل عدداً من بني الأهم بجواسن لم يصل
 يومئذ الظهر ولا العصر ولا المغرب فقبل له : ألا تصلي يا أبا المطرف ؟ فقال : ما
 أصنع بالصلاة وقد قُتل من بني الأهم من قُتل لا يغضب لهم أحد لا من في الأرض
 ولا من في السماء ؟^(١١٤). وحين قتلوا قتية صعد وكيع المنبر فلم يحمد الله ولم يصل
 على النبي ، بل قال :

١٠٩ نفسه ١٥١/٢ .

١١٠ دائرة المعارف الإسلامية النسخة الثانية مادة الفرزدق .

١١١ الأغاني ٢٧٧/٢١

١١٢ نفسه ٢٨٠ ؛ انظر ديوان أبي الأسود ١٨٩ حيث يمدح النبيذ باعتباره بديلاً عن الحمر

١١٣ انظر الباب الأول ص ٤٠ هامش ٢٧ .

١١٤ التذنيص ٣٥١ .

من ينك العير ينك نياكاً

واستمر يقول :

أنا ابن خندف تنميسي قبائلها للصالحات وعمي قيس عيلاناً^(١١٥)

وهكذا كان من نتائج استعمار العصبية القبلية في البصرة استمرار كثير من المظهر الجاهلية وبقاء ذكرى كثير غيرها مما لم يعد له مكان في حياة العرب بعد الإسلام فاستمر الشعراء كما رأيت من قبل يتذكرون الأوثان والأصنام، وكان للمقكرة على الأسلوب الجاهلي مكانة عالية في الشعر القبلي، ففسان بن ذهيل هجا قوم جرير بقوله :

وما يذبجون الشاة إلا بعيسر طويلاً تناجيها صغاراً قدورها^(١١٦)
أما جرير فقد قال في معرض الفخر بقومه :

وجامعة لا يجعل السر دونها لأضيافنا والفائز الممتح^(١١٧)

وظل للكهانة والعرافة وزجر الطير والحيوان للفأ مكانها البارز في شعرهم. واستمرت كثير من خرافات العرب وأساطيرهم. وكثيراً ما ردّد الشعراء الخرافة الجاهلية التي تذهب إلى أن في دماء الأشراف والملوك الشفاء الناجز من الجنون والكَلْب^(١١٨). ففي الفخر بقومه يقول الفرزدق :

فما وحد الشافون مثل دماننا شفاء ولا الساقون من غسل النحل^(١١٩)
وقال البعيث وهو يفخر بنفسه وبقومه :

١١٥ سنة ٣٦٣

١١٦ سنة ٦

١١٧ سنة ٥٠٤ - ٥

١١٨ انظر منحول ٣٠٢

١١٩ ديوان الفرزدق ١٥٤/٢ ، الفائق ١٣٢ .

من الدارميين الذين دموهم شفاء من الداء المجنة والحل (١٢٠)

وكانت المباريات الغريبة تجري بينهم كما كانت تجري في جاهليتهم. وبعضها يجري في حضرة الأمراء كما حدث بين أعرايين أحدهما من تميم والآخر من الأزد تضارفاً عند خالد بن عبد الله فصرط الأزدي ضرطة ضئيلة، فقال لتميمي :

حبقت عجيبةً مجتلاً ولو اسني حبقت لأسمعت النعام المشردا
فرّ كمرّ المنجنيق وصوته يبدّ هزيم الرعد بدءاً عمردا (١٢١)

وضمنت احتيحات الحياة العربية لقاء بعض المعاملات التي حول الإسلام في بداية أمره نغص من شأنها ومن أهم ذلك ارتفاع شأن الشعراء الذين يولون المدح والاحتفاء عديتهم. وقد وصح لنا فيما سبق (١٢٢) أنه كان هناك ضرب من الإيذاء - يتخذ أحياناً شكل المقاومة - لقبول مزاعم الشعراء التقليدية حول مكانتهم في المجتمع وأثرهم على أفرادهم، ولجوؤهم إلى أساليب التهديد والترهيب لإخافة ذوي الحياء والمال فيبدلون لهم العطاء. وقد بين هذا المسلك ابن فسوة الشاعر البصري المحضرم الذي عرف بإخافة أشراف العراق ودفعهم للبذل خوفاً من معرة لسانه (١٢٣). فقد قال لابن عباس، وكان حينذاك أميراً على البصرة من قبل عليّ، وكان ابن عباس أغلظ عليه ورده :

أتيت ابن عباس أرجي نواله فلم يرج معروفني ولم يخش منسكري
وقل لبواييسه لا تدخلنه وسدّ خصاص الباب في كل منظر (١٢٤)

١٢٠ القلائص ١٣٨ .

١٢١ المحاط : الجيد ١٣٢/٤ ؛ انظر القلائص ١١ إلى مباراة في المجاعة وهي إخراج ما في النفس من

عاط، ذكرها جرير في شعره ؛ وانظر في تفصيل كل ذلك الزهيري ٢٣٨ - ٢٩٠

١٢٢ انظر الباب الثاني ص ٧٩ .

١٢٣ الأعني ١٤٤/١٩ : الباب الثاني ص ٧٩ .

١٢٤ ابن قتيبة، الشعر والشعر ٣٣٠/١ .

وكان دخل على ابن عباس فقال له: ما جاء بك يا ابن فسوة؟ فقال له: وهل عشت مقصر أو ورءك معدي؟ جئتك لتعينني على مروءتي وتصل قرابتي. فقال له ابن عباس: وما مروءة من يعصي الرحمن ويقول البهتان ويقطع ما أمر الله به أن يوصل. والله لك أعطيتك لأعينتك على الكمر والعصيان. اطلق فأنا أقسم بالله لك بلعي لك هجوت أحداً من العرب لأقطع لسبك. فأراد الكلام فنهه من حضر، وحسه يومه ذلك ثم أخرجه عن البصرة^(١٢٥). وقدم بعد ذلك على عبد الله ابن عامر بن كريز والي البصرة (٢٩ ٣٥ / ٦٥٠ - ٦٥٦ م) وكان جواداً فما استؤذن له عليه أرسل إليه: إنك والله ما تسأل بحسب ولا دين ولا منزلة وما أرى لرحل من قريش أن يعطيك شيئاً وأمر به فلكرز وهين. فقال:

وكائن تخطت نأقتي وزميلها	إلى ابن كريز من نحوس وأسعد
وأغبر مسحول التراب ترى له	خبأ طردته الريح من كل مطرد
لعمرك أني عند باب ابن عامر	لكالظي بعد الرمية المسترد
فلم أر يوماً مثله أن تكشف	ضبابته عني ولما أقيد ^(١٢٦)

فلما قوله ابن عامر فغذف لسانه وما يأتي به بعد هذا فرجع له وأحسن القوم رده وقالوا هذا شاعر فارس وشيخ من شيوخ قومه وليسير يرضيه فقال رده وأعطاه حتى رصي وانصرف^(١٢٧). ولسا في حاجة نكرر ما ذهبنا إليه من قبل من أن التطور في الظروف السياسية والاجتماعية قد أسهم إسهاماً كبيراً في ازدهار مثل هذا الشعر وتطوره^(١٢٨)

١٢٥ ذهاب ١٩ / ١٤٤

١٢٦ ص ١٤٥ .

١٢٧ الأعاني ١٩ / ١٤٥ .

١٢٨ انظر الباب الثاني

الفصل الثاني

تأثير الإسلام

ظلت الخنقية الجاهلية التي تركز عليها الحياة العربية في تعبير وتشكل مطردين تحت تأثير الإسلام والتحصن رغم انتعاش القبيلة التي كانت تخضع بدورها لتحويل هم لتلائم الظروف الجديدة^(١). وقد تتعثر هذه العملية أو تتوقف حين تضطرب الأمور في المصر، بيد أن ما يجب التنبيه إليه أن ما يتكبد من مظاهر حجة الجاهلية في مثل هذه الأحوال وإن كان مخالفاً لروح الإسلام لم يكن موحهاً لمعارضة الإسلام بقدر ما كان موحهاً لمعارضة السلطة التي كان الأعراب يرون فيها بالطبيعة انتقاصاً من حرياتهم وقبداً على حركتهم. فقد تقلل لعرب الإطار الإسلامي العام قاعدة يقوم عليها كيان المجتمع. ولكن تمثل قيمه وأهدافه وترسبها في العقول والأرواح أمر يصعب يحتاج لدراس الطويل لإيجازه. ومن ثم كان طبيعياً أن يسير الأعراب سيرتهم لأولى كما رأيت. ويمارسو كثيراً من أوجه نشاطهم القديمة داخل إسلامهم الشكلي.

وهذه الازدواجية في شخصية المجتمع يسهل ملاحظتها في سلوك الشعراء وفي
 نجاحهم. فمصورة النزاع والخموص في شخصية شاعر كالمزردق كما تحلت لنا حتى
 الآن من خلال كسماته وفعاله التي سجلتها آند. وكما تظهر في نقذات حرير
 وحمائه له. ولم يكن كل ذلك دائماً على غير أساس، يقدها ويخفف منها حاس
 آخر من نفس الشخصية تحف به مظاهر لتقوى وتعمه المشاعر الدينية. وقد بيع
 هذا الجانب في لحظة حاسمة من لحظات حياته مبلغ الأزمة الروحية بما دفع بالشاعر
 إلى السعي للانفلات من ماضيه وتوجيه كل طاقته لحياة جديدة مهيئة لتقوى
 والصلاح^(١) وفشله في متاعة هذا السعي يعكس التآرجح بين حدّي الاستقرار
 والتموصى الذي كان يحكم حياة البصرة في معظم الأحوال. وكان الشعر مقياساً
 لمرمته ومجتمعه بلغ من الحساسية حداً لا يمكنه معه الاستجابة للدوافع المختلفة
 بطريقة تحلف تحذات "عصر والمجتمع. فهو مثل مجتمعه. الذي كان ينفجر بين
 آونة وأخرى في محاولات يائسة ليرج عن كاهله مظاهر تسلط وليستعيد أصراً من
 حريته المفقودة، تتحلّى في شخصيته ضغوط التحول الاجتماعي وأزمته بطريقة
 تجعل منه نموذجاً مصغراً لمجتمعه. قد السيد المرتضى عنه: «نزع في آخر عمره
 عما كان عنه من لقفد ونفسق وراجع طريقة الدين. على أنه لم يكن في خلال
 فسقه مسلحاً عن الدين حملة ولا مهملاً لأمره أصلاً»^(٢) وروى عنه أنه كان
 يخرج من منزله فيرى بي نعيم والمصاحف في حجورهم فيسر بذلك ويجدل به
 ويقول إيه فدى لكم أبي وأمي كذا والله كان آباؤكم^(٣)، وذكر الرقاشي أنه
 خرج في ليلة باردة قل فدخلت المسجد فسمعت شيخاً وبكاء كثيراً فلم أعم
 من صاحب ذلك إلى أن أسمر الصبح فإذا المزردق. فقلت: يا أبا هراس تركت
 النور ليمة الدثار دفنة الشاعر. قل: إني والله ذكرت دنوبي فأققتني ففرمت إلى

٢ عصر العرب تشي.

٣ خزائن الأدب ١/٢٠٧.

٤ المرد: الكامل ٧٩/٢

به " ولما آتته بشكوة مع بحس نصري وقد كثرت في آخر حياته تشير
 كنه إلى هذا الاتجاه فقد قيل إن الحسن نصري كان مع محبوب له في سجن
 حاد نسري ولم يردو محبوب و ذكر الموت ، فقال الحسن ، ما عندك يا أبا فراس
 إن كان ذلك ؟ فقال : والله يا أبا سعيد لله حب إلي من سمعي ونصري ومن مالي
 وولدي ومن أهلي وعشيرتي أفتره يخدني ؟ فقال الحسن لا ^٥ وروى قصة لقاء
 آخر له معه في حارة النور ، وسقهما الناس ونظروهما فأقبلا وأقبل الناس يظنون
 فقال الحسن - ما لباس ؟ فقال : يظنون خير لباس وشر الناس . فقال : إني
 لست بحيرهم وأنت لست بشرهم . وقال له الحسن على قبرها : ما أعددت لهذا
 المصعب ؟ فقال : شهادة ن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة ^٦ وفي رواية أخرى
 منذ ستين عاماً وحسن حائلاً يذكر كى يعنى الصلوات الخمس ^٧ - فبرغم بعض
 التهمة أنه رضى في المنام فقال : عمر لي بالكلمة التي تازعي فيها الحسن ^٨ . وقد
 يكون بعض هذه الحكايات محنتاً ولكنها بالغة الأهمية لدلائلها على روح المجتمع
 ومزاجه في أواخر العصر الأموي .

وفي هذه المرحلة متأخرة فقدت كثير من القضايا المنتهية خاصة تلك المتعلقة
 بالهوس القلي حرارتها وجدتها إن لم نقل حاذيتها . إذ كانت علاقات الحديد
 التي تنطمت كيان مجتمع نعمق نحاسية وتعديها على نحو يسعد على تهديد
 المشعر وتشديدها ومن ثم تعمقت العواطف الاجتماعية والدنية . وأصبح الناس يظنون
 إن نشاط أيامهم السابقة عيب لذي كاد يطفى عليه النور وخموج في ضوء
 جديد من خلال منظور قرن كامل من تطور الاجتماعي وصارت مراحمات

٥ الأغاني ٤٧/١٩

٦ الكامل ٧٧/٢

٧ الأغاني ٤٧/١٩ .

٨ الكامل ٧٨/٢ - ٧٩

٩

تلك الأيام ومساقتها صرّاً من العث ولآثام في عيون الناس يسعون للتطهر من
دوبهم ويطلبون من الله عفاها كما يستدل من الروايات الأسطورية عن آخر
أيام الفرزدق .

ويستطيع الباحث أن يتبين مظاهر مماثلة في شخصية جرير الذي كان يقوم
مقدمه بتقيض من الفرزدق فيما يتعلق بالسلوك الشخصي، وهي حقيقة اعترف بها
الفرزدق ذاته^(١٠) وكان إيمان جرير ونقوده حقيقة نوه بها المقاد وأثروا عليها^(١١).
وكان أقل طواعية من خصمه في الاستجابة للعاطفة الطاغية كما يستشف من
درة تبرر هذا الفرق بينهما في وضوح وقوة. فقد روى أبو عبيدة أهمها حجاً ذات
عام فلما التقيا في منى بادر الفرزدق جريراً بقوله :

فإنك لاقٍ بالمنازل من منى فخاراً فخبني بما أنت فاعخر

فكان جواب جرير عليه «ليث ا انهم ليثك»^(١٢) بيد أن المقاد كانوا
يعتبرونه من أشد الناس هجاء^(١٣). ويبدو أن معاصريه كانوا يرون فيه نفس الرأي.
ودكروا أنه كان يحتم محله بالتسبيح فيطيل، فقال له رجل: ما يغني عنك هذا
تسبيح مع قذو الخصصت ؟. فنسم وقال: يا ابن أخي «خبطوا عملاً صالحاً
وأحر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم»^(١٤) بهم يا ابن أخي يبدو وفي ثم لا أحلم^(١٥).
وكن هـ شبيهاً بصنيع ذي الرمة الذي كان يشد الشعر فإذا فرغ منه قال: والله
لأكسعتك شيء ليس في حسالك: سبحان الله وبحمد الله ولا إله إلا الله والله

١٠ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٤٣٧/١ .

١١ انظر القفاص ٣٢ ، الأعاني ٣٨/٧ .

١٢ دعي ٥١٧ .

١٣ ابن قتيبة الشعر والشعراء ٤٣٧/١ .

١٤ سوه البوه ١٠٢ .

١٥ دعي ٥٦٧ .

أكبر . وكان حسن الصلاة وكان يقول إن العبد إذا قام بين يدي الله لتحقيق
أن يخضع (١٦)

ومن أوضح أن هذه العبارات التي تشير إلى الشائبة في شخصية هؤلاء الشعراء
وكثير غيرهم من معاصريهم لا تقف في مدلولها عند هذا العرض العابث لوجهات
بصرهم أو لسلوكلهم الشخصي، بل تتجاوز كل ذلك لتعبر عن طواهر في العصر
أعم وأشمل. فالتجارب جرير الشاعر «الخير» مع الفردق «شرير» المجتمع
لمصري في شاطئ لا يبقى فيه أحدهما من سلاح إلا ألقى به في الميدان ما يقرب
من أربعين عاماً، ثم دمههما عليه في نهاية حياتهما، كل ذلك يشير إلى قوة
العوامل الاجتماعية التي حددت هما خط سيرهما فتقوى حرير وتقوى محممه لم
تستطع مقاومة انطلاق العصبية القبلية من عقائدها. بيد أنه بنفس لقدر وبمحدود
هدوء الأحوال وانتظام حياة الاستقرار وتوفر الجو الصالح لتفتح العواصف الدينية
ولحضرية فإيه حتى شخصية التزعة كشخصية المرزوق تحس تغير لأحوال
وتسعى لتغيير خط سيرها لتقديم. ولم يبلغ المجتمع درجة التعادل الأخيرة التي طمى
فيها نمصر الإسلامي على لعنصر الجاهلي إلا بعملية شاقة ومؤلمة من عمليات
التكيف والتلاؤم جهد العرب فيها أنفسهم للتلاؤم مع ظروف حياتهم الجديدة .
ومن اليسير علينا أن نبين معالم هذا التطور كما تتجلى في الانتاح الشعري فلمح
تأثير الإسلام في ثلاثة مجالات هامة. فوجود الإسلام المادي كجزء لا يتحرأ من
ليئة الحسية أمد الشعراء بمدة غزيرة استفادوا منها في الوصف وإثراء الصور
شعرية (١٧). واستخدمت الأفكار الإسلامية. في المجال الثاني، لتعبر عن شؤون
لمجتمع وعلاقاته المعقدة فأصبحت العلاقات الإنسانية، كما يشهد بذلك نسيب
وعزل. تبرز في صوة حديد فالمسلم الذي يشعل ذهنه فكرة لإثمه والدب هو

١٦ نقه ١٢٨/١٦

١٧ سفصل القول عن هذه الفكرة في الباب السادس الفصل الثاني..

الذي يتحدث في بيتي جرير :

فإن التي يوم الحمامة قد صبا لها قلب تَوَّاب إلى الله ساجد
هلا تحمعي ذكر الذنوب لتجلي عليّ ومحزون المدلّ المباعد^(١٨)
وهو يحثكم إلى مشاعر محبوبته الدينية حين يقول لها في منسوبة أخرى :
فهلّا اتقيت الله إذ رعت محرماً سرى ثم نُقِيَ رحله فهو هاجع^(١٩)
ودو الرمة ندي يصف محبوبته وصفاً جاهلياً معرقاً في حسيته ويعبرها من
ملابسها ليبرر معاتر جسدها ويجعل الحب الذي وصفه دلتها على المدة الحسية
ينام معها في الظلام، ينهي هذا الوصف المثير بقوله :
تثّ الغنة التي علقنها عرصاً إن لكريم ود الإسلام يحث^(٢٠)
وفي تأمله في الحب يصدر هذا الشاعر حكمه :
لا لا رى مثل المحوى داء مسلم كريم ولا مثل المحوى ليم صاحبه^(٢١)
ولا يفتأ هذا الشاعر يصف طغيان عاطفة الحب بوحى من تجربته الدينية كما
يتجلى ذلك في بيته :

وأنصب وحيي نحو مكة بالضحى إذا كد من فوط الياالي سدا ليا
أصلي ف أدري إذا ما دكرت أشتين صبت بضحى أم ثمانيا^(٢٢)
وشكوى إلى الله من ألم الحب تتكرر في شعر جرير فهو يدعو الله قائلاً :
رغبت إلى ذي العرش رب محمد ليجمع شعباً أو يقرب نائياً

١٨ القناصر ٩٨٦ .

١٩ حقه ٦٨٦ .

٢٠ ديوان ذي الرمة ٦ .

٢١ حقه ٤٣ .

٢٢ حقه ٦٥٢ .

أذا لعرش اني لست ما عشت ترك^{٢٣} صلاب سليمي واقصص ما كنت فاصب^(٣٣)
ويصف الفرزدق ذكرى حبسته نأها غرور يصرفه عن صلاته. فبعد وصف
طيف محبوبته سلمى يقول :

فلما للصلاة دعا المنادي نهضت وكنت منها في غرور^(٣٤)

واستخدموا الإسلام وقصائده بتوسع في المدح واضعاء. فبالإضافة إلى ما ذكرناه
نصاً في معرض الحديث عن خنداء بني أمية وولاتهم. استخدموا الإسلام في حرية
وتوسع حتى في المفائض التي كان مسعها الأصل التراث الحذلي فالفرزدق لذي
اتهم بلحارث بن كعب باتباع اليهودية يفخر بقوله :

لا والذي هو بالإسلام أكرمنا وجعل الميت بعد الموت في النحن
ما كان ينبغي سي المدين مكرمة وم تكن لسي الديان من حسن^{٣٥}
وقال عمر بن لجأ الجريو :

ما استرذفت يوم الهذيل نساؤنا ولا قمن في صف لسجة سجدا
ولكن معدهس في الشرك بالقنسا وفي اسلم صدقا انبي محمدا^(٣٦)
وفي مدح العجاج يقوم العجاج :

فما قضى أمراً ولا أحارا في الحرب إلا ربّه استخارا^(٣٧)
ويظهر لإسلام في هذه أيضاً بطرق مختلفة. فالفرزدق يهجو طيئاً بقوله :
وما يرث طائفة من ختانها ولا وجدت في مسجد الدين صلّت^(٣٨)

٢٣ ديوان جريو ١٧٤ ، وأخر ١٧٣ .

٢٤ ديوان الفرزدق ٢٨٣/١ .

٢٥ ديوان الفرزدق ٣٤٧/٢ .

٢٦ ابن سلام ٣٦٦ .

٢٧ ديوان العجاج ٢٣ .

٢٨ ديوان الفرزدق ١١٥/١ .

ويهجو رؤية خصوم قبيلته ثم بقوله :

إن تمياً تبلى بأقوام

ليسوا بأخوال ولا بأعمام لنا إن اهتز الشبا في الأشطام

لا يتوقون حدود الإسلام من رقة الدين وبُعد الأرحام

أحبب أحزاب وشر أحزام ناصرهم من فاسق وخدّام^(٣٩)

وفي هجاء البعث يقول جرير :

وإذا انتحيتكم جميعاً كنتم لا مسلمين ولا عليّ كراما^(٤٠)

وكثيراً ما يشير جرير إلى القرآن ويفضح عجز من يهجوهم عن حفظه وتلاوته. ويتحدث عن سَكِينَة عمة الفرزدق في سخرية قاسية قائلاً :

قامت سَكِينَة للفحول ولم تقم نت الحنت لسورة الأنفل^(٤١)

ويقول عن الفرزدق والبعث :

إنَّ البعث وعبد آل مقاعس لا يقرآن بسورة الأحجار^(٤٢)

ويهجو الفرزدق بقوله :

لحي الله الفرزدق حين يمسي مضياً للمفصل والمشائي^(٤٣)

ولا يفتأ يتناول فسقه وتهتكه بالتقريع والفضح فيقول :

وما كان جار للفرزدق مسلم ليأمن قرداً ليله غير نائم

تيت حدود الله مد أنت يافع وشبت فما ينهاك شيب اللهازم

٢٩ ديوان رؤية ١٣٧

٣٠ بدئص ٤٠

٣١ الفائق ٣٢٢

٣٢ نفسه ٣٤٠ . سورة الأحجار سورة براءة والإشارة إلى الوفاء بالعهد فيها

٣٣ ديوان جرير ٤٥٩ .

تتبع في المحور كل مريسة وست بأهل المحصات كثرتم^(٣٥)

أما المجال ثلث الذي وصح فيه تأثير الإسلام فيشمل التماذج لعديدة في إنتاج الشعراء التي يبرز فيها العصر الديني كتحركة مباشرة أو كعامل حثيف مظهر النسوة لشخصي وتتحى التحركة الأدبية في قوة ووضوح في شعر العجاج الذي يقتصر اهتمامه فيما عد ذلك على الموضوع السدوية. فهو يعرّد قصيدة رجزية كاملة من واحد وسبعين شطرة^(٣٦) لوصف لحظة حاسمة في حياته عجب عجب فيها المرحص ورئيس أهله من شقائه ولكن رحمة الله تداركته في النهاية ونجا من الموت. وهو بالإضافة إلى تخصصه من المقدمة المطلوبة التقيدية وبداها بمقدمات ديبية في كثير من مضامعه^(٣٧). شديد لإحساس بعقيدته حتى حين يعالج المواضيع التقيدية من فخر قبلي وخلافه. فقد بدأ إحدى مقطوعاته التي يفخر فيها بقومه ثميم بقوله .

تا الله لولا أن تحش الطبخ بي الجحيم حين لا مستصرخ
في دحل النار وقد تسلموا لعلم الجهال اني مفتح
لها مهم رضىه وأنقح أمّ الصدى عن الصدى وأصم^(٣٨)

وفي مقموعة أخرى يدعو الله أن يغفر له دنونه قبل الشروع في تفخر
يا رب رب البيت والمشرق والمرقات كل سهب سملق
إياك أدعو فتقبل ملقي فاغفر خطاياي وثمر وري
إنا إذا حرب غدت لانتقي ديناً ولا مستأخراً لم يلحق^(٣٩)

٣٤ انقاض ٣٩٦

٣٥ د - معج ٥ - ٧

٣٦ مصر لرب السدوية قصيد ٥٠

٣٧ د - معج ١٤

٣٨ د - معج ٤٠

وسنخدمه رغبة نفس الأسوب. فقبل أن يمدح مسلمة بن عبد الملك
(ت ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م) يعترف بأخطائه ويسأل الله المعصرة فيقول :

يا رب إن أخطأت أو نسيت فأنت لا تنسى ولا تموت
إن الموقى مثل ما وقيتُ أنقذني من خوف ما خشيت
ربي وإلا دفعه ثويت فالجدّ أغشاني الذي غشيت^(٣٩)

وروح إسلامية صادقة يقول رؤية لعدله قبل الفجر بقومه تميم :

فأيها الغاشي القذاف الأتبع

إن كنت لله التقى الأطوعا فليس وجه الحق أن تبدعاً
وقد أراك الله حقاً مقنعاً ما كالتقى راد لمن تمتعاً
وخير ما ورّع حلم ورعاً ذا الحلم أن يأثم أو أن يطبعاً
وإن مُسيء بالخبا ترعاً فالترك يكفيك اللثام الكعاً^(٤٠)

ويلجأ العجاج لهذه الأفكار حتى في تصويره لحيوان الصحراء. ففي إحدى قصائده يختتم وصفه بقوله :

يا رب لا أدري وأنت الداري كل امرئ منك على مقدار
أعابران نحن في العبار أم غابران نحن في الغبار^(٤١)

وفي قصيدة أخرى يبدأ وصفه للإبل بقوله :

يا رب أنت تحير الكسيرا وترزق المسترزق الفقيرا
أنت وهبت هجمة جرجورا أدمأ وعيساً مغطاً خجورا
لم تعط في عطائها تكديرا خزاية ولم يكن مبهورا

٣٩ ديوان رؤية ٢٥ .

٤٠ ديوان رؤية ٨٧ - ٨ .

٤١ ديوان العجاج ٢٦ .

ولا كراء يقطع الظهوراً ظَلَّتْ تُصَادِي يَوْمَهَا الْحَرَّوْرًا^(٢٢)

وكان رؤية حريصاً حتى في تصوير طيش الشباب ألا يتعدى الحدود المشروعة:

رأيتك والشيب قناع المقت	نحول جُسماني كما نَحَلْتُ
وَحُشْتِي بعد الشباب الصلت	أزمان لا أدري وإن سألت
ما نُسْك يوم جمعة من سبت	أُعِيدُ لا أحفل يوم الوقت
كحبة المساء جرى في القلت	إنساً وجنباً كما وصفت
أركب ما دون القصور البُحْت	فَالْ أُولَى واستقام سَمْتِي ^(٢٣)

وكان واضحاً في حديثه عن العفة في خطابه لإمرأة:

وإن نحالجب لعبون لظُلُوعاً	أتيت من ذاك العفاف الأورعاً
كما أتقى محرم حُجج أَيْدِعاً	إذا امرؤ ذو سوء تهقعا
أو قال أقوالاً تقود الخُجْعاً	من خالبت يختلن لخُضْعاً
فقد رى لي من حلالٍ مَشْرَعاً	كَمُسْتَهْنٍ التلح عذباً مفعلاً ^(٢٤)

فهذه اللمحات، وإن كانت مبتسرة، تشير إلى السمة الإسلامية الغالبة على وعي المجتمع البدوي في البصرة. ولئن كان من الصعوبة بمكان تحديد عمق المشاعر التي تسري في ثأيا هذه التجارب الدينية الشعرية. خاصة في إنتاج أولئك الشعراء الذين يوجهون كل إبداعهم لتصوير الحياة العربية التقليدية في جوانبها المختلفة، إلا أننا - وإن خالها الشك في صدق بعض نظمها - نقدها على أقل تقدير كنعكاس صحيح للمجتمع أو لذلك الجزء من المجتمع الذي يمثل هؤلاء الشعراء العنصر البدوي في مجتمع البصرة. ولئن كانت نسبة العناصر الإسلامية القليلة من الناحية العددية في شعرهم من جانب، وغلبة المواضيع التقليدية كالهجاء

٢٢ نسخة ٢٤

٢٣ ديوان رؤية ٢٣ - ٢٤

٢٤ نسخة ٨٨

والندح ووصف لحيوان والصحراء وما إليها على هذا الشعر من جانب آخر لا يبرزان إصدار أي أحكام عامة عن غلبة الحياة الجاهلية على التكوين الإسلامي للمجتمع، فليس من الشطط أن نذهب إلى أن هذا الضرب من الشعر يعصره يمثل حداً أقصى من طرفي الميزان الاجتماعي حيث تلبث العناصر التقليدية خاصة في أوقات الاضطراب والثورة وتسمى لما الوقوف على صورة أقرب للمواقع لحياة المضرة نعدسة دون وضع ما كان يحدث في الطرف الآخر من نفس الميزان الاجتماعي في الاعتبار. وأعظم لمعبرين إبانة عن التحول الاجتماعي هنا هم شعراء الحجاز فرغم ثورتهم على الجماعة الإسلامية فإن شعرهم يبرز روح التطهر وتقدير النبي في أسوأ صورته. وكانت ثورتهم على الجماعة السياسية رابعة مما ضوّه مثل هذه الجماعة في الارتقاء إلى مستوى المثل الإسلامية وما تتطلبه من شهادة في عرفهم. ومن هنا نلاحظ أن لعنصر الإسلامي في بعضهم يدل أن يراوح لعنصر التقليدي في شخصية الواحدة، ويعيش معه حناً إلى حب. ينور عليه ويصارع. والتقية التي هي أساس النظام الاجتماعي لا تجد من بعض شعرائهم سوى الهجوم وتشريع وذهب عيسى بن عنت الحظي إلى أن أهل الإسلام محلها في المعحر حين قال :

أي الإسلام لا أب لي سواه إذا فخرُوا بيبكر أو تميم
كلا الحين ينصر مدعيه ليلحقه بذئ الحسب الصميم
وما حسب ولسو كرم عروق ولكن التقى هو الكريم^(٤٥) (٤٦)

وهذا بيت الأخير يمثل مقارقة واضحة حين تقارنه بقول أبي الأسود لدؤلي :

وخير خبيء في امرئ عند موطن إذا جامع الإسلام - مجد عروق^(٤٧)

٤٥ اطر سورة الحجرات الآية ١٣ .

٤٦ شعر الحجاز ١٣ ، اطر Watt, Integration, 100.

٤٧ ديوان أبي الأسود ١٦٥ .

ولئن استعمل عمران بن حطان النداء بقلي حبر استعمال واستعمل به في هرويه من الحجاج وقال في ذلك :

بوماً يمان إذا لاقيت ذا يمين وإن لقيت معدياً فعدناني^(٤٨)

فقد عثر في كثير من شعره عن تفزذه من العصبية القلبية لبي تصعبها كثير من القائل فوق كل قيمة. وقد في قصيدة مدح فيها جماعة أردية أكرمه :

وأصبحت فيهم آمناً لا كمعشر بدوني فقالوا من ربيعة أو مضر

و أحبي قحصن وتث سهاة كما قل لي روح وصاحبه رفر^(٤٩)

وما منهم إلا يسر بنسبة نصيرني منهم وإن كان ذا نفر

فنحن بنو الإسلام والله واحد وأولى عباد الله بالله من شكر^(٥٠)

وكانت ثورتهم على لأوضاع السائدة في مجتمعاتهم قد شجعت حاستهم النقدية فعدت بصيرتهم في أدواء مجتمعاتهم، وكثيراً ما قارنوا بين واقع الحال البئس وظلماتهم المثلية. وإلى جانب قدومه العنيف للإدارة الأموية تناولوا كثيراً من المظاهر الاجتماعية التي يحرص عليها معصرهم بالفضح وفحوم. ولا يفوتنا أن نلاحظ في هذا الشعر انشائي مسحة الزهد نواضحة خاصة في شعر عمران بن حطان الذي وصفه الآمدي بأنه شعر الناس في الزهد^(٥١) وكان لبعض الأمور إليه شره من حونه من الناس وتكلمهم على ماض الحية. ولا يمتأ يذكروهم بطلان مسعدهم. لأن الموت عذبة كل هذا الجهد الضائع :

٤٨ شعر الحوارج ٢٣ ؛ الأغاني ١٦/١٥٣ ؛ كامل المرد ٨٥/٧

٤٩ روح بن - ح الحداشي ورفر بن الحارث الكلاني شيعان لجأ إليهما الشاعر في هرويه من الحجاج فأكرما وودته وكان متكررا مسجوب لا يعرفه .

٥٠ لا ١٥٤/١٦ ؛ وانظر شعر الحوارج (تحقيق إحسان عباس) ٦٤ ؛ ٧٤ لقطوعات أخرى لشعراء حوارج بمدحون العصبية القلبية .

٥١ المؤتلف والمختلف ٩١ رقم ٢٤٥ (وتحقيق فراح ص ١٢٦) .

وليس لعيشنا هذا مهاه وليست دارنا هاتا بدار
أرانا لا نملّ العيش فيها وأولعنا بحرص وانتظار
ولا تبقى ولا تبقى عليها ولا في الأمر نأخذ بالخيار
وما أموالنا إلا عوار سيأخذها المعير من المعار^(٥٢)

ومثل هذا المسعى الباطل لا ينجذع الأريب الذي يطرد الأوهام ولا يستكين
للأحلام، وعمران حريص على طرد الأوهام فهو ينصح ويحذر حين يقول :

حتى متى تسقى النفوس بكأسها ريب المنون وأنت لاه ترسع
أفقد رضىت بأن تكلل بالمشى وإلى المنية كل يوم تدفع
أحلام نوم أو كظلّ زائل إنّ اللبيب بمثلها لا ينجذع
فترودنّ ليوم فترك دثباً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع^(٥٣)

ونكر أعبية البشرية الذين يصفهم بالأشقياء لا يملّون ملذات الحياة مهم
بلغت من الخواء والقصر، وهو يعلم ذلك :

أرى أشقياء الدس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجسّع
أراها وان كانت تحبّ فانها سحابة صيف عن قريب تقشع
كركب قضوا حاجاتهم وترحبوا طريقهم ردى العلامة مهيع^(٥٤)

ولهذا فقد كان للموت مكان بارز في شعره، فقد قال مرة لزوجه :

إن كنت كارهة للموت فارتحلي ثم اصلي أهل أرض لا يموتوا
فلست واحدة أرضاً به بشر إلا يروحون فواحاً ويغدونا^(٥٥)

٥٢ شعر الحوارح ١٨ رقم ٣١ .

٥٣ ص ١٧ رقم ٢٩ ؛ انظر الذهبي : تاريخ الإسلام ٢٨٤/٣ .

٥٤ الذهبي ٢٨٤/٣ ، شعر الحوارح ١٧ - ١٨ رقم ٣٠ ؛ وانظر أيضاً ص ١٩ رقم ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

٥٥ شعر الحوارح ١٦ رقم ٢٧ .

وئن كان موت صديقه وزعيمه أبي بلال مرداس بن أدية من أعنف لصدّات
 نبيّ منيت بها حياته العاطفية، كما منيت بها حياة كثيرين من أصحابه، ولا
 بد أن يكون ذلك قد ترك آثاره العميقة في وجدانه وعمق من إحساسه بحقيقة الموت
 ودفعه إلى الإغراق في التحدث عنه في عاطفة قوية وإحساس يقظ^(٥٦)، إلا أن
 الموت كموضوع حبيب إلى نفسه كان يفيض طبيعياً من نظرته للعالم كوجود مرحلي
 رثل خاو لا يبقى فيه شيء حتى الموت. إذ لموت الذي يهني كل شيء ينتهي إلى
 لا شيء. فهو يقول :

لا يعجز الموت شيء دون خالقه والموت فإن إذا ما ناله الأهل
 وكلّ كرب أمام الموت متضع للموت، والموت فيما بعده جبل^(٥٧)

ولمكون إلى مثل هذه الحياة الحاوية الفارعة اعتراف بفقدان الثقة بالله الذي
 لا حدود نقصه ولا قيود^(٥٨) وهو ضعف يفسح المجال لكثير من العزل الاجتماعية.
 ولوضع أن عمق مشاعر هذا الشاعر ردّ فعل طبيعي لانعماس مجتمعه بنصري في
 لدات الحياة الدنيا وأغراقهم في الاستمتاع بها. فحين مرّ الشاعر بالفرزدق وسمعه
 ينشد قصيدة في المدح قال له :

أيها المادح العباد ليعطي أن لله ما بأيدي العباد
 فاسأل الله ما طلبت إليهم وأرج فضل المقسم العباد
 لا تقل للجواد ما ليس فيه وتسمي البخيل باسم الجواد^(٥٩)

ولكن الفرزدق لم يكن وحده الذي يضرب ما بأيدي العباد ويسعى للحصول
 على قدر من ثراء الدس. فذلك كان شأن الجنّ الذين يكسبون عيشتهم من الدولة

٥٦ نفسه ١٦ - ١٧ ، كامل المرد ٨٢/٧ - ٨٣ .

٥٧ الأغاني ١٦/١٥١ ، شعر الخواص ٢٨ رقم ٥١ ، انظر ٢٨ رقم ٥٢ ، ٣٠ - ٣١ رقم ٥٧

٥٨ انظر أبيات حروة بن أدية ص ٢٧٤ أدناه .

٥٩ الأغاني ١٦/١٥٦ - ٧ ، كامل المرد ١٨٥/٥ .

مقدس قلبهم الآخرين فقد سمع عمران بعض لحد يقولون: ولم لا نقاتل الخوارج؟
السنا نزال أعطياتنا في حينها؟ فقال في سخريه:

فلو بُعثت بعض ليهود عيهم يؤمهم أو بعض من قد تنصرا
لقالوا رضينا إن أقمنا عطاءنا وأجريت ذلك القرض من بر كسكرا^{٦٠}

وكان يشارك الخوارج تقواهم وإيمانهم عدد من القراء والمقصاص الذين كان
لنشاطهم فصل كبير في تحف حدة جموح العناصر البدوية في مجتمع ونقض
آدبه المدمرة ولش لم يسجل لنا شعر كثيراً من موقفهم وأوجه نشاطهم في
تأثيرهم على بعض الشعراء واضح^{٦١}. فتأثير نحس البصري على الفرزدق يشهد
له ما رواه ابن سلام من أن اشاعر أتى الحسن فقال إني قد هجوت إبليس فسمع.
قل لا حاجة لنا فيما تقول. قال. لتسمعن أو لأحرزن فأقول للناس: الحسن
ينهى عن هجاء إبليس فقال لحسن: اسكت فإنك عن لسانه تتكلم^{٦٢}. ولكن
الحسن اضطر إلى سماع الهجاء الذي يقول فيه:

أطعتك يا إبليس سبعين حجة	فلما انتهى شبي وتم نمامي
فررت إلى ربي وأيقنت أنني	ملاقٍ لأيام المنون حامي
ولما دنا رأس التي كنت خائفاً	وكنت أرى فيها لقاء لزام
حنفت على نفسي لأجتهدنّها	على حالها من صحة وسقام
ألا طال ما قد بت يوضع نسائي	أبو الجن إبليس بغير خطام
يظل يمني على الرجل واركأ	يكون ورائي مرة وأمامي
يبشرني أن من أموت وآله	سيخلدني في جنة وسلام

٦٠ شعر الخوارج ٢٠ رقم ٣٥، انظر: الموت، معجم البلدان مادة كسكرا.

٦١ سبب الكلام عن ذلك في الباب السادس الفصل الأول.

٦٢ طبقات فحول الشعراء ٢٨٤، الأعاني ١٤/١٩، ٣٣.

فقت له هَلَّا أُحْيِكَ أخرجت يمينك من خضر البحور صوم^{٩٣}
ثم بشرع في تصوير خداع إبليس لأخيه فرعون وكيف خذله وتخلّى عنه بعد
أن أعرقه في البَم، ويتحدث عن إعرائه قوم ثمود على عقر الناقة. وعن حديعته
لآدم وحواء حتى طردهما من الجنة، ويختم ذلك بقوله :

مكم من قرون قد طاعوك أصبحوا أحاديث كانوا في طلال غمام
وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي رضاه ، ولا يفتادني بزمام
سأحزيبك من سوءت ما كنت شفتني إليه حروحا فيث دات كلام^{٩٤}

والتأثير الكبير الذي كان للحسن ولوعظ عامة على الفرزدق له شاهد آخر
في ذلك اللقاء الذي رُعموا أنه تم بين الحسن والفرزدق في حذرة لُوار أو جنازة
عطارد في رواية أخرى فبعد أن انتهت مراسم الدفن وعط الحس لباس وأنذرهم
ولما فرغ وقف الفرزدق على حلقة الناس وقال :

لقد خب من أولاد آدم من مشي بن النار معلول تقلادة أرقا
أخاف وراء القبر إن لم يعافني أشد من القبر التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد عنيف وسواق يقود الفرزدقا^{٩٥}

والتأثير القصاص وصح أيضاً على الشعر الرجاز وسفصل القول في ذلك في
الاب التالي. ويكفي أن يشير هذا إلى أننا ملخص فصلاً عن الموضوعات الدينية
المختلفة التي يفيض بها شعرهم. ادهصت نفس الشعر لتعيمي في بعض مقطوعاتهم
ودئت ناجم بالضع عن احتلاصهم بالقصاص وتأثرهم بهم. وأظهر ما يكون ذلك
في شعر العجاج خاصة في مقطوعته التي يصور فيها تصوّره ليوم الحشر :

٩٣ ديوان الفرزدق ٢/٢١٣ .

٩٤ نسخة ٢١٤

٩٥ الأحمدي ٤٧/١٩ ، ديوان الفرزدق ٢/٣٩ .

أليس يوم سمي الخرج وجا أعظم يوم رجّة رجوجا
يوم ترى مرضعة خلوجا وكل أنثى حملت خلوجا
وكلّ صاح ثملاً مَرُوجا ويستخف الحرم المحجوجا
ويهتك السماء والبروجا حتى ترى أديمها مضروجا
ويأمر البحار أن تهيجا وذلك يوم مُفْرج يَأْجوجا
ومطلع من ردمها ماجوجا وذلك صار أمره شريجا
فداخلون جنة بهيجا وشاربون عسلاً مزيجا
بماء مزن بارداً مثلوحا وصارخون ضجّة ضحوجا
نسمع للنار بهم أجيجا^(٦٦)

وقد روى يونس عن رؤية عن أبيه العمّاح قال شُدت أبا هريرة :
الحمد لله الذي تعلّت بأمره السماء واستقلت
بإذنه الأرض وما تغيت أرسى عليها بالجمال الثبت
الباعث الناس ليوم الموقت

فقال أبو هريرة: أشهد أنك تؤمن بيوم الحساب^(٦٧).

وكن تأثير هذه المجموعات الدينية لم يكن دائماً بهذا السمو فتجربة دي
الرمة مع بعضهم لم تكن فيما يبدو تجربة طيبة لوقع في نفسه إذ قال في هجئهم :
أما النبيذ فلا يدعرك شاريه واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
قوم يُوارون عما في صدورهم حتى إذا استمكوا كانوا هم الداء
مشمرين إلى أنصاف سوقهم هم اللصوص وهم يدعون قراء^(٦٨)

٦٦ ر ٧ - المعجم ١١ رقم ٦ - وقد عالج نفس الموضوع عمرو بن حطان الجاحي في قصيدة مؤرّدة من سنة

عشر بيتاً ، انظر شعر الخواص ٣٠ رقم ٥٧

٦٧ الأعاني ٨٥/٢١ .

٦٨ ديوان ذي الرمة ٦٦١ .

الفصل الثالث

المظاهر الحضريّة

في حين كان انصرع الطويل يدور في غير تراخ بين التجاهي الجاهلية والإسلام في صورتيه اثنوية وتنطورية كانت عجة الحياة اليومية تدور على محور يكفل كسر قدر من الاستقرار الاجتماعي يمكن توفره في مثل ظروف الاضطراب السياسي والاجتماعي التي كانت تسود مجتمع البصرة. وقد ساعد تحضر المصير الحثيث وسياب فيض الثروات الضخمة من المناطق المفتوحة إليه على إرساء قواعد الحياة المدنية على أساس سليم قوي م ترحج منه غارات الحوارج المتصلة ولا حروب القبائل المتكررة^(١). وكان هذا التطور المدني وما لارمه من قضايا خاصة بتوزيع السلطة وثروة يفرض معاييرها الخاصة وبمجيئها تدفع معينة من السلوك إن لم تحط كلها بالتسجيل الواقعي في الشعر فقد تجلّت مظاهرها العامة فيه :

وكان أهم عام من متغيرها هو تصوّر سلطة الدولة إلى أداة ضخمة معقدة للإلزام ونقهر من جانب. وللإثراء والجاه من جانب آخر. وقد قرّر لعرب بأن

مجد ولسؤدد في الحاحلية كما في الرئاسة أما في الإسلام فقد صدر في نولاية^(١)
وقد أشار ابن مفرغ إلى ما يصبغه المنصب من قوة واحترام على مغموري الرجل
وذلك في كلمته التي هجا فيها عميد الله بن زياد حين قال :

فكّر فني ذاك إن فسكت معتبر هل نلت مكرمة إلا بتأخير
عاشت سمية ما تدري وقد عمرت أن ابنها من قريش في الجماهير^(٢)

وكرر معيار قوة الدوة الخوف الذي يثيره منظر لشريطي في قلوب الناس كما
تشهد بذلك قصة المرزوق إذ كان جالساً بالبصرة أيام ريادة في سكة ليس لها منفذ
فمر به رجلان من قومه كانوا في شرطة وهما راكبان فقل حدهما لصاحبه هل نلت
أن أفرعه، وكان جبياً، فحرّكا دابتيهما نحوه فأدبر موباً فغثر في طرف برده
فشقه وانقطع شمع نعله وانصرفا عنه وعرف أنهما هزءا منه فقال :

لقد خار إذ يجري عليّ حماره ضرار الخنا والعنبري ابن اخوقا
وما كنت لو خوفتاني كلاكما بأميكما عن بانين لأفرقا
ولكنكما خوفتاني بخادر شتم إذا ما صادف القرن مزقاً^(٣)

وقد وجد نفسه في موقف مدمش وكان يحشى الشرطة^(٤) وقد أبأت امرأة عادية
هي السهاء روح اعجاج عن ححتها في تدرعها بالصبر مع زوجها الشيخ، فقد
كانت خشية الأمير هي التي تردعها عنه :

والله لولا خشية الأمير وخشية الشرطي والأثرور
جلّت بالشيخ من البقير كجولان صعبة عسير^(٥)

٢ المردة الكامل ٦/٣ .

٣ لأعني ١٧/١٧ .

٤ بقه ٢٥/١٩ .

٥ خائف ٣٢ .

٦ ديوان اعجاج ٧٧ .

وكانت صحة الأمير سيلاً إلى كثير من المدفع ومن ثم سعى الدس بالاتصال به. وأصبح القرب من ذوي السلطة مجالاً واسعاً للفخر. قال جرير
أصبحت عند ولاة الأمر أثبتهم فلحاً وأبعدهم غلواً إذ برعوا^(٧)
وكما عزّ حاسب الأمر وعظم قدره كان ذلك أفضل للشاعر. وقد وضّح ذلك ذو الرمة حين هجا مروان بن أبي حفصة بقوله :

عطايا أمير المؤمنين ولم تكن مقسمة من هؤلاء وأولائك
وما نلت حتى شئت إلا عطية تقوم بها مصرورة في رداك^(٨)
ومقام الفرد يقدس بمقدّر نجاحه في الوصول للأمير كما يبرّ ذلك ذو الرمة في قوله :

قرب أمير يضرق قسم عمده كما يضرق الخمران من ذي المحالب
تحضّيت باسمي عمده ودسيعتي مصدريع أبواب علاط الملك^(٩)
وفي فخره بأبيه العجاج يقول رؤبة :

قد رفع العجاج ذكراً فادعني دسم إذا الأسباب طالت يكفني
فنعم داعي الوالج المستأذن ألي إذا استغلق باب الصيدن^(١٠)

ولكن السرعة التي كان الحلفاء ولأمرء يتتابعون بها كانت تترك آثارها على المستمعين من ذوي السلطان، إذ سرعان ما تتعب حطوطهم بتغير ذوي نعمتهم. وقد أشار إلى ذلك جرير في كلام وجهه إلى واحد من ذوي الخطوة عد الخليفة طلياً منه التشفع له أمام الخليفة. قال جرير :

٧ ديوان جرير ٢٧٧

٨ ابن وشيخ: العمدة ٨٤/١ - ٥ .

٩ ديوان ذي الرمة ٥٧

١٠ ديوان رؤبة ١٦٠ .

يا أيها الرجل المرخي عمامته هذا زمانك، إني قد مضى زمني
 أسع خيفتنا إن كنت لأقيه إني لدى الباب كالمصفود في قرن^(١١)
 وكنت فوائد الأمير محصورة في معظم الأحوال في أقاربه وحاشيته. وكانت
 الحجة شائعة وقد أكثر الشعراء من الحديث عنها. فابن فسوة حين طرده ابن عباس
 من نبصرة لمح إلى علاقة الحاكم بآل رهران الذين تزوج إلى إحدى بناتهم.
 وقال ساخراً :

هو كنت من رهران قضيب حاجتي ولكنني مؤل جميل بن معمر^(١٢)
 وقد عبر الفرزدق عن نفس الفكرة في هجائه لخالد القسري^(١٣) .
 بيد أن الأمير الذي بيده تصريف الأموال عامة والعطاء خاصة كان يمكنه
 صعب على معارضيه وإلحاق الضرر بحصومه. وقد عايش حرير تجربة هذا الضرر
 حين قصع عنه أحد نعمان ويدعى ابن سعد عطاءه في أيام عمر بن عبد العزيز .
 فقال في ذلك :

حرمت عيالاً لا فواكه عندهم وعند ابن سعد سكر وزيب
 وقد كان ظلي ناس سعد سعادة وما الظن إلا مخطيء ومصيب
 فإن ترجعوا رزقي إليّ فإنه متاع ليلٍ والأداء قريب
 تحي العظام الراجفات من البلى وليس لبدء الركبتين طيب^(١٤)
 ولكن الأمراء كانوا يستخدمون العطاء في معظم الأحوال أداة لترغيب. فاستغله
 زيد لحمل الفرزدق على الرجوع بعد أن فر منه. فقدم لفرزدق في ذلك .
 دعاني زياد للعطاء ولم أكن لأقربه ما ساق ذو حسب وفرا

١١ ديوان حرير ٤٨٦ .

١٢ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٣٣٠ ؛ انظر ص ٧٩ ، ٢٤٧ أعلاه .

١٣ انظر الباب الرابع ص ١٩٢ .

١٤ العقد الفريد ٧/٣٠٥ ؛ كامل المبرد ٦/٤٦ .

وعند زياد لو يريد عطاءهم رجال كثير قد يرى بهم فقرا
 فعود لدى الحاجت طلاب حاجة عون من الحاجات أو حاجة نكرا^(١٥)
 واستغله بعض الأمرء بطريقة غير مشروعة لخدمة بعض أصفائهم^(١٦).
 ولكن ذلك م يكن ليفوت على الناس كما رأينا حين نقل زياد ديوان صديقه
 حارثة بن بدر التميمي إلى ديوان قريش فسخر من ذلك شاعر من بني كليب
 في أبيات سبقت الإشارة إليها^(١٧). ولجأ الناس إلى شتى الأساليب والحيل لتأثير
 على من في السلطة لزيادة أعطياتهم. روى العتبي قل أجرى الوليد بن عبد الملك
 الحيل وعنده حارثة بن بدر وهو حينئذ في ألف وستائة درهم من العطاء فسبق الوليد
 فقال حارثة هذه فرصة فقام فهناه ودعا له ثم قال :

إلى الألفين مطلع قريب زيادة أربع لي قد بقينا
 وإن أهيك مهر لكم وبلا فهن من المتاع لكم سينا
 فقال له الوليد فتشاطرنى ذلك لك مائتان ولي مائتان فصير عطاء ألفاً وثمانمائة
 ثم أجرى الوليد الخيل فسق أيضاً، فقال حارثة هذه فرصة فقام فهناه ودعا له
 ثم قال :

وما احتجب الأفسان إلا بهرس هما الآن أدنى مهمما قبل ذلك
 فجد بهما تفديك نفسي فإنني معلق آمالي ببعض حبالكا
 فأمر له الوليد بالمائتين فانصرف وعطاؤه ألفان^(١٨).

أما اعتماد عدد كبير من الناس وخاصة من كانوا في الخدمة العسكرية على

١٥ ديوان الفرزدق ١٨٧/١ ، وانظر ١٩٩/١ لحادثة أخرى مع يزيد بن المهلب ، انظر ابن سلام ٢٨٦ .

١٦ استعمل معاهدة بن سحاب بعض نوع رنة حد قوده بن على ماصب وبكى كعده هـ عند كانت
 تهر هذا الصنيع . انظر الجاحظ : كتاب التاج ٥٧ .

١٧ انظر من ٣١٢ من هذا الكتاب

١٨ لأبي ٢١ ٢٦

اعطاء فمر محقق. وقد سحر منه عُمَرُ بن حطان كما سقت لاشارة إلى ذلك^(٢٩) وكانت زيادة العطاء من الوسائل التي تستخدم لحفر لحد على الاستبصار في القتال. ون الأصمعي لما كان يوم ذُؤْلَاب (٦٥ هـ / ٦٨٤ م) وقُصت الحرب إلى حارثة بن بدر صاحب: من جاء من الموالي فله فريضة العرب. ومن جاء من لأعراب فله فريضة المهاجر. فلما رأى ما بقى أصحابه من الأراقة قال:

أبر الحمار فريضة لشبابكم والخصيتان فريضة الأعراب
عض الموالي جلد أيسر أبيهم إن الموالي معشر الحَيَّاب^(٣٠)

ولعل في موقف أبي الأسود الدؤلي من الديوان ما يشير إلى أهمية الدور الذي كان يعبه هذا النظام في تهيئة سبيل العيش للكثيرين من أهل البصرة. قال اندائلي: «كان لأبي الأسود صديق يقف له الحارث بن خُلَيْد، وكان في شرف من العضاء. فقلت لأبي الأسود: ما يمنعك من طلب الديوان؟ فإن فيه غنى وحيراً. فقال له أبو الأسود: قد أعذني الله عنه بالقناعة والتحمل. فقال: كلا ولكنت تتركه إقامة على محبة من أبي طالب. وبغض هؤلاء القوم^(٣١). وكان انتعاد أبي الأسود عن الديوان سبباً في فقره المدقع الذي كان يشكو منه طوال حياته كما سنرى فيما يلي.

وقد أسهم الجهار الإداري ونظام الديوان في إقامة نظام اقتصادي مزدهر يرتكز على التجارة والزراعة. وسرعان ما تجلى ذلك في اشتداد المجتمع إلى طفتي الأغنياء والفقراء وقد كانت ثروات الخائلة التي تسبب إلى حيوب أثرياء البصرة وحرثهم تثير أضعاع الناس وتشجع رغبتهم في نوصوب إلى الغنى. وكثيراً ما جهد الشعراء أنفسهم وقطعوا المسافات الطويلة جرياً وراء الغنى:

تفويصة لغوثي مالت ها هنا وأنت تميمي مع شرق جابيه

٢٩ انظر ص ٢٦٤ أعلاه.

٣٠ ٢٠ ٤١ ٢١ ص ٣٦ هـ.

٣١ ٢١ هـ ١١٤/١١ ديوان أبي الأسود ١٣٣ - ٤.

فقلت له لحاحات يطرحن دلعني وهم نعنني، معني ركائه^(٣٢)
وأصبح التماس الغنى غاية الناس :

إني كتبت إليك ألتبس الغنى بيديث أو بندي أبث هبثم^(٣٣)
وقد سحر حرير من نقرزوق لأنه سبك في التماسه المعنى مسلماً ما كان يح
أن يسلكه لو أنه كان متمسكاً بمبادئه. فقد هجه حين حأ إلى المهجر القيسي
- وكان الفرزدق يكثر من هجاء قيس من قبل - فقال :

رأيتك إذ لم يغثك الله دلعني رجعت إلى قيس وحدك صرغ^(٣٤)
ولكن المعنى سلعة نادرة لا يحج في تحصيلها إلا قلة محسوبة. أما الكثرة
نغلبة التي تحجب في مساعدها لتحصيل ما تصبو إليه من آمال فإنها تذر عن وجه
لعموم دلعنير ولتقاع في مواجهة حبيتها بين توجه قلة منها جهودها لشط معارض
لمستمتع تحاول به حرار ما أعجزها تحصيله بالطرق السوية المشروعة. وكثيراً
ما برز فقر هذه جماهير وبؤسها في الشعر الذي يوجهه الشعراء لملقاء والولة
كما ذكرنا في لدب النسوق. ولكن هذه لمارقة في الثراء وان كانت تفصل بين
لأغنياء وفقراء مهوة بائعة الاتساع، ولم تترك أثراً واضحاً على الشعر. فقي حين
نُصِب كثير من الشعراء في تصوير فقر الفقراء وآلامهم فدنا قل أن نجد شعراً
حتى عند المحوارح يتحدث في توسع عن الأغنياء يفصح عيوبهم ويصور سحق
لفقراء عليهم^(٣٥). ويبدو أنه لم يكن هؤلاء الفقراء ما يحملوه عن أعياء قبتهم
باندات ولحالات مكثيرة التي يرى فيها فرداً كالفرزدق يعتمد على سجد الاغنياء
من أقربائه^(٣٦) شهد قوي على روح التعاون ولتكتنف التي كانت تحكم العلاقات

٢٢ دبر - الفرزدق ٨٤١

٢٣ ص ٢٠١

٢٤ الفائق ٦٩١ ؛ ابن سلام ٣٥٥

٢٥ انظر الباب الأول الفصل الثاني ص ٥١

٢٦ انظر كامل المرد ٢٤٢/٤ - ٣ ؛ الفائق ٣٨١ ؛ ابن سلام ٢٦٢ - ٣ .

بين فقراء والأغنياء. وكان الأمر يتعدى أحياناً دائرة الأقرباء. إذ كثيراً ما قدم بعض الأتباع يد المساعدة في حالة العسرة. قل الأصمعي: مرّ أسد بن خدرجة اعرجي على لفرزدق وهو يهاً بعيراً له بنفسه، فقل له أسماء: يا فرزدق كسد شعرك وصرحتك الملوك فصرت إلى مهمة إيلك، فقد مُرت لك بمائة بعير، فلم يملك لشاعر إلا أن يمدحه بآيات حياء^(٣٧) وشهرة الفرزدق هي التي ضمنت بقاء هذه القصّة، ولكن ليس هناك من سب يدعوننا لنشكك في حدوث كثير منها لأفراد آخرين لم ترو لنا المصادر أحادها. فقد كان كرم شخصيات مثل يزيد بن المهلب ومالك بن مسَمع وعمر بن عبد الله بن معمر وبلال بن أبي بردة وكثير غيرهم كرمًا يكاد يكون أسطورياً^(٣٨).

يبد أن طبيعة مثل هذا المجتمع المنقسم الذي يعري دساسة والمراحمه كانت بحيث تثير الكثير من مشاعر المختلفة التي تنفوت في قوتها وضعفها وتروح بين لئسدية والتفويض المطلق والبررة وشعور الخيبة والتحسر ولحسد والاتجاه الذي يسعى إلى فسفة الأمور بالارتكار على تعاليم الدين بحيث يصبح أقرب إلى التوكل المنطوق بمثله عروة من أدبية لدي يقول :

ان لئدي هو رزقي سوف يأتيني	لقد علمت وما الإسراف من حلقي
ولو قعدت أأتاني لا يُعني	أسعى له فُبُعني تطلبه
ومن معاريف رزقي غير ممنون	كم قد أفدت وكم أتلفت من نسب
نفسى لخلعة عمر جاء يبلوني	فما أشرت على يُسر وما ضرعت
أن الإله بلا رزقي يخليني ^(٣٩)	خيبي كريم ونفسي لا تحدثني

وكانت الأفكار الحرة التي تدعو إلى التسليم والادعاء للقضاء وتقدر الذي

٢٧ الأغاني ٣٥/١٩ .

٢٨ العقد الفريد ٢٢٤/١ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ - ٦ .

٢٩ الأغاني ١٦٤/٢١ ، المرتضى : الأسالي ٦٩/٢ .

لا يرد قد أخذت تنشر وتؤثر على الأفراد إلى درجة بلغت عند بعضهم حدّ لتسيب مطلق. كما يستدب من حاة أبي حرب اس أبي الأسود اللؤلؤي. هان أبو عبدة. كان أبو حرب من أبي الأسود لؤلؤي قد رمى مراراً بالبرص لا يستجيب أرضاً ولا يظن ررق في تحاية ولا غيرها. فعنه أبو على ذلك. فقال أبو حرب. إن كان ررق فسيثني^{٣٠} ولا تدري إن كان هذا التصرف رد فعل مباشر لعائيم المذهب الكلامية التي كانت تؤكد خضوع الإنسان لغضاء الله وقدره وأنه لا ردة لإنسان مستغنى عما يريد الله وقد استغل ذلك الأمويون استغلالاً كبيراً لإبطل كل مقاومة لنظامهم. فكان ردّ أبي الأسود عليه :

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن ألق دلوك في الدلاء
تجثك بملئها يوماً ويوماً تجثك بحمأة وقليل ماء^{٣١}

ولكن اضطراب الحظوظ وتقلب لأوراق كان يقلق الناس ويرعجهم. وقد رأى فيه أبو الأسود اللؤلؤي اصبع القدر حين قال :

وعجبت للعنينا ورغبة أهلها والرزق فيما بينهم مقسوم
والأحق المرزوق أعجب من أرى من أهلها والعاقل المحروم
ثم انقضى عجبني لعلمي أنه رزق موافق وقته معلوم^{٣٢}
وكان بعضهم يركس إلى تحقير العنى خاصة إذا ارتبط بالثروة. كما في قول الفرزدق في المهلب :

لا تحسبن دراهمها جمعتها تمحو مخازيك التي بعمان^{٣٣}
وأيّ ما كان الحال فثروة منطقها الحاص وسلوكها الذي تفرضه على صاحبها

٣٠ الأغاني ١١/١١٧ + ديوان أبي الأسود ١٨٦ .

٣١ ديوان أبي الأسود ١٨٧ + ياقوت : إرشاد ٤/٢٨١ + الأغاني ١١/١٢٢ .

٣٢ ديوان أبي الأسود ٢٣٩ .

٣٣ الأغاني ١٩/٢٨٨ .

وقد لا يرصى ذلك كل معارفه. فقد لام صخر بن حبياء أخاه الغنى لمعيرة بقوله:

رأيتك لما نلت مالاً وعضناً زمان نرى في حدّ أنيابه شغباً
تحنّى عليّ الدهر اني مذنب فأمسك ولا تجعل عناك لنا دنباً^(٣٤)
وقال أبو الأسود لأحد أصحابه :

إن كنت خيراً سرّني أن تساله تنكرت حتى قلت ذو لبدة ورد^(٣٥)

وعيوب الحياة التجارية لا تحتاح لبيان. إذ ما أكثر ما يسحأ الناس للغش واخذعية لكسب المال. ويرون أن رغبة سمي ساحة الصيارفة بالبصرة (دار الضالين) فنصق لها هذا الاسم لزمان طويل^(٣٦). وقد سجل لنا أبو الأسود صوراً حيّة لمسلكت التجار في هذا المقام. فكشف عن تحايل تاجر يدعى وثاق في قوله :

يريد وثاق. فاقني ويعيها يخادعني عنها وثاق بن جابر
فقلت تعلم يا وثاق بأنهم عليك حمى أخرى السبالي لغواير^(٣٧)
وقال عن تاجر جمال آخر يدعى أوس بن عامر :

أثاني في الطيفاء أوس بن عامر ليخدعني عنها بحن ضراسها
فسم قليلاً يئساً غير ناجز وأحضر نفساً وانقأ عمكاسه
فقسمت لو أعطيت ما سُمّت مثله - وأنت حريص - مغدوت براسها^(٣٨)

ووضح لنا خيانة خادمه وعميله التجاري نافع في صورة واقعية حين قال :

إد كنت تبغي للأمانة حاملاً فدع دفعاً واضر لها من يطيقها

٣٤ كامل المبرد ١٢/٣ .

٣٥ ديوان أبي الأسود ١٢٥ ؛ وانظر أيضاً ٢٤٨ - ٩ ؛ السراي : أخبار البحرين ٩٧ - ٣ ؛ ديوان العجاج

٣٩ - ٤٠ ؛ ديوان رغبة ٩٩ - ١٠٠

٣٦ الأغاني ٨٩/١٦ .

٣٧ ديوان أبي الأسود ١١١ - ١١٢ ؛ الأعالي ١١٥/١١ .

٣٨ ديوان أبي الأسود ١١٣ ؛ الأغاني ١١٥/١١ ؛ انظر الديوان أيضاً ١٤٦ - ٧ ؛ ١٧٢ - ٣ .

فإن الفتى خبٌ كذوبٌ وإنه له نفس سوء يحتويها صديقها
متى يحل يوماً وحده بأمانة نُعلُّ جميعاً أو يُغلَّ فريقها
متى لا بصادفها عُدواً فإنه سيفلس عنها أو ستكسد سوقها
ويهلكها حتى تصير تفاهة ويلحقها من كل غيٍّ لحوقها
على أنه أبقى الرجال سمانة كما كل مسمان الكلاب سروقها^(٣٩)

ووجود هذا بقدر اربع وسط، شراء والعنى ففتح المجال واسعاً للكيدية والسؤال كأسلوب لكسب لقمة العيش. ومسلك كبير شعراء المصرة في هذا المقدم لا يحتاج إلى مزيد من التفصيل. وما يشهد لانتشار هذا الأسلوب المخروط شعراء يمثلون مجموعات أخرى فيه. فقد لحق الشاعر الحارثي عمران بن حطان الذي مررنا بعض شعره في زهد. إلى أسلوب فريد استعان فيه بالجدل الديني ليحقق سؤله. وذلك حين قال :

وقد عرضت لي حاجة وأظنني بأنني إذا أنزلتها بك مُنتجح
فإن أك في أخذ العطية مريحاً فإنك في نكح العطية أربح
لأن لك العنسى من الأجر خالصاً وشكري في الدنيا، فحفظت أرجح^(٤٠)
وشعر أبي الأسود. رعم نصائح الكثرة في دم السؤال^(٤١). يفيض بالطلب والإلحاح في السؤال ودم من لا يبون حوائجه^(٤٢). ففي إحدى قصائده الطويلة يتوجه بالمصيحة لنسائلين شارحاً لهم الأساليب التي عليهم اتباعها في تصديهم للشخصيات المختلفة. فيبدوها بقوله :

٣٩ ديوان أبي الأسود ١٦٦ - ٧ : الأعاني ١٢١/١١ : انظر الديوان أيضاً ٢٢٤ .

٤٠ شعر الحوارح ٢٧ القطعة ٤٩ .

٤١ ديوان أبي الأسود ٢١٢ - ٢١٤ : الأعاني ١٠٧/١١ - ٨ .

٤٢ انظر ديوانه ١٠٩ : ١٢٢٢، ١٢٤، ١٢٧، ١٣٦، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٧، ١٦٤، ١٩٣، ١٩٩ - ٢٠٠

٢١٤ - ٢١٩، ٢٤٠، ٢٤٨ - ٢٥٠ ، ٩

وإذا طلبت إلى كريم حاجة فلقاؤه يكفيك والتسليم^(٤٣)
وينصح في حاة هذا الكريم الاقتصاد في الإحاف وإن تأخر عطائه. أما
في حاة النعيم لتخيل فإن الأسلوب يجب أن يختلف لاختلاف ما بين الرجلين .
وإذا طلبت إلى لئيم حاجة فألح في رفق وأنت مديم
واسكن قبالة بيته وفساءه بأشد ما لزم الغريم غريم^(٤٤)

ويعمد أسر الأسود فوق ذلك بمودج لضررة اجتماعية أخرى مصدرها ضيق
الموارد في مجتمع شديد المراحة والمفاضة فقد كان نجلاً وكان بحله مضرب
الأمثال^(٤٥). وقال لمن لأمه على ذلك :

بلموني في البخل جهلاً وضلةً وللخُل خيرٌ من سؤلٍ بخيل^(٤٦)
وقد شرح فلسفته المتشددة في المعاملات المالية لصديق أهداه سجاداً فرفض
الإهداء وأصر على دفع الثمن، قائلاً :

لا استيب ولا أئيب الواهب	بعني نسباً ولا تبني انني
وحسبتها حمداً وأجرأ واجباً	إن العطية خير ما وجهتها
وملامة تبقى ومناً كاذباً	ومن العطية ما يعود غرامة
فلئت علماً منهم وتجارباً	وبلوت أخبار الرجال وفعلهم
ديناً أقر به وأحضر كتاباً	فاذا وعدت الوعد كنت كغارم
وكفى عليّ به لنفسه طالباً	حتى أنفذه على ما قلته
وكفى بربك جازياً ومحاسباً	وإذا فعلت فعلت غير محاسب
وأرحت من طول العناء الراغباً	وإذا منعت منعت منعاً يئناً

٤٣ ديوانه ٢٣٥ ، ومن القاد من يشك في نسبتها إليه

٤٤ ديوان أبي الأسود ٢٣٦ .

٤٥ الأغاني ١٠٨/١١ - ٩ ، ١١٤ ، ١١٦ .

٤٦ العقد الفرید ٢٢٠/٧

لا اشتري لحمد اتقبل بقوه يوماً بذا لدهر أجمع واصب^(٤٧)

وقد دفع الفقر جماعات أخرى لتجاوز حدود القانون واتخذ لنهب والسلب وقطع الطريق وسيلة لكسب العيش. وقد ترك لنا أحد هؤلاء النصوص ويدعى قرعان بن لأعراف من تميم أبياتاً حملها مشاعره وسعى فيها إلى تبرير مسئلكه فقال :

يقول رجالٌ بن قرعان فاجر والله أعطاني نبيّ وملياً
فأربعة مثل الصقور وأربعة مواضع قد وقَّيْتُ شعثاً ثمانية
إذا اصطنعوا لا يخبئون لعائب طعاماً ولا يرعون من كان داثياً^(٤٨)

وكن نتيجة كل هذه النبول والاتجاهات نموّ علاقات اجتماعية معاصرة للعلاقات قبلية تقليدية من حيث اعتمادها على لأساس الفردي لا الجماعي إذ أسهم اتحاده الناس للبحث عن سلطة والثروة في صحة الأمراء أو الحفقاء أو أعياء لتجار في نموّ العلاقات لشخصية وازدهارهم. وصحح رجال مذكورون مثل حارثة بن بدر وأنس بن زبم (وفي بعض الروايات بن أبي أناس أو إلياس) ونزید بن مفرغ الحميري وغيرهم يعرفون بعلاقات الصداقة الشخصية التي تربطهم بالأمراء أكثر مما يعرفون بعلاقاتهم لقبية. ونجم عن سعي أمثال هؤلاء لإحلال رضى أولياء نعمتهم ضرب من الشعر موافق لذلك الشعر لقبلي المعروف بالمقائض ويتحد أسسها لمناقضة إهاماً له ولكن مركز الثقل في هذا الشعر كان الفردي مزياه وعبويه الشخصية. فمناقضة العيبة بين حارثة بن بدر وأنس صديقي عبيد الله بن زياد وكان يعري بينهما كانت تدور في عمومها حول موضوع واحد هو حيلة الأصدقاء. فحين نظم حارثة بن بدر هذين البيتين في أنس :

تبدلت من أنس أنه كذوب المودة خوأنها

٤٧ ديوان أبي الأسود ٢١٢ - ٢١٣ ، الأعالي ١١ / ١١١ .

٤٨ ابن قتيبة : الشعر والشراء ٢ / ٦٢٧ .

أراه بصيراً بضّر الخليل وشّر الأخلاء عَوّانها^(٩٩)
ردّ عليه أنس بقوله .

إن الخيانة شرّ الخليل والكفر عندك ديوانها
بصرت به في قديم الزمان كما تُبصر العين إنسانها^(١٠٠)

وهذه العلاقة الشخصية تقوية بين الولي ومولاه تظهر في صورة قوية في كلمات أنس التي وجهها لعبيد الله بن زياد :

سل أميري ما الذي غيّرهُ عن وصالي اليوم حتى ودعه
لا تُهني بعد إكرامك لي فشديد عادة منتزعه
لا يكن وعدك برقاً خلباً إن خير البرق ما الغيث معه^(١٠١)

وعله من المناسب أن نشير هنا إلى أن الخلافات المكرية والمذهبية إلى جانب الميول السياسية والحزبية كان لها دورها الهام في إضعاف روح التضامن الجماعي وإذكاء نـُـزوح الفردية. وما حدث لأبي الأسود المدوّلي في هذا المجال يوضح ما نحن بصددّه. فقد كان شيعياً متشدداً ولكنه وجد نفسه وسط مجموعة لا تشاركه آراءه، بل كانت صريحة في عدائهم له فعجزه من بني قشير كانوا عشائرية يحصون بيته بالحجارة كل ليلة ويزعمون أن الله كان يفعل ذلك به^(١٠٢). وهذا العداء المفرط وما يصاحبه من شعور بالانعزال والوحدة يولد بالضرورة مشاعر تضامن وصدقة قوية بين أفراد هذه المجموعات أو الأقليات التي تنحرج عن لتيارات المكرية أو اندبسية أو سياسية العامة. وولم أبي الأسود بالصدقة أمر ملصق للظلم، ويشهد

٤٩ الأغاني ٢١/٢٣ .

٥٠ غسه . وانظر ٢٣ - ٢٤ ؛ ديوان أبي الأسود ١٢٦، ١٢٧، ١٢٧ - ١٣٠، ٩ لمقتضات مشابهة .

٥١ لأمي ٢١ ٢٥

٥٢ د - ل أبي الأسود ١٧٦ - ١٨٠ ؛ الأغاني ١١/١١٦ ؛ دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية . أبو الأسود.

له الإشارات كثيرة في ديوه. الذي يعتبر بحق دواءً شخصياً محبداً عن صداقة^(٥٣)
وتظهر في مقطوعته الكثير التي يوجه فيها اليوم والتأيب لأصدقائه حساسيته مفرقة
وهمامه الكبير بكل ما يتعلق بعلاقات الصداقة من وفاء وحياة فهو يشير إلى
عذابه الطويل في هذه الآيات :

تعوّدت مسّ الضرّ حتى ألفتَه وأسلمني طول البلاء إلى الصبر
وسّع صدري للأذى كثرة الأذى وكان قديماً قد يصيب به صدري
إذا أسألم أقبل من اندهر كلّ ما ألاقه منه صار عتي على مدهر^(٥٤)
ويحصى عدداً من محولاته التي فشل في إقامة علاقة صداقة فيها^(٥٥) ويدعو
إلى الحذر في معاملة الأصدقاء فيقول :

أحب إذا أحببت حباً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت غير مباعد فإنك لا تدري متى أنت راجع
وكن معدلاً لحكم وصفح عن الحنا فإنك راء ما حبيت وسمع^(٥٦)
ولكن متى توطدت الصداقة فالصبر والحلم واجب :
إذا أنت لم تعف عن صاحب أساء وعاقبته إن عثر
بقيت بلا صاحب فاحتمل وكن ذا قبول إذا ما اعتذر^(٥٧)
يبدأ شعر أبي الأسود في الصداقة مفرد في كثير من حواشه لشعره الذي

٥٣ ديوان أبي الأسود ١٠٩-١٢٢، ١٢٤-١٥٣، ١٥٦-١٥٨، ١٦٤-١٧١، ١٧١-١٨٥، ٣-١٨٥ -
١٩٣، ١٩٤-١٩٨، ١٩٩-٢٠٢، ٢٠٦-٢١٤، ٢١٥-٢١٦، ٢١٧-٢١٩، ٢٢٤-٢٤١، ٢٤٥-٢٥٠، ٢٤٥-٢٥٠

٥٤ نفسه ٢٢٧-٢٨، ياقوت : إرشاد ٢٨٢/٤ .

٥٥ ديوان أبي الأسود ١٢٢، ٢٠٢، ٢٤٨ .

٥٦ نفسه ١٣٨-٩ : الأعاني ١١/١١٦ .

٥٧ نفسه ٢٤١

الفصل الرابع

الموالي

مهّدت إقامة العرب بالمصر لسبيل لاتصالهم اتصالاً مباشراً واسعاً بسكان
منطقة من الانباض الذين كانوا يعيشون على فلاحه الأراضي لزراعية إلى حوازمهم .
وأُسرى العرب من بمرس الدين كانوا يساقون بالآلاف إلى المدينة^(١) بيد أن
ما نجم عن الفتح في هذا المجال لم يكن إلا حلقة أخيرة في سلسلة طويلة من
تطور العلاقات بين عرب وحيث أنهم ترجع بدايتها إلى ما قبل الإسلام بكثير . فقد
كانت قبائل شرق حريّة محبورة للفرس واحتلّت بعضها مثل بني النعمّ بهم^(٢) . وقد
حرّ عليهم ذلك هجاء حرير كما رأينا^(٣) . أم الروايات عن شيوخ عرب الدين
تروحو إلى درسيات فكثيرة . ويذكرون في هذا المجال أن كسرى أهدى أئذبة
حدة ففيرة الجدة الكرى للفرزدق . لرأية من عُدس من دارم^(٤) . وقد أمد ذلك
جريراً بحجته الأساسية التي بنى عليها هجاءه للفرزدق .

١ انظر الباب الأول ص ٣٢ - ٤٩ .

٢ الطبري ٢٥٣٥/١

٣ انظر الباب الثالث ص ١٣٢ .

٤ الثعنتص ٢١١ .

وقد جعلت الفتوح رواح العرب إلى الفارسيات أمراً عادياً نجم عنه ظهور طبقة جديدة من المولدين عُرفوا بالهجناء. وطبقاً لتقاليد العرب فإن الهجين دون مرتبة لصريح، وكان الجاهليون يحرمونهم حق الوراثة^(٥). وكانت سياسة بني أمية تحول بينهم وتولي الخلافة أو يصب الهامة لأن العرب لا يخضعون لغير العرب في رعمهم^(٦) بيد أن الكثيرين منهم^(٧) تسموا مناصب عدلية في لدولة لمكانة آبائهم العرب وميودهم. مما عرصهم لقدت الشعراء وهجئهم. ونعل حبر ما يشهد على حساسية موقف هؤلاء مولدين في المجتمع ما حدث لأسرة زياد التي حكمت ابصرة من ٤٥ هـ / ٦٦٥ م إلى ٦٤ هـ / ٦٨٣ م مع يزيد بن مفرع الذي كان موب وينسب إلى حمير^(٨) وكانت حجة يزيد عليهم قائمة على اختلافهم عن العرب وأهم من أصل أجبي. وقد بدأ هجومه عليهم بالتساؤل عن فعة معاوية حين أقر بأخوة زياد له. قال :

ألا أبلغ معاوية بن حرب	مغلغلة من الرجل السامي
أنغضب أن يقال أبوك عفّ	وترضى أن يقال أبوك زاني
وأشهد أن إلك من زياد	كإل الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها حملت زياداً	وصخر من سمية غير دان ^(٩)

وتعجب الشاعر من المكانة الاجتماعية التي كان يحتتها بناء سمية الثلاثة مشيراً بذلك إلى تعقد لظام الاجتماعي الذي أتاح لكل منهم الاستمتاع بوضع مختلف

٥ العقد الفريد ١٤٣/٧ .

٦ نصه ١٤٤/٧ هـ هكذا فقد مسسة بن عبد الملك (٦٣ - ١٢٠ هـ / ٦٨٢ - ٧٣٨ م) حقه في الخلافة لأن أمه غير عربية ؛ ولم يتول ابن مولاة الخلافة قبل عام ١٢٦ هـ / ٧٤٤ م حين نصب يزيد الثالث وكانت أمه حارية صعيدية خسفة في أعقاب ثورة داسية .

٧ انظر الباب الأول ص ٤٨ - ٤٩ .

٨ ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٢٨٩ ؛ الأغاني ١٧/ ٥٢ ؛ ابن منة: الشعر والشعراء ١/ ٣١٩ .

٩ ابن قتبية. الشعر ١/ ٣٢٢ ؛ العقد الفريد ١٤٧/٧ ؛ انظر الطبري ٢/ ١٩١ .

عن وضع أخيه. قال :

إنَّ زياداً ونافعاً وأباً بكرة عندي من أعجب العجب
إن رجالاً ثلاثة خلقوا من رحم أنثى مخالفي النسب^(١٠)
ذا قرشي كما يقول وذا مول وهذا ابن عمه عري^(١١)

ثم يبطل حجة زياد من أن أمه سمية كانت من بني تميم بقوله :

فأقسم ما زياد من قريش ولا كانت سمية من تميم
ولكن نسل عبد مر سفي^(١٢) عريق الأصل في النسب اللئيم^(١٣)
وقال لعباد وعبيد الله ابني زياد :
أعباد ما للؤم عنك محمول ولا لك أم في قريش ولا أب
وقل لعبيد الله مالك والد^(١٤) بحق ولا يدري امرؤ كيف تنسب^(١٥)
ويزعم أن أصلهم نبطي فيقول :

ألا أبلغ عبيد الله عني عبيد اللؤم عبد بني علاج
عليّ لكم قلائد باقيات يثرن عليكمو تقع العجاج
تدعيت الخضارم من قريش فما في الدين بعدك من حجاج
أبن لي هل يثر ب زئدوژد قري آبائك النبط العجاج^(١٥)

ويطلب منهم الرجوع إلى قراهم لمواصلة كدحهم اليومي . فيقول

١٠ زياد كان مهازماً ابن أبي سفيان ونافع ابن الحارث بن كندة النخعي ، أما أبو بكرة فمن نضع من مسرج .
عبد حبشي .

١١ ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ٣٢٣/١ .

١٢ الأغاني ٦٧/١٧ ، وصحبة أمه فارسية ، انظر دائرة المعارف الإسلامية الأولى مادة أبي بكرة .

١٣ نفسه ٥٩/١٧ .

١٤ نفسه ٦٥/١٧ ، انظر أيضاً ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ .

إِنَّ الْعَبِيدَ وَمَا أَدَّتْ طَرِيقَتَهُ لِأَعْبَدَ مِنْ زَوَانٍ لَا يَصْلُونَا

بزنلورد، خذوا منها مساحيتكم واستبدلوا بالمآزير التباينا^(١٥)

وكان الفرزدق قبله (حواي ٥٣ / ٦٧٢ م) قد كُتِبَ أصل ريباد الفارسي حين أُنِيبَ مسكين الدارمي على رثائه له بقوله :

أُنِيبَ امراً من أهل ميسن كاهراً ككسرى على عدائه أو كقبصرا^(١٦)

وقد بلغ هجاء ابن مفرغ لآل زياد من لاششار والذبيوع حداً حشوا منه على سمعتهم ومكنتهم فقبض عليه عبيد الله وعباد وأودعه السجن وعرضه لصنوف من لتعديب والمهابة لم ينفذه منها إلا تدخل الخليفة (معدونة أو يزيد الله) اندي أنجاه من موت محقق^(١٧).

كان إحساس العرب بامتبارهم عن رعاياهم من غير العرب يرد د عمقاً باتساع اتصافه المباشر بهم. وكان شعورهم بالسخط والغضب على ما يرونه من إفساد لنفائهم العنصري من جراء احتلاط هؤلاء الأحناب بهم بارزاً في هجاء الشعراء وقد نضمهم والوسيلة التي لاحظناها من قبل^(١٨) والتي كان الشعراء يسلكونها في هجاء خصومهم بإعلان بعد هؤلاء الخصوم عن العرب لم تكن في كل الأحيان ولادة الحيل أو الاحتلاق. إذ كان لبعض هذه الاتهامات أساس من الصحة. فقد رأينا أن حدة الفرزدق كانت فارسية الأصل وكانت أم البعيث حارية اصمغانية^(١٩) أو سحستانية^(٢٠). وكان عدد العرب والمولدين منهم عظمياً كما مر بنا في توسل

١٥ ابن سلام ٥٥٦ - ٧ .

١٦ ديوان الفرزدق ٢٠١/١ .

١٧ انظر ابن قتيبة: الشعر ٣٢٠-٣٣٠، الطبري ١٩٢/٢ - ٥، ياقوت: إرشاد ٢٩٨/٧ = ابن سلام ٥٥٤ -

٦، الأغاني ١٢/٥٤ - ٧، بلا ١٥١، وانظر شعر ابن مفرغ الذي جمعه بلا في

١٨ طر ١٣٦ - ١٣٧ III 193 232 Melanges Louis Massignon, Damascus, 1957

١٩ البقائص ٤٠ .

٢٠ - ابن سلام ٣٢٦ .

الأحفى بن قيس لمعاوية بشأنهم^(٣٧). وقد عرّض اختلاط النسب هذه الكيفية
لكثيرين منهم لهجمات الساخطين من لشعراء. فحين أعضب عمرو بن عفراء
الضبي الفرزدق هجاء هذا بقوله :

ولو كنت ضيياً صفحت ولو سرت على قلبي حيّاته وعقاربسه
ولكن ديفي أسوه وأمه حوران يعصن السليط أقرمه^(٣٨)

وكان صالح بن كدير المازني غنياً ولكنه كان خيلاً فقار فيه الفرزدق
إن تسأل الأشياء من آل مازن تُردّ إلى علف كثير لقوادح
وكم في قرى ميسان من علف قرية قريب، بكفه النوشوم، لصاح^(٣٩)
وكان جوار بعض القبائل العربية هؤلاء الانباط مادة طيبة للشعراء اعتمدوا
عليها في تصويرهم بأنهم أجنب لا علاقة لهم بالعرب. وكان هذا واضحاً في
هجاء الفرزدق لقبيلة طيء إذ قال لهم مرة :

وما طيء إلا قبائل أنزلت إلى أهل عين التمر من كل جانب
فما علمت طائفة من أب لها ولو سألت عن أصلها كل ناسب^(٤٠)
وسماهم في مناسبة أخرى أنباطاً حين قال :

وما كنت أخشى طيئاً أن تسبني وهم نبط لم تعتصب بالعمائم
بيط القسرى لم تحتمر أمهاتهم ولا وحدت مس الحديد نكوالم
وما يعلم الطائي ممن أب له ولو سألوا عن طيء كل عالم
وما يسمع الطائي إلا رصاصة مها نقش سلطان على الدس قثم^(٤١)

٢١ صر شاذ الأول ص ٤٩ .

٢٢ ديوان الفرزدق ٤٦٠١ ؛ دياق من قرى الشام انظر القتلص ٢٩ .

٢٣ نفسه ١٢٤/١ ؛ وانظر نماذج أخرى ؛ نفسه ١١٩/١ ، ١٧٢ ؛ الأغاني ٢٤/١٩

٢٤ نفسه ٤١/١

٢٥ انظر ص ٢٩٢ أدناه

متى يهبط الضائي أرضاً ولم يكن به وشم موشوم يكن غانم^(٣٦)
وقد سحر نفس الشاعر بالمثل من الأزد وسماههم «أساط العراق»^(٣٧). وقد
جعلت معرفة العرب للأنباط لمقارنة بينهم وبين خصومهم سهلة كما يظهر ذلك
في هجاء جرير لبني سليط حين قال :

إن سليطاً كاسمها سليط لولا بنو عمرو وعمرو عيط
قلت ديافيون أو نبيط^(٣٨)

ويوضح أن العرب كانوا بأنفوس من اختلاط الدم حتى من ناحية الأم كما
بين ذلك الفرزدق في مدحه لعباد بن عباد بن علقمة :

صت الحين كريم العود متحب لم يدر ما طعمه ثديي أم أولاد^(٣٩)

ويبدو أن هذه الأمة أو السرية لم تكن تتمتع بمكانة اجتماعية محترمة كما
يستشف من كلام الفرزدق عن ابنته مكينة وكانت أمها جارية ربيعة :

فإن لا تعدوا أمها من سائكم فإن أباه ولد لى يشينها^(٤٠)

وكان زواج المولى من عربية حرة نادراً في لبدية محفوقاً بالمحاضر كما مر
من قبل^(٤١). ولكن بتحس أحوال المولى وارتفاع درجتهم في السلم الاجتماعي
دكتسابهم الأموال وتشرعهم ثقافة لعرب ازدادت فرصهم في استروح إلى الحرائر
وفي المصادر أخبار عن هذه الظاهرة. وقد كان زواج يحيى بن أبي حفصة حدثاً

٢٩ ديوان الفرزدق ٢/٢٧٥ ، واطر أيضاً ١/١١٤ - ١١٥ ، ١١٧/٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٠ ، ٢٨٨ ، ٣٤١ ،

لعمدة ١/١٠٩ - ١١٠

٢٧ ديوان الفرزدق ٢/٢٧٠

٢٨ مدني ٢٩

٢٩ ديوان الفرزدق ١/١٧٠

٣٠ العقد الجديد ٧/١٠٤

٣١ انظر الباب الأول ص ٤٩

مروان بن أبي حفصة الشاعر مصدر جدل وشقاق كبير . فقد كان أبوه أبو حفصة
مولى يهودياً لعثمان بن عفان عتقه يوم لدار لأنه أبلى يومئذ . وكان قد أسلم على يدي
عثمان فأثرى وكثر ماله ، وتولى الخون بني أمية^(٣٢) . وكان يحيى ابنه تزوج عمرة
بنت إبراهيم بن النعمان بن شير اليماني على صداق عشرين ألف درهم وسير
ليها مهرها قبل أن يسي بها . فأثر ذلك ثائرة الناس ولاموا إبراهيم في ذلك فقلوا :
زوجت عبداً وفضحت نفسك وأباك . وغيره أحدهم بقوله :

لعمري لقد جئت نفسك خزية وخانفت فعن الأكريس الأكرم
ولو كان جدك اللذان تتابعها يبدل لما راما صنيع الألائم
وأرادوه على انزعاعها فأنى وعظم الأمر في ذلك حداً ويسود إلى إبراهيم
أنه قال في ذلك :

قد تركت عشرون نفاً لقائل مقالاً ولم أحفل مقالة لائم
فإن كنت قد روجت مولى فقد مضت به سنة قسلي وحباً درهم^(٣٣)
وأثر زواج يحيى هذا أو أبوه في رواية أخرى^(٣٤) من فتاة تميمية أخرى تدعى
خوة بنت مقاتل بن طسبة بن قيس بن عاصم . وكان قيس بن عاصم سيد أهل
النور ، حواطر الناس وثائرة اشعراء . فقد في ذلك القلاح العنبري

بنت خوة قالت حين أنكحها لطلما كنت منك اعد أنتضر
أنكحت عبداً ترجو فضل ماله في فيك مما رجوت التبر وحجر
لله در جياذ أنت قائدها برذنتها وبها التحجيل والغرر^(٣٥)

٣٢ ابن المعتز ، طبقات الشعراء المحدثين ٤٤ .

٣٣ منه ٤٤ ؛ المقصد الفريد ١٤٥/٧ - ٦ .

٣٤ ابن جرير ؛ معجم الشعراء ٢٢٧ .

٣٥ ابن قتيبة شعر والشعراء ٧٣٩/٢ - ٧٤٠ ، كامل المبرد ٢١٣/٤ ؛ المقصد الفريد ١٤٦/٧ ؛ ابن المعتز .

وحين علم الشاعر أنه مهرها خيراً (أي ملابس) قال في ذلك :

سلام على أوصال قيس بن عاصم وإن كُنَّ رسماً في التراب بواليا
أضيعتمو خيلاً عرباً فأصبحت كواسد لا ينكحن إلا المواليا
ولم أر أثواباً أجزَّ لخزية والأم مكسواً والأم كاسياً
من الخرق اللائي صبين عليكم يحجّر فكنّ المبقيات البواليا
ويقال ان يحيى بن أبي حفصة أجابه بقوله :

تجاوزت حزنًا رغبة عن بناته وأدركت قيساً ثانياً من عانيا^(٥٦)
وحزن والد الشاعر . وقال جرير يغيرهم بذلك :

رأيت مقاتل الطلبات حلياً فروج بناته كمر الموالي
لقد أنكحتم عبداً لعبد من الصهب المشوّه السبال
فلا تفخر بقيس ان قيساً خرتم فوق أعظمه البوالي^(٥٧)

ومما يوضح نفور العرب عامة من تزويج بناتهم الموي ما جاء في أخبر هشام الدستوني الإباضي الذي كانت الإباضية تبعث إليه من صدقاته بثياب دستونية فكأن يكسوها الأعراب الذين يكونون بالحجاب فأحبهوه إلى قول الإباضية وكثروا قبل ذلك لا يزوجون المهجناء فأحابهوه إلى التسوية وروجوا هجناً فقال اضحين في ذلك :

إنا وجدنا دَسْتَوَانِنَا الصائمين المتعبدينا
أفضل منكم حسباً وديناً أخزى الإله المتكبرينا
أفياكم من ينكح الهجين^(٥٨)

٣٦ كامل المرد ٢١٤/٤ .

٣٧ ص ٢١٥

٣٨ الحافظ : البيان والتبيين ٤٣/١ .

الفرزدق في هجائه السالف لطفي^(٤٥). وهجا شاعر آخر أحد الموالى بقوله :
 وَتَ مِنْ تَقَشَّ الْعَجَسْلِي^(٤٦) رَاحَتَهُ وَفَرَّ شَيْحُكَ حَتَّى عَاذَ بِالْحَكَمِ^(٤٧) (٤٨)
 وقد يضاف إلى هذا المعاماة التي كان يلقونها حين يلتحقون بالجيوش^(٤٩). وقد
 مرت به بُيُوت حارثة بن بدر^(٥٠) التي تبرر مكانتهم الدنيا بالقياس إلى من سواهم
 من الأعرب والعرب. وكانت تواجهم عقدت اجتماعية جمّة أسلمها القول عن
 بعضها^(٥١).

ولم تكن في ثقافة المولى وتعليمه ضمانات كافية لإحرازه أي مرتبة اجتماعية.
 فحين نقد عبد الله بن الحضرمي^(٥٢) شعر الفرزدق لم يبق له هذا مალأ أكثر من قوله :
 وَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى هَجَوْتَهُ وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا^(٥٣)
 وكان مسلكه مع عبسة القليل مثلاً. فحين علم أن هذا النحوي المولى يروي
 لخرير شعراً فيه التفت إلى وضاعة أصل أبيه معدان الذي كان رجلاً من أهل
 ميسان قدم البصرة وأقام بها وسبب تسميته بمعدان القليل أنه كان لعبد الله بن عامر
 قيل بالبصرة وقد استكثر الفقه عليه فأثابه معدان فتقبل نعتته وتولى أمره فكان يدعى
 معدان القليل. فقال الفرزدق فيه :

-
- ٤٥ انظر ص ٢٨٧ أعلاه .
 ٤٦ أحد بني سعد من عجل تولّى أمر فرجيل الموالى للحجاج .
 ٤٧ الحكم بن أيوب عمل الحجاج على البصرة
 ٤٨ العقد الفريد ٣/٣٦٧ ؛ انظر أيضاً ٣٦٨ .
 ٤٩ انظر العقد الفريد ٥/١٦٣ لما فعله معاوية وعبد الملك وهشام بشأنهم
 ٥٠ انظر ص ٢٧٢ أعلاه .
 ٥١ انظر الباب الأول ص ٤٢ - ٤٩
 ٥٢ انظر الباب الأول ص ٦٦ .
 ٥٣ الأنساب: التزعة ١١ ؛ السيوطي نية المودة ٢٨٢

لقد كان في معدان ولهيل راجر لعنسة الراوي عليّ نقصائد^(٥٤)

وكانت حساسية عنسة لهذا الهجاء كبيرة إذ يروى أن بعض عمال البصرة سأل عنسة عن هذا البيت وعن الفيل. فقال عنسة: لم يقل لهيل وإنما قال اللؤم. فقال لعنسة: إن أمراً تفرّ منه إلى اللؤم لأمر عظيم^(٥٥).

يبد أن تقدم هؤلاء الموالي كن حثيثاً ومثيراً ولم يكن للعرب في معظم الأحوال من موقف سوى لتعبير عن عورظهم المتوفرة عن طريق الكلمة السحرة عن يونس ابن حبيب قال: لما بنى داره فيل مولى رباد بالسباحة صنع طعاماً ودعا أصحاب رباد، فدخلوا حمام المعروف بحمام فيل وخرحوا فتعدو عده، وركب فيل وصحابه تلك الهماليح ونقاريف ولبغال، واجتاز بهم معه عن حارثة بن بدر وأبي الأسود الدؤلي وهما جالسان. فقال أبو الأسود:

لعمريك ما حمام كسرى على الثلثين من حمام فيل
فقال له حارثة:

وما يحافنا خلف الموالي بستنا على عهد الرسول^(٥٦)

وقد ساعدت كثرة هذه العاصر غير العربية^(٥٧) ونجاحها في كل جوانب الحياة في تخفيف حدة الصدام بين العرب والموالي داخل مصر. ورغم ما أوردناه من شواهد على عداء العرب هم في الصورة العامة في البصرة كانت الميل للتسامح وقبول ولعله لسيادة روح المودة والتعاطف بين الجانبين يعزى فشل هذه المجموعة الكبيرة من الموالي الذين نبع فيهم كبار الدعوة والنحويين والمحدثين ولقراء ممن أرسوا دعائم الحياة الثقافية في البصرة، في إبرار شاعر واحد منها يعز عن قضايها

٥٤ سيري: نحو سحرين مصريين ٢٤ = سرقة ٠٧ ناصت إيشد ٩١ ٦ ، نعية الوعة ٣٦٨

٥٥ بر الأسدي: الرقة ٦ - ٧ ، السيري ٢٤ .

٥٦ الأغاني ٤٣/٢١ ، البلادي: فتح البلدان ٤٩٤

٥٧ اطر الباب الأول ص ٤٧ ، ٦٠ .

ما خلا بشر الذي بلغ نضجه في العصر العباسي^(٥٨). صحيح أن بعض المغويين أمثال عبد الله بن الحضرمي وعيسى بن عمر كانوا في نظر معاصريهم معادين لعرب^(٥٩). و عبد الله بن رباد كان أول من جمع مثالب لعرب^(٦٠). إلا أن اسئمة رعم كل ذلك كانت نغمة هادئة تنبي عن روح تسامح ووفد. وكن شعراء في ساعات صفوهم يقرؤن للفرس بأفضالهم ومراياهم. وكثيراً ما تتكرر في أشعارهم صفة «بيي الأحرار»^(٦١) إشارة لقدماء الفرس^(٦٢)، مما استعده بشار من بعد في الفخر بالفرس^(٦٣). وكانت الروابط العاطفية التي تصل بينهم وبين كثيرين من لعرب سواء عن طريق للتزوج أو غيره ترك أثره على مسلك الطرفين. قال الفرزدق عن ابنته التي يبدو أن أمها كانت فارسية الأصل :

فإن بك خالها من آل كسرى فكسرى كان خيراً من عقال
وأكثر جزية تهدي إليه وأصبر عند مختلف العوالي^(٦٤)

وعبر جرير عن تحورته الشخصية مع زوجه الفارسية الأصل حين قال خا .
لقد ردت أهل الريّ عندي مودة وحبت أصعافاً إليّ الموليا^(٦٥)

وقال في مدح ابنه منها بلال :
إنّ بلالاً لم تشبه أمه لم يتناسب خاله وعمه

٥٨ انظر كتاب الأول ص ٦٠ .

٥٩ الترهة ١١ ؛ النية ٢٨٢ ؛ الموضع ٤١ .

٦٠ انظر الباب الثالث ص ١٢٤ .

٦١ السهيلي: الروض الأنثى (القاهرة ١٩١٤) ٥٥/١ ؛ ابن الشجري: الأمالي ١٧٤/١ .

٦٢ انظر ديوان الفرزدق ٢٦٩/١ ، ٣٠٧ ؛ ١١١/٢ .

٦٣ الأعاني ٣٣/٣ .

٦٤ نفسه ٢١/١٩ ؛ ديوان الفرزدق ٩٥/٢ .

٦٥ ديوان جرير ٤٩٦ ؛ كامل للمبرد ٥٣/٥ .

كَانَ رِيحَ الْمَسْكَ مُسْتَحْمَهُ مَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ ذِمَّةُ^(٦٦)
 وَلَمْ يَلْبِثْ بِلَالٌ هَذَا أَنْ شَبَّ عَنْ الطَّرِيقِ وَبَدَأَ يَفْخَرُ بِأَخْوَالِهِ الْفَرَسِ . فَقَدْ قُلَّ
 يَنْاقِضُ أَحَدَ إِخْوَانِهِ مِنْ جِهَةِ أَبِيهِ الَّذِي كَانَ يَسْخَرُ مِنْهُ :
 يَا رَبَّ خَالٍ لِي أَغْرَأُ أَبْلَجَا مِنْ آلِ كَسْرَى يَغْتَدِي مُتَوَجًّا
 لَيْسَ كَخَالٍ لَكَ يُدْعَى عَشَنَجَا^(٦٧)

وكان الراجز أبو نَحْلَةَ رغم محاولاته الدائبة الانتساب إلى العرب - إذ ابتاع
 داراً في بني حِمْيَلٍ من تميم ليصحب بها سبه^(٦٨) مما حلب عليه سخرية رؤبة^(٦٩)
 ولقرزوق^(٧٠) - . لَّا أَنَّهُ كَانَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ يَفْخَرُ بِدَمِهِ الْفَارِسِيِّ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ :
 أَمَا ابْنُ سَعْدٍ وَتَوَسَّطْتَ الْعَجَمَ فَأَنَا فِيهَا شَتَّى مِنْ خَالٍ وَعَمٍ^(٧١)
 وكان أثر الموالي في البلاط الأموي كبيراً واضطُرَّ إسهامهم في إيجاج السياسة
 الأموية جريراً إلى مدحهم وذهب في ذلك مذهباً بعيداً حين أعلن مساواتهم بالعرب
 معتمداً في هذه الدعوة على الزعم الذي ساد من أن العرب والفرس يرجعون بأصولهم
 إلى سيدنا إبراهيم الخليل^(٧٢) قال جرير (حوالي ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) :

وَأَبْنَاءُ اسْحَقَ اللَّيْثُ إِذَا ارْتَدُّوا مُحَامِلُ مَوْتِ لَابِسِينَ السَّوَرَا
 فَيَوْمًا سَرَابِيلُ الْحَدِيدِ عَلَيْهِمْ وَيَوْمًا تَرَى خَزَاً وَعَصَاً مُنِيرًا
 إِذَا افْتَخَرُوا عَدُوَّ الصَّهْبِ مِنْهُمْ وَكَسْرَى وَآلَ الْهَرَمَزَادِ وَقِيسَرَا
 تَرَى مِنْهُمْ مُسْتَصْرِينَ عَلَى أَهْدَى وَدَا التَّاحِ يَضْحِي مَرْرَبَاً مَسُورَا

٦٦ نفسه ٤٣٧ .

٦٧ كامل المرد ٥١/٥ .

٦٨ الأغاني ١٤٥/١٨ .

٦٩ ديوان رؤبة ٨٧ : ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٥٨٤/٢ .

٧٠ الأغاني ١٤٢/١٨ .

٧١ كامل المبرد ٥٤/٥ : ابن قتيبة : الشعر ٥٨٣/٢ .

٧٢ الطبري ٤٣٣/١ .

أَغْرَ شَبِيهًا بِالْفَنِيْقِ إِذَا ارْتَدَى عَلَى الْقُبْطَرِيِّ الْفَارِسِيِّ الْمَزْرُورَا
وَكَانَ كِتَابَ فَبِهِم وَنُبُوَّة وَكَانُوا بِإِصْطَخَرِ الْمَلُوكِ وَتُسْتَرَا
لَقَدْ جَاهَدَ الْوَضَّاحُ^{٧٣} بِالْحَقِّ مَعْلَمًا فَأُورِثَ مَجْدًا بَاقِيًا أَهْلَ بَرْمِرَا
أَبُونَا أَبُو اسْحَقٍ يَجْمَعُ بَيْنَنَا أَب كَانَ مَهْدِيًا نِيًّا مَطْهَرَا
وَمَنَا سَلِيمَانَ النَّبِيِّ الَّذِي دَعَا فَأَعْطِي بَنِيَانًا ، وَمَلِكًا مَسْخَرَا
وَمُوسَى وَعِيسَى وَالَّذِي خَرَّ سَاجِدًا فَأَنْبَتَ زَرْعًا دَمَعَ عَيْنِيهِ أَخْضَرَا
وَيَعْقُوبَ مَنَا زَادَهُ اللَّهُ حِكْمَةً وَكَانَ ابْنُ يَعْقُوبَ أَمِينًا مُصَوَّرَا
فِيَجْمَعُنَا وَالْغُرَّ أَبْنَاءَ سَارَةِ أَبُ لَا نَبَالِي بَعْدَهُ مِنْ تَعْدَرَا
أَبُونَا خَلِيلُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ رَبُّنَا رَضِينَا بِمَا أَعْطَى الْإِلَهَ وَقَدَّرَا^{٧٤}

ور شاهد عيان ريتهم (حريرا والغردق) في مسجد دمشق والخرزدق
في عصنة من خندق والناس عتق على حرير قيس وموالي بني أمية - وهم
يسلمون عليه ويسألونه: يا أبا حُرَّة. كيف كنت في مسيرك؟ وقال عمارة بن
عقيل بن بلال: واقته في يومئذ مائة حلة من بني الأحرار^{٧٥}.

٧٣ مول بربري لبني أمية استبسل في إحماد فتنة يزيد بن المهلب عام ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م .

٧٤ ديوان حرير ١٨٦ - ٧ : القائلص ٩٩١ .

٧٥ الأغاني ٦/٦٥ : ابن سلام ٣٤٧ - ٨ .

البَابُ السَّادِسُ
الشَّعْرُ وَالْوَسْطُ الْفَنِّي

الفصل الأول

الشعر والتحول الثقافي

كان لازدهار الشعر في بيئة البصرة آثاره البعيدة على الإنتاج الفكري عامة. فقد لعب الشعر دوراً كبيراً في تطوير ألوان الثقافة وفروع المعرفة المختلفة التي شتهرت بها مدينة البصرة كما تأثر بها. وليس هذا بغريب، إذ أن لشعر كاعظم ساحة للعقيدة العربية قد تسلط في الإسلام كما كان الحال في الجاهلية - على العقل العربي، وأثر تأثيراً بعيد المدى على مجرى كثير من التيارات الفكرية في الإسلام. فقد كان لتقدير الكبير الذي أسبغه عليه الأمويون أثره القوي في ردّ ماله من اعتبار. وفي استعادة الأرض التي حاول لإسلام لأسباب معلومة أن يزريحها من تحت "قدماء لشعراء". وقد اعتبر هؤلاء الأمويون المدرسة الدينية وفلسفية واللغوية وغيرها من المباحي الفكرية التي كانت تنمو في نفس الوقت - بالمقارنة في مستوى أدنى من ناحية التقييم الرسمي. ويكاد لباحث يحس بأن المشتغلين بهذه الأعمال الفكرية كان يُنظر إليهم بعين الريبة وتشكك السلطة الحاكمة في ولائهم للمضام القائم. فمعظم عساء البعة - ما خلا أبا عمرو بن "علاء"^(١)

١ انظر الباب الثاني

٢ ياقوت: إرشاد ١٦٤/٧ - ٥

اتهمو مبيهم للحوارج^(٣) أو لشيعة^(٤) أو رموا بالتخليط^(٥) ومعاداة العرب^(٦). ولم يشجع الحنفية وعماهم على لأمصار العلماء الذين كانوا يسدون من ذات أنفسهم لإقامة صروح علوم المختلفة التي لم يكتمل بدؤها وستتم أمرها إلا بعد سقوط الأسرة الأموية. فإن عالماً كقنادة من دغامة السدوسي (ت ١١٧ هـ / ٧٣٥ م) ونندي توترت شهرته في الخلف كثقة في رواية الحديث^(٧). لم يبل ما أسفه عليه حنفاء بني أمية من نوال وعطاء إلا لتضعه في رواية شعر وأخبار العرب^(٨)

وقد وطدت هذه النظرة لرسمية للشعر من سبطانه وأكسته رغبة القبائل العربية المتفردة في إحياء أمجادها العذبة روحاً جديدة مما جعل للشعراء صوتاً قوياً داوياً وأمددهم سلطان لا يستهان به. وما دام الشعر قد سيع هذه شترة من القوة في العصر الأموي فإن نظرة التقدير والإحلال لن تقتصر على ما استحدث من شعر وإنما تمتد إلى جذور هذا الشعر المستحدث. ومن ثم أصبح شعر الجاهلي لسان العرب الأصلاء وديوان أمجادهم - باطراد المقياس الذي لا تقاس به جودة الشعر فحسب بل الفصاحة ولبلاغة من حيث هي^(٩). وأخضع العلماء القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ - التي تعتبر قمة البلاغة والفصاحة - لنفس المقياس. وشمروا عن سواعدهم يبحثون ويقبون عن الشواهد في شعر الجاهلي ليبرهنوا على فصاحة كثير من الكلمات ولعبارات التي وردت في القرآن والحديث. وإذا أعوزهم الدليل وصب معين ما حفظوا من شعر دون حاجتهم لجأوا إلى المحل والتزوير.

٣ نفسه ١٤٠/٦ ؛ الزهرة ٨

٤ العقد المرید ٤٧/٢ ؛ إرشاد ياقوت ٢٩٧/٧

٥ الزهرة ١٧ ؛ ٨٤ .

٦ المزياني: الموشح ٤١ .

٧ ابن سعد ٢/٧ ص ١ - ٣ ؛ الجاحظ: البيان ٢٠٤/١ - ٥ .

٨ ابن سلام ٥١ - ٥٢ ؛ إرشاد ياقوت ٢٠٢/٦ - ٣

٩ اطر الباب الأول ص ٦٧ .

ولأمر اظام الذي يذكر في هذا الصدد أن المشغلين بالدراسات المحيطة لأخرى وقعوا في اطراد تحت تأثير هذه الاتجاه الطاعي. وقد يوضح قوة هذا الاتجاه السلفي الذي يستمد وحيه من بلاغة الجاهلية أنه حتى الموالي ممن كان بعضهم كارهاً للعرب مبالغاً في عداوته لهم لم يستطيعوا التخلص من سيطرة الشعر الجاهلي على عقولهم

ويمكن القول في تفسير هذه الظاهرة بأن معظم المشتغلين في هذه الحقول لعلمية كانوا من غير لعرب ممن كانوا يذلون قصارى جهودهم في العمق في عربية حتى يبرزوا لعرب في لسانهم^(١٠). وبالتالي فقد تقبلوا بالتسليم في حياتهم الاجتماعية والعقلية مقياس الذي اعتره معاصروهم من العرب وعمدة والمثل لأعلى. وقد كان للهبوط المنطرد في مستوى الفصححة الدعوية لدى العرب الذين سكوا الحواصر ولدي صاعف منه سيل المهاجرين من غير العرب الذي اكتسح لأمصير ومدن الجزيرة العربية على السواء - أثره الكبير في نبوة الاتجاه العلم نحو تقدس الشعر لتقديم باعتباره مستودع النعمة العربية الفصيحة البعيدة عن الشوائب.

وكان لا بد للحماس الذي اتسمت به حركة الشعر وتسجيله والبصرة الحادثة التي نظر بها بعض المعوين إلى هذا التراث من أن تترك آثارها على لعلاقات التي توشجت بين الطبقة لصاعدة من علماء النعمة وبين معاصريهم من شعراء^(١١). وكون البصرة أول مركز هذه النهضة العامة في الدراسات الأدبية واللغوية أمر كبير لدلالة على أن معظم الشعراء المنحوب في البصرة وبالتالي في العصر الأموي نفوا شعرهم في نفس الوقت الذي كان فيه العمماء البصريون يبحرود للوجود كقوة فعالة في المجتمع الأمر الذي لا يستطيع الشعراء على الأقل إعفائه بحال من الأحوال. والواقع أن أبعاد هذه النهضة الأموية امتدت إلى أكثر من مجرد إبداع

١٠ منه ص ٤٦ - ٤٧ ، ٤٩

١١ ص ٦٥ ، ٦٦

هذه الفروع المختلفة من العلوم التي اردهرت في تلك لفترة فأنثرت بأشكال مختلفة على الأساليب التي نظر بها شعراء إلى شعرهم ونظموه بمقتضاها. ونفس القدر في هذا التأثير لم يكن من جانب واحد. بل إن أثر الشعراء على هذا النشاط الفكري كان حقيقياً وبعيد المدى. ولكي نقوم دورهم في هذا المجال يجب أن نتذكر دائماً أن هؤلاء العلماء الذين عاشوا في المصرة في العصر الأموي كانوا محدودي بسياج تخصصهم في استنباط وإرساء قواعد الفنون والدراسات الشعرية، وإن أمر جمع ودراسة الشعر ما كان احتكراً لهم مقصوراً عليهم، بل إن مجموعات أخرى من بينها شعراء كانوا أكثر منهم نشاطاً في هذا المجال. فقد كانت الرغبة الملحة لجمع الشعر القديم ودراسته وثيقة الاتصال بالمحى العام لسطور لاجتماعي والديني والسياسي للمجتمع الأموي وكان هذا النشاط في بعض حواشيه - اتجاهات شعبيّاً، وبرزت إلى وجود مجموعات مميزة في شكل رواة اهتمت بجمع ما استطاعت العثور عليه من شعر لتلبية الحاجة العامة ولضبط التزايد لشعر. وكان اهتمام كثير من هؤلاء الرواة لا يتركز في دراسة الشعر قدر ما يتركز في طب التسمية والترويح عن الحفقات ومحاليس البلاط^(١٢). وكان اهتمام الشعراء به لا يقتصر على ما يمدحهم به من مادة تاريخية وقبلية مما يدخل في نسج نظمهم، بل يتعدى ذلك إلى النظرة العامة التي يطرأ هؤلاء الشعراء إلى الشعر القديم كأرضية أو خلفية أساسية لا غنى عنها لأي إبداع شعري. ولذلك فقد اعتبر الاشتغال برواية الشعر ميسم الشاعر اعمل فقد سئل رؤبة بن لعجاج عن الفحل من الشعراء فقال هو الراوية، يريد أنه إذا روى استفحل^(١٣). وقد قال رؤبة هذا :

لقد خشيت أن تكون ساحراً راوية مرأ ومرأ شاعراً

ويدعم حكم رؤبة على الفحولة نشاط شاعر كثر ردى الذي تلقى ابحارانه

١٢ ابن سلام ٥٠ ؛ انظر شوقي ضيف: التطور والتحديث في العصر الأموي .

١٣ ابن رشيقي: العمدة ١٩٧/١

في هذا المجال الكثير من الضوء على الحفمية الثقافية التي ارتكز عليها لتقليد الشعري في البصرة. فقد وصفه الجاحظ في بيانته بأنه راوية الناس وشعرهم وصاحب أحبارهم^(١٤) وقد عنه ابن قتيبة انه خير روية لشعر امرئ القيس^(١٥). وقد توة الاحباريون روايته لشعر الحطيئة^(١٦) وقد توة الفرزدق على منابع ثقافته الشعرية عندما ياهى بقدماء الشعراء الذين ورث عنهم الشعر فقال :

وأبو يزيد وذو القروح وجروول	وهب القصائد لي النوايح إذ مضوا
حلل الملوك كلامه لا يتحل	والفعل علقمة السذي كانت له
ومهلل الشعراء ذاك الأول	وأخو بني قيس وهن قننه
وأخو قضاعة قوله يتمثل	والأعشيان كلاهما ومرقش
وأبو دؤد قوله يتمثل	وأخو بني أسد عبيد إذ مضى
وابن القريعة حين جد القول	وابنا أبي سلمى زهير وابنه
لي من قصائده الكتاب المجمل	والجعفري وكان بشر قبله
كاسم خالط بجانبه الحنظل	ولقد ورثت لآل أوس منطقاً
صدعاً كما صدع الصفاة المعول	والحارثي أخو الحماس ورثه
وهن من جملي عماية أثقل	يصدعن ضاحية صدعا عن منها
فورثهن كأنهن الجند ^(١٧)	دفعوا إلي كتابهن وصية

وإحساس الشاعر العميق بمنجزات أسلافه من الشعراء يتمثل في القصيدة التي رواها أبو عبيدة الذي قال: تني رجل من بني تميم الفرزدق، فقال. قد قست شعراً فانظر فيه. وأنشده. فقال الفرزدق: يا ابن أخي إن الشعر كن حملاً دراً عظيماً

١٤ الجاحظ: البيان والثنين ٢٥٦/١ .

١٥ سر قتيبة الشعر والشعراء ٧٠/١ ؛ العقد الفريد ١٠٩/٨ ؛ الأغاني ٢٧/١٩

١٦ العمدة ١٩٨/١ .

١٧ الموشح ٣٦٣ .

فأُحد امرؤ القيس رأسه. وعمرو بن كلثوم سنامه. وعبيد بن الأبرص فحده. والأعشى عجزه. وزهير كاهنه. وطرفة كركنه. والنابتن حببيه. وأدركتاه ولم يبق منه إلا الدارع والبصون فتوزعته بيننا. فقال الحزار: لم يبق إلا الفرث ولدم وقد تعيت وقمت لكم فروا لي به. قنا: هو لك. فأُحد الفرث ولدم فطبخه وأكله ثم حرثه. فشعرك من حرث الحزار. فقال: هذا رأيت^(١٨) فبنته لا ذكرته لأحد بعدك^(١٩) وقد يكون أبو عميدة لفق لقصة ونحلها الشاعر. ولكن قيمتها تتركز في دلالتها على شيوع الاعتقاد بأن الفرزدق متضلع في رواية الشعر بتقديم وحفظه^(٢٠). كما تدل على ذلك أبياته السابقة وكان الشعراء الفحول أمثال دي الرمة^(٢١) وعمر بن أبي ربيعة^(٢٢) يسألونه رأيه في شعرهم. وما كان الفرزدق رغم شهرته بدعاً في ذلك بل كان واحداً من كثيرين نهلوا من نفس المورث وترجموا عين التقليد كما ذكر هو في إحدى قصائده^(٢٣). وقد كان النقد الحصيف الذي وجهه إليه لقصري لمعاصريه من الشعراء أمام الوليد بن عبد الملك شاهداً على ذلك^(٢٤).

وما دام شعراء متصعين في الشعر وروايته فهم أحق الناس بالحكم على بعضهم. وقد قمت معظم المباحثات بينهم من جراء أحكام نقدية أصدرها شاعر عن آخر. أو من جراء تحيز طرف ثالث لشاعر صدر كما حدث في قضية انزع الطويل بن حرير والفرزدق وقد عمقت الاعتبارات القبية والعوامل السياسية والاجتماعية الأخرى من هذه منازعات الأدبية^(٢٥) وجهتها الوجهة التي نشهدا في النقائص والواقع أن النغمات لاجتماعية التي صاحبت كثيراً من أنون المشاص

١٨ البيهقي: المزهري ٢/٢٩٨.

١٩ الموشع ٣٦٢ : الحزامة ١/١٠٧.

٢٠ الموشع ٢٠٦.

٢١ ديوان الفرزدق ٢/١٦٠.

٢٢ النقد الجديد ٦/٢٠٥ - ٢١٠.

٢٣ نظر الباب الثاني ص ١٠٨.

نُقدي جعلت شعراء شديدي الحساسية لما يوجه إلى أشعارهم من نقدرات، وتُسم رد الفعل عندهم بـ «العنف والمبالغة في ردع الماديين». وفي مثل هذا الجو المتكثف الذي تلنجم فيه المشاعر القبلية والتعبير الشعرية أو تكاد يصبح انشعاق بين هذين معصرين من لصعوبة تمكان^(٢٥). ولعل هذا يقصر لنا ما نلاحظه من أن معظم الذين أبدوا آراءهم في الشعر كانوا من الشعراء الذين يستطيعون أن يكتفوا بصراع صاعين إذا ووجهوا بالنقد والضحك. وقد أحجم كثير ممن كانت لديهم الملكة ومقدرة عن إبداء آرائهم في شعر معاصريهم خوفاً من العواقب كما حدث للمهلب اس أبي صبرة حين ضلوا منه التفصيل بين حرير والعرزدق فرفض ودلّ المسائلين على من يهون عليه أمرهما عبدة بن هلال الخارجي^(٢٦).

وقد كان مما يضعف موقف كثير من علماء اللغة الأوائل في هذا ميدان أن معظمهم من المتوالي. وبالتالي فقد كانوا أكثر تعرضاً للهجاء وتنجيح كما حدث نعبسة الفيل وعبد الله بن الحضرمي مع نعرزدق^(٢٧). فعلى الرغم من أن عبسة لدى إعجابهم بالقيمة الفنية لشعر جرير وقد عبد الله ما اعتبره أخطاء نحوية في شعر العرزدق^(٢٨). إلا أن هذا الأخير تجاوز هذه الدوافع الحقيقية للنقد، واندفع به حزم أصل هذين لعلمين وولاءهما وقد هاجم العرزدق أبا عمرو بن علاء لسبب لم تذكره المصادر، ثم رجع عن ذلك وحاول استرضاءه، فقال :

م رئتُ أفتح أبواب وأعلقها حتى أتيت أبا عمرو بن عتار^(٢٩)

٢٤ نفسه: «ومثال ذلك ما حدث حين التقى الراعي والأحطل عند بشر فسألهما أيكما أشعر فقال الراعي: وأما الشعر فالأمير أعلم به ولكن والله ما تخضت تعلية عن مثلك». (ابن سلام ٤٤٢ - ٣) وكانت

أم بشر مثل الراعي قبيحة

٢٥ انظر الباب الثاني ص ٩٣ .

٢٦ انظر الباب الخامس ص ٢٩٢

٢٧ ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٣٥/٦ - ٦ : الموشح ٩٩ ، ١٠٠ - ٢

٢٨ الخاط: البيان ٢٥٦/١

ولكن ذلك لم يرض أبا عمرو الذي قال :

محويت رتـن ثم حثت معتلـد^(٥٩) من محو رتـن لم تهب ولم تدع^(٦٠)

ويظهر أن تخصص هؤلاء لعلماء الأوائل الصيق وهما مهم اخامشي بالشعر كوسية مدحه بالشواهد التي تدعم مناهجهم المحوية والبعوية قد حصر بقدهم وقصره على حوالب من الشعر يعتبرها الشعراء بالطبع مظهر حاسبة ليست من لب التحرية الشعرية. فمعضمة بقدرات ابن الحصري كدت تتركز في الجانب المحوي ولحكمم الأدبي لوحيد الذي ورد عنه كثير شعر شعراء الإسلام - يكـد يقضه كل القاد الآخرين^(٦١). ولكن لحيط الثقافي المتطور في سرعة كان يسعد على حق الظروف والتسهيلات التي تفتح الأبواب أمام أولئك لعلماء الذين يهتمون بالشعر لداته. فقد ذكرت المصدر أن أما نوال بن أبي عقرب كان معلم أبي عمرو وشعبة بن الحجاج (٨٥ - ١٦٠ هـ)^(٦٢). فكان أبو عمرو يسأله عن الشعر وسعة وكان شعبة يسأله عن الأحاديث، ولا يكتب أحدهما ما يكنه الآخر^(٦٣). وقد أصبح أبو عمرو بن علاء هذا العمدة في الشعر وبقده وبمرور الزمن تطورت علاقة بين العلماء والشعراء من العداء ولتحرش إلى ضرب من الاعجاب المتبادل. وعنى لرعم من أنه كان لعمدة في نهاية لطاف القدح المعلى في أمر التأثير على محرى شعر كما سيتضح له بعد قليل إلا أن الجو العام كان مهيناً لاعتقاد العلماء والشعراء عن بعضهم بعضاً. إذ أن كلا الجانبين كان معرضاً لنفس المؤثرات الثقافية التي صقلت عقليات المفكرين وأحضرتهم لتقيم والمثل الثقافية السائدة. فالموقف امتعالي الذي وقفه الفرزدق حين هجا ابن الحصري وحاصبه مع غيره من المحويين

٢٩ للرهة ١٥

٣٠ ابن سلام ٤٤ : السيوطي. الزمر ٢/٢٩٩ .

٣١ ابن سعد ٢/٧ ص ٣٨ : اليان والتسين ٨٦/٢ .

٣٢ الزمر ٢/١٩٤ : انظر الباب الأول من هذا الكتاب ص ٦٧ - ٦٨ .

في تحدي بقوله. «عليّ أن أقول وعليكم أن تحتجوا»^(٣٣). لم يحل بينه وبين طلب معونة ابن الحصري، معنية في إصلاح خطأ في شعره منه إليه نقد^(٣٤). وقد تبه العلماء من جاءهم إلى الثروة الضخمة التي حصل بها انتاج معاصريهم من الشعراء مما أرضى ظموحهم العظمى واهتماماتهم المعوية. وكان يونس بن حبيب (٩٠ هـ ١٨٢ هـ) يقول. لولا شعر المرزوق لذهب ثلث المعية^(٣٥). ولعل هذا هو لسبب اندي حبيب شعر هذا الشاعر للعلماء بالقدرة بانتاج جرير^(٣٦). وقد سخر جرير من ذلك ولم يأبه به واعتبره أمراً عافياً لسيرة الشعر لأنك قل أن تجد عالماً واحداً بين مائة من الرجال^(٣٧). وهناك في الواقع دلالات تشير إلى أن الصعوبة السببية ونوعورة التي يجهد بها شعر الفرزدق بالمقارنة شعر جرير - وإن كنت في حدودها الدفينة وليدة مرح عاطفي وعقلي اختص به الفرزدق - قد تحكمت فيها اعتبارات نابعة من اختلاط الشاعر بالعلماء والنحاة. قال ابن سلام: كان يداخل في الكلام وكان ذلك يعجب أصحاب النحو^(٣٨). وقد لاحظ ابن الأثير تعلّق الشاعر بهذا نصنيع فقال: كأنه كان يقصد إلى ذلك في شعره ويتعمده لأن مثل هذا لا يجيء إلا متكئاً مقصوداً^(٣٩). وقد عروا عن الجهد الذي يبذله المرزوق في شعره بقولهم السائر: الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر^(٤٠).

وفي الحقيقة إن أحكام هذا الشاعر النقدية الكثيرة المنتشرة في كتب الأدب^(٤١)

٣٣ ابن دينة الشعر والشعراء ٣٥/١.

٣٤ الموشع ١٠٠.

٣٥ إرشاد باقوت ٢٥٩/٧ ؛ البيان ٢٥٦/١.

٣٦ الأعاني ٧٢/٧ ؛ انظر الباب الثاني ص ٩٨.

٣٧ الباب الثاني ص ٩٩.

٣٨ ابن سلام ٣٠٨ ؛ وانظر ٣٠٩ - ٣١٢ لتنازع ؛ الأعاني ١٥/١٩ - ١٦.

٣٩ الجامع الكبير ١١٤ ؛ الموشع ٩٠٤.

٤٠ ابن سلام ٣٨٧.

٤١ انظر ابن سلام ٤٤ ؛ المهر ٢٩٩/٢ في امرئ القيس ؛ ابن سلام ١٠٥ في الناجية ؛ نصح ٤٦٨، =

وتصلعه في اللمعة ورواية الشعر جعلته أقرب إلى مجلس عماء عصره من أي شاعر آخر ما خلا رؤبة بن العجاج. وليس من قبيل الصدف أن يثني عليهما أبو عمرو من العلاء بقوله: «لم أر بدوياً أقام في الحضر إلا فسد لسانه غير رؤبة والفردق»^(٤٢) والواقع أن منجزت الشعراء على الصعيد الثقافي قد أجبرت العماء من نواح عديدة على تغيير مواقفهم المتصلبة من شعر المعاصر. فنهج أبي عمرو بن العلاء المتشدد في تناول لغة والذي اضطره ليقم كل شوهده على الشعر الجاهلي كما رأينا من قبل^(٤٣). قد لاق وألس حين واجه جودة شعر عمر بن أبي ربيعة والذي اعتبره أبو عمرو حجة في اللمعة^(٤٤). وقد اضطرت جودة شعر معاصريه من أهل البصرة يقول: «لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى هممت بروايته»^(٤٥). وعلى العموم فلم يكن أبو عمرو من الناحية العملية معادياً للشعر الذي يؤلف في أيامه على الرغم من منهجه المتزمت الذي كان يرى في الشعر الجاهلي مثل الأعلى الذي لا يحاري. وقد دأب تفصيله البالغ لشعر الأخطل والذي قال عنه: «لو عاشر الأخطل يوماً واحداً في الجاهلية لما فضلت عليه أحداً»^(٤٦)، وجهه الشديد شعر بشار بن برد^(٤٧) على أنه لم يكن منصرفاً الانصرف كله للتقديم أو أن إعجابه به كان دائماً على حساب الحديث. فقد راجع بين شعراء عصره وبين من رآهم مثبتهن لهم من الجاهليين. فكان يشبه جريراً بالأعشى والفردق بزهير والأخطل بالناعة^(٤٨). وحكمه

٤٢: ميسج ١٧٢ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، الحزاة ١٠٧/١ في ذي الرمة ، الموشج ٢٠٦ في عمر بن أبي ربيعة .

٤٢: ميسج ٢٠٤/١

٤٣: انظر الباب الأول ص ٦٨ .

٤٤: الموشج ٢٠١ ، ٢٠٢ ، الأصمعي : فحولة الشعراء ٤٩٩ .

٤٥: ميسج الشعر والشعراء ٧/١ ، الزهر ٣٠٤/٢ .

٤٦: الأعشى ١٧٢/٧ ، ١٧٣ - ٤ ، ١٧٧ - ٨ .

٤٧: ميسج ٢٦٣

٤٨: نفسه ٣٨/٧ ، انظر ٩٤/١ ، ١٢٠ ، الشعر والشعراء ٤٤٨/١ ، ابن سلام ٥٥ .

المشهور «ختم الشعر بذي الرمة والرجز برؤبة»^(٤٩) يؤكد إعجابه بما كان يقوم به معاصروه في ميدان نظم الشعر، وملاحظته لذكية عن طبيعة شعر ذي الرمة ذي الأثر الموقوت والذي سرعان ما يصمحل ويذول^(٥٠). لم تنقص من إعجابه كبير هذا الشعر حتى في حضرة أمير صدرم منضلع في اللغة ولشعر محب للعجل كبلال بن أبي ردة (ت ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م)^(٥١). ففي ختام حديث عفيف بين الأمير والشاعر حول القراءة الصحيحة لبنت جاهلي احتار أبو عمرو توسط بأن صحح كتنا للقراءتين، وعندما سأله بلال إن كان يأخذ عن ذي الرمة في شواهد المعوية أجاب بأنه فصيح ولكننا نأخذ عنه بسمريض أي بتوهين^(٥٢). وعندما خرجا من عنده قال ذو الرمة لأبي عمرو: والله لولا أنني أعلم أنك حظطت (حطبت) في حبله وملت مع هواه لهجوتك هجاء لا يقعد إليك شأن بعده^(٥٣). وفي مرة أخرى عندما وضّح أبو عمرو بذي الرمة ما يجب أن يقال في الردّ على انتقاد وجهه بلال بن أبي ردة نقصبة أشده يد الشعر، قال ذو الرمة: «أما عمرو أنت مهرد في علمك وأنا في علمي وشعري ذو أشباه»^(٥٤).

ومثل هذه وصلات لحيمة بين شعراء وعلماء كانت وليدة لطروف التشابه التي وجد الجاهل أنفسهم فيها. فإن اجتماعهم المتصلة مع بعضهم في ملاط الحفء ومجالس الأمراء وعتادهم تقريباً على نفس المصدر لكسب لقمة العيش قد منحهم إحساساً بأنهم ينتمون لبعضهم بعضاً. قال عيسى بن عمر^(٥٥) (ت ١٤٩ هـ):

٤٩ الأغاني ١١/١٦ ؛ المزهري ٣٠١/٢ ؛ ابن خلكان: وفيات ٥١٣/١ .

٥٠ الأغاني ١١٥/١٦ ؛ ابن سلام ٤٦٧ ؛ الموشح ١٧١ .

٥١ ابن سلام ٤٨٣ .

٥٢ الأغاني ١٢٢/١٦ ؛ ابن سلام ٤٨٣ - ٤ .

٥٣ الأغاني ١٢٢/١٦ ؛ ابن سلام ٤٨٣ - ٤ .

٥٤ الموشح ١٨٠ .

٥٥ انظر الباب الأول ص ٦٥ ؛ والباب الثاني ص ١٠٤ .

قدمت من سمر فدخل عبيّ ذو الرمة الشاعر فعرضت لأن أعطيه شيئاً فقال : أنا وأنت بأحد ولا نعطي^(٥٦) . وقد تطورت العلاقات بين هذين الرجلين إلى الحد الذي أصبح فيه عيسى بن عمر يكتب شعر ذي الرمة^(٥٧) . وليس هذا مدعاً في العلاقات فقد دلت الصريقة التي عبّر بها حرير عن إعجابه وتلذذه بإشاد أبي عمرو لشعر المجنون حين نزل حرير به وهو في طريقه من الشام عما يمكنه لشعر لعالم من تقدير كبير^(٥٨) .

هذه العلاقة الوثيقة بين شعراء ولعلماء لم يقتصر أثرها على التقريب بين الجانبين في مجال العلاقات الشخصية فحسب. بل كان لها أثر بعيد في تطور الشعر نصري خاصة ولأموي عامة. فاهتمام العلماء بالملفوظ وتعبير العرب الأوضح، وإيمانهم بأن المصدر الحقيقي لهذه الثروة يقع في الصحراء أحدث أثره على حياة شعراء وصاعتههم من جوانب عدة. فإن لمكانة المرموقة التي بدأ هؤلاء العلماء يحتلونها في المجتمع بطراد والأهمية المتزايدة التي نالوها عمقت من إحساس الشعراء بمتطلبات اللعوبين والمحاذاة. وأصبحت الصحراء بمثابة الدردو (أرض الذهب) للعلماء والمحدثين ودلّ اندعر الذي اعترى ذا الرمة عندما تأكد من أن ليس قد اكتشفوا مقدراته على الكتابة والقراءة - وهي من علامات التحضر ودلت التبريرات الواهبة التي احتلقتها لينفي عن نفسه تهمة الكتابة^(٥٩) على حرصه البالغ على ألا يشك العلماء في (صلاحياته) كبديوي قحّ. وقد عاب عليه بعض هؤلاء العلماء سكوته بصرة وكنهه ليقول والمواضع ولكن ذلك من مميزات الحضرة^(٦٠) . وهكذا

٥٦ العقد الفريد ٣٤٧/٢ ؛ إرشاد ياقوت ١٠٢/٦ .

٥٧ الخاقاني : ديوان المعاني ٢١٠/١ ؛ المزهري ٢٢٠/٢ ؛ وانظر الباب الثاني ص ١٠٤ .

٥٨ العقد الفريد ٢١٧/٦ .

٥٩ العسكري : ديوان المعاني ١٢٠/٢ ؛ الموشح ١٧٧ - ٨ ؛ المزهري ٢٢٠/٢ ؛ وانظر الباب الثاني من ١٠٤ .

أعلام ، وانظر الحزاة ١٠٢/١ شاهد آخر عن أبي النجم السجلي .

٦٠ الموشح ١٨٠ ؛ الخاقاني : سرّ الصاحبة ١٥٠ ؛ وانظر الباب الأول ص ٦٨ .

عدّ لشعراء الدين استقروا في المراكز المتحضرة أدنى درجة وصار شعرهم أكثر عرضة للرفض من قبل العامة كشاهد على الألفاظ المتصعبة ولأساليب البليغة كما حدث لتكميت والضمح^{٥٧} الذين اتبعا رؤية بن العجاج فهما كانا يسألانه عن العريب ثم يحده بعد ذلك في أشعارهما^{٥٨}. وقد رأى أبو عمرو بن لعلاء في إقامة جرير ونمرودق الصويلة في الحضر عيباً بالغ لحظورة^{٥٩}

وقد أدى هذا ترحيب من جانب فقهاء الملة بالأعراب المتبدلين كرواة للغة موثوق بهم إلى تدفق أعداد غفيرة من روة البدو إلى مصر. وأصبح هؤلاء المصدر الذي استقى منه علماء البصرة مادتهم الأساسية^{٦٠}. وقد قدرت الكتب التي سجل فيها أبو عمرو ما نقله عن هؤلاء البدو بأنها كانت تملأ بيتاً حتى السقف ولكنه أحرقها جميعاً في لحظة من لحظات الضغوط النفسي أو العقلي أو النسب^{٦١}. وعسى أن يكون هذا التعلق بمظاهر الحياة البدوية هو الذي أوحى بالمسلكت المتكثف نشعر كروية لم يعهد فيه مداومة لسكن في الصحراء إذ أنه كان يقيم في مصر ويفشى دوووين الأمراء. ولكنه رغم هذا التمسك بحياة الحاضرة ظل يأكل لفتراان جهر في المدينة، ولما عابوا عليه ذلك قال لهم: هو والله أطف من دوجنكم ودججكم النواني بأكلن الأقدار، وهل يأكل لفتراان لا نقى البر ولذات اطعام^{٦٢} وكانت حتى الطريقة التي يرتدي بها ملابسه مقصوداً بها الإثارة ولفت الأنصار.

٦١ الموشع ٢٠٨ ؛ الحماني: سر الفصاحة ٣٣٥ ، الأعالي ١٨/٢ .

٦٢ من قبة: الشعر والشعراء ٥٦٧/٢ ؛ انظر ديوان الطرماح مقدمة كرنكو ص ٢٤ .

٦٣ الأعالي ١٨/٢ ؛ الموشع ٢٠٨ ؛ الحماني ٣٣٥ .

٦٤ أنه هؤلاء الرواة بدو (أعالي ١١-١٠٤)، أبو جبر (الرهة ١٦ ، فهرست ٤٥) . أبو يوسف .

أبو سريّة، الأعطش (الرهة ١٠٩/١)، أبو ضئصم (الشعر والشعراء ٥/١ ، العقد الجديد ١٥٨/٦)

وظر بيئة البصرة لبلال (باريس) ١٣٧ - ١٣٨ .

٦٥ انظر الباب الأول ص ٩٧ .

٦٦ الأعالي ٨٧/٢١ ؛ من قبة الشعر والشعراء ٥٧٦/٢ .

فقد ذكر أبو زيد الأنصاري أن رؤية دخل السوق وعليه برنكان أخضر فجعل الصبيان يعشون به ويغررون شوكه انحل في برنكاه وبصيحوا به يا مردوم يا مردوم. فجاء إلى الولي فقال أرس معي الورقة فإن الصبيان قد حلو بي وبين دخول السوق. فأرسل معه أعواناً فشدد على الصبيان فمروا من بين يديه فدخلوا داراً في الصيارفة^(٢٧) وما كان الصبية ليمعلوا به كل ذلك لولا أن مطهره كان من اعرابة بمترلة كبيرة حتى عي انصريين لدين يزدحم سوق إبلاهم المسمى بالمرند شتى الأصناف ولألون من سدو الأمر الذي يجعل أرياءهم مهما بلغت من نعمة مألوفة حتى في أعين لصية العثين. وقد أصبح رؤية هذا (ت ١٥٤ هـ) من أكثر اشدت في رواية اللعة قال عنه صاحب الأعاني «وقد أخذ عنه وجوه أهل اللعة وكانوا يقتدون به ويحتجون شعره ويجهونه إماماً»^(٢٨) وقد كان له ما يمكن أن يسمى بصالون اعتد عقده كل جمعة في حارة بني تميم بالصرة. وكان العلماء يرتادون محسه ويسألونه عن اللعة والغريب، وكثيراً ما افتخر اللغوي الشهير يونس بن حبيب بأنه غلام رؤية^(٢٩). والواقع أن معرفة رؤية العميقة للغة وسحر التي حبيته إلى عشاء نبصره لا تخفى في إنتاجه. قال المحكم بن قسّر كما نقعد إلى رؤية يوم الجمعة في رحمة بني تميم فاجتمع يوماً فقطعنا الطريق. ومرّت بنا عحوز فلم تقدر على أن تجوز في طريقها فقال رؤية :

تنح للعجوز عن طريقها إذ أقبلت رائحة من سوقها

دعها فما النحوي من صديقها^(٣٠)

وقد بيع من تصلح رؤية وأبيه العجاج في اللغة أنهم كانوا كما يقول ابن جني

٢٧ نسخة ٨٩ .

٢٨ نسخة ٨٤ .

٢٩ الأعاني ٨٥/٢١ ، الزهر ٢١٨/١ .

٣٠ الأعاني ٨٩/٢١ .

في خصائصه يرتحلان أهدأ لم يسمعه ولا سقا إليها^(٧١). وكانت مكتنهم لدى
فقيه النعة لا تنزع. عن الأصمعي قيل ليونس: من أشعر الناس؟ قال: العجاج
ورؤية. فقيل له: م ولم نعر الرجاز؟ فقد هم أشعر من أهل القصيد، بما الشعر
كلام فجوده شعره^(٧٢). وعندما مات رؤية قال الخليل بن أحمد: دف الشعر
واللغة والفصاحة اليوم^(٧٣).

والواقع أن ما قيل عن إدخال لكيت والطرماح الغريب الذي يسألان رؤية
عه في شعرهما ولطحات العيفة التي وجهها رؤية لذي الرمة حين اتهمه بسرقة
شعره^(٧٤). كلها تشير إلى علاقة لوثيقة بين هذا الضرب من الشعر الذي يسطحه
هؤلاء الشعراء وبين نشاط لعلماء وفقهاء اللغة. وقد حلّى هذه لقصة عقبة بن رؤية
بن العجاج حين تحدّى بشار بن برد بقوله: أنا والله وأبي فتحد للناس رب الغريب
وباب الرجز والله في حلق أن أسدّه عليهم^(٧٥). وبالنظر إلى هذه لعلاقة فليس
من الشطط أن يقال إن بعث شعر الرجز في الشكل الذي اتخذه في شعر العجاج
ونه رؤية وغيرهما من رجّز العصر الأموي، بل والعاسي - كان حاصعاً في
كثير من جوانبه منضات الغويين والنحة^(٧٦). وقد كان رؤية يعي كل ذلك.
وكانت عيونه دوماً مركزة على النحاة والعلماء حتى في مدائحهم للأمراء. فعندما
مدح نصر بن سيار قال:

إذا الرواة بلغوا ما أهدي فلا يغرنك مني بعدي
وأنا في تخيري وجدى إذا تنحلت جياذ القدي

٧١ المزهر ١/١

٧٢ الأغاني ١ ٨٩/٢١ المزهر ٣٠١/٢

٧٣ الأغاني ١/٢١

٧٤ ابن دنبة الشعر والشعراء ٢/١٦٦

٧٥ الأغاني ٣/٣٧.

٧٦ شوقي صيف: التطور والتجديد.

يلتمس النحوي فيها قصدي مجدت نصراً وهو أهل المحدث^(٧٧)

وفي قصيدة أخرى يمدح فيها القاسم بن محمد الشنقي وصح مبلغ لجهد وإعمال الفكر والصناعة الذي يبذله في تأليف شعره حين قال :

ما أنا بالفاني ولا المغمر أنسج نسج الصنع المحبر
كيف تراني انتحي في الدفر على قضيب الذاهبات الشبر
لا ينظر النحويّ فيها نظري وإن لوى لحيه بالتحكر
وهو دهّيّ العلم والتعبّر حتي استقامت بي على التيسر^(٧٨)

وتعتبر لأساسي لهذا لحشد العظيم من الألفاظ المتوعة والحوشية التي تبدو لنا وكأنها تصكّ آذان مستمعها وقد حيرت بعض كبار علماء اللغة في حينها^(٧٩) يتركز في الحجة «لغوية»، وشاهد على ذلك كثرة ما تستشهد به معاجم اللغة ومضائنها من شعر رؤبة وأبيه العجاج^(٨٠). وقد عبّر رؤبة عن حاجة عصره المدحة لمثل هذه المدة لغريبه حين أبدى سخطه على إلحاح يونس بن حبيب وملاحظته إياه بالأسئنة إذ قال: حتى مني تسألني عن هذه الأناطيل وأروقها لك؟ أما ترى الشيب قد بلغ في رأسك ولحيّتك^(٨١)؟.

ولا ينبغي إلى أي مدى كان رؤبة وأبوه العجاج يعكسان في نشاطهما اللغوي والشعري همة تيميمية متميزة^(٨٢). إذ أن علماء اللغة نادراً ما يشيرون إلى ذلك في معاجمهم. بل يستشهدون بأشعارهما على اللغة في عمومها ومما يجدر به ملاحظته

٧٧ ديوان رؤبة ٤٨ .

٧٨ ديوان رؤبة ٦١ ، وانظر الأعالي ٨٩/٢١ لعناية رؤبة الفائقة بإرضاء النحاة في نظمهم .

٧٩ من فنية: كتاب المعاني ٤٧٨/١ .

٨٠ دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية مادة العجاج .

٨١ ابن قتيبة الشعر والشعراء ٥٧٦/٢ ، السيرافي: أخبار النحويين ٣٥ .

٨٢ ابن سلام ٦٥ ، الموضح ٢١٧ .

في هذا المجال انه على لرعم من أنه لا شك في أن معظم الألفاظ والتعابير في رجزهما تعكس ظروف الحياة القاسية الخرداء في الصحراء وأنها تمثل جساً صحيحاً من لثراث لغوي منافع. إلا أن مدى شيوع مثل هذا الحوشي من الكلام يحتاج إلى تحقيق ويطر ويظهر أنه كان محدوداً جداً. فلم يكن يبدو عمة مولعين انضيمة بمثل هذه الأوابد التي تكبد الدهر وتلوي السان، والتي يحمل بها هذا "شعر ارحري. ولدى وصفه أحد المحدثين بشعر المتن^(٨٣). ففي مجال المفاضلة بين شاعرين يقولان شعر أسلس نسبياً من هذا الرجز فضل أهل البادية كما يقول من سلاء حرير على فرردق وكان الفرردق مولعاً بالعريب^(٨٤). وليس معنى ذلك ما نشك أن تكون لبادية مصدر هذا التراث الحوشي. ولكن لذي يدعو إلى شك هو تيسر هذه المذحيرة المستعصية لكل من هبّ ودبّ حتى في أعماق صحراء وادي يحب أن شبه له في هذا الصدد أن هؤلاء الشعراء نرحار وأمثانهم ادلوا جهوداً مضية في المحث ولتقيق وتمرسوا بصصاعتهم عن طريق الدراسة كما فعل نظروهم من فقهاء النعة المنهجين في الأمصار. وقد عرّ العجب الذي أبداه رؤية من بلاعة أبي مسم الحراساني فليل سقوط الدولة الأموية عن بعض هذا يدق. نا الله ما رأيت أعجمياً أفصح منه. وما ظننت أن أحداً يعرف هذا الكلام غيري وغير أبي^(٨٥).

والواضح أن العجاج ورؤية ومعظم روة البدو ما كانوا بدواً "خلاف عادين يؤحدون حبط عشواء كماذح لعامة ساكني الصحراء من البدو، ونكهم بعكس ذلك كانوا نتاح النشاط الثقافي في البصرة وتأثيره القوي على الصحراء. فمثلاً هؤلاء الرواة الذين أصبحوا في بعد ثقتاً في اللغة والشعر عرفوا ما كان يريد منهم التعويون

٨٣ شوقي صيف: التصور والتجديد .

٨٤ ابن سلام ٣١٦ ، الموشح ١١٥ .

٨٥ الأعاني ٨٧/٢١ .

هذبوا الجهد للتمكن من صياغتهم ولتزويد أنفسهم بالمعرفة التي اشتهروا بها في مقل الأديم. فمعظم شعراء الذين أعرقوا في تصوير مظاهر الحياة البدوية كانت لهم بعض اصلاات بتلك الحياة ولو لبعض الوقت من حياتهم. وتوقف الكثيرون منهم معارفهم من الصحراء التي أخصبها ما كان يحدث في المصر من نشاط. وقد أدت تطوعات هؤلاء الأعراب إلى حياة أفضل وأغنى في الحواضر التي تعج بالمدنات والمتع إلى ثورة أو قل نشاط ثقافي مماثل مركزه البادية ذاتها ويدور حول دراسة لشعر والمعة. فقد أصبحت الصحراء مصنعة لتطوير «السخامات» ومد المصر بما يحتاج إليه من مواهب ومواد. فعندما حاصم أبو نحية الراحز التميمي أناء وهو صبي عادر البصرة وأقام في الصحراء حيث تأدب وتعلم كيف ينظم في فني القصيد والرحر حتى اشتهر^(٨٦) وأصبح فيما بعد أستاذاً للحبيمة الوليد بن يزيد الأموي^(٨٧). ومثل هذا حدث لذي الرمة الذي كان في بداية أمره معسماً بالبادية^(٨٨) ثم انتقلت شهرته إلى عبد الملك بن مروان عن طريق شهادة جرير وقرزوق^(٨٩).

وما اقتصر الأمر على اتعلم بل إن رغبة هؤلاء سدو الجامعة في لفت أنظار سامعيهم من أهل الحضر واستدراار إعجابهم شجع الاتجاه نحو سرقة انتح الآخرين وانتحاله. وقياساً على الأمثلة الكثيرة التي انتحل فيها الشعراء أشعار غيرهم وكان الفرزدق فارس هذا الميدان^(٩٠) - فإنه من المحتمل أن يكون كثير من هذا الشعر الذي نكته شعراء مدوون من أقدموا بالبادية قد انتقل بواسطة هؤلاء شعراء الذين هاجروا إلى الحاضرة وأصبح يسب إلى هؤلاء الياقين. ولأمثلة على ذلك كثيرة.

٨٦ نفسه ١٣٩/١٨ - ١٤٠

٨٧ ابن المعتز: طبقات ٦٣ .

٨٨ الموشح ١٧٠ ؛ ابن سلام ٤٦٧ .

٨٩ موشح ٢٣٩

٩٠ مصر تحت لسان الثاني ص ١٠٦

وما مثلت أي حجة في هذ المجال وانتحاله حتى لشعر معاصره رؤبة والذي يسكن معه في نفس مدينة بعبد^(٩١). وقد اضطر رؤبة أن يقول له مرة: يا أبا نخيلة ألم ننهك أن لا تعرض لشعري إذا كنت حاصراً، فدا عبت فشأنت به ! ثم وصل معه إلى حلّ بين بين حين قال له: إياك وإياه ما كنت بالعراق فإذا أتيت الشام فجد منه ما شئت^(٩٢). وبكفي لتقدير عدد الشعراء الذين اندثرت ذكراهم أو سرق شعرهم أن يذكر هذ ما رواه ابن قتيبة عن ثلاثة شعراء من بني سعد بن تميم لم يستقلوا إلى المصراع فصاع شعرهم الرجزى، ويذكر أن درة رؤبة بن الجراح التي اعترضها النقاد خير شعره: وقاتم الأعماق خاوي المخترق^(٩٣) هي مما نصمه أحد هؤلاء الثلاثة^(٩٤).

وهكذا أصبحت الصحراء بحاج إنحائها للرواة الذين اعتمد عليهم لغويون مساعداً لثراء الشعر الذي يصور حياة البادية، والذي كان يحذر رواحاً كبيراً في أوساط منحصرين لأسباب اجتماعية تذكر في موضعها. واستمرت الصحراء لفترة طويلة مسحوراً راحراً بالبحر لما المصراع بالمواد «الخدم» في شتى المبادي كما أسفد. والشعراء البدو الذين شععوا فنهم الجمالي بمعرفة دقيقة بالذعة تحت تأثير الحركة الثقافية في البصرة كذي الرمة ورؤبة ظهرت آثارهم واضحة في أعمال النخبة وأصحاب المعاجم النعوية. وقصيدة ذي الرمة «أحجية العرب»^(٩٥). وهي ضرب من الشعر التعليمي تدول فيها الشاعر أكثر من عشرين لغزاً تدور حول حياة الصحراء تقوم خير شاهد على العلاقة الوثيقة بين هؤلاء الشعراء والعلماء.

٩١ الأغاني ١٨/١٤٠ ، ١٤٥ ، الموضح ٢١٩ ، ٢٢٠ .

٩٢ الموضح ٢١٩ ، ٢٢٠ .

٩٣ ديوان رؤبة

٩٤ ابن قتيبة. الشعر وشعراء ٥/١ .

٩٥ ديوان ذي الرمة ١٦٩ - ١٨٣ .

وكان أثر النشاط الثقافي على الشعر من جانب آخر ذا فعالية من حيث صقل عقيدت الشعراء بحكم احتكاكهم المباشر بحملة الأفكار والداعين لها من ذوي النظر في فلسفة والكلام وسياسة وما شاكلها مما كانت تعج به البصرة والكوفة وغيرهما من الأمصار. والواقع أن الشعراء لكبار الذين أصبحوا من المحول كالمرزوق وجرير ودي الرمة ورؤبة وشار في مرحلة متأخرة كانوا أفراداً ذوي ثقافة عالية شديدي الاتصال بالحركات الفكرية في عصرهم. وقد أسهم بعضهم فيها وشارك في تطويرها فقد كان المرزوق يتصل بحقيقة الحسن المصري ويشترك فيها بينما كان جرير يتم بحقيقة ابن سيرين^(٩٦). وكانت الروح العامة لهذه الحقائق تنسجم بالحدس والمناظرة والمناقشة. وقد أسهمت الصراعات الفكرية بين أصحاب المذاهب المختلفة كفسرية والحرية. وحو المارعات لعام بين امرق والأحراب السياسية الدينية مثل الشيعة والخوارج وما إليهم في خلق ذلك الضرب من الشعر القائم على الجدل والمنقضة. وروح الجدل ولشفاق هذه قد بلغت درجة كبيرة حتى بين أصحاب الاتحاد الواحد كما عبر عن ذلك ريد بن جندب شاعر الأزارقة من الخوارج حين نعى على أصحابه الفرق وهم يتهاوون تحت ضربات المهلب بن أبي صفرة :

قل نمنحين قد قرّت عيونكم	بفرقة القوم والبعضاء والخراب
كن ناساً على دين ففرقنا	قرع لكلام وحط الجد بالعب
ما كن أعنى رحالاً صل سعيهم	عن الجدل وأغناهم عن الحطب ^(٩٧)

واستعمل الشعراء نفس السجع الذي وصل قمته في نقائص جرير وهرزوق وعشرت الشعراء الذين التحموا معهم. وكانت النتيجة لذلك أن ما نتج في ميدان الشعر كان يمت - من ناحية الشكل إن لم يكن من ناحية لروح - بوشائج ورحم

٩٦ العقد الفريد ٦/٢٢٢ ، ابن سلام ٢٨٥ .

٩٧ شعر الخوارج ٣٥ الفطحة ٦٨

لأن الجدل والمناصرت تبي كانت تقوم في لمردين المتكلمين والمفكرين وأصحاب
المرق ولم يتحل هذا الاتجاه في مجال الشعر القبلي أو الخصومات بين الأفراد كما
حدث بين حارثة بن بدر الغدافي وأنس بن ربيع^(٩٨) فحسب بن نراه - وإن كان
على درجة أدنى - في ميدان الأفكار العمة والمعدني. فعندما نظم نقرزق بيته :

فإني أنا الموت الذي هو ذاهب بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

حلف بالطلاق أن حريراً لا يغسه فيه. فكان حريراً يتمرّع في رمضاء ويقول
أنا أبو حزرة حتى قال :

أنا المدهر يعني موت ويدهر خالد فحني بمثل الدهر شيئاً يضاوله^(٩٩)

ويمكن ملاحظة أثر المعكر على الشعر في منح محتمة. فآثر الحسن المصري
وتصاص والمتكلمين على شعر المرزوق ورجز العجاج واضح في المقطوعات الكثيرة
التي تحدثنا فيها عن الحمة ولنا والبعث وهجاء إبليس بصريقة تشبه طريقة اليعاط
وقد سلكت الإشارة إليها^(١٠٠). ولكن هذا الأثر يتعدى هذه لحدود التعليمية ولوعضية
إذ أن كثيراً من لأفكار التي كان الجدل يثور حولها في هذه المجالس كانت
تجد طريقها إلى شعر. سأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد الرجل يقول لا والله
بلى والله في كلامه. قال الحسن: لا يريد اليمين. فقال المرزوق: أو ما سمعت
ما قلت في ذلك؟ قال الحسن: ما كل ما قلت سمعوا. فما قلت؟ قال قلت :
ولست بمأخوذ بلغو نقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم^(١٠١)

٩٨ انظر الباب الخامس ص ٢٧٩ .

٩٩ الأغاني ٣٢/١٩ ؛ العمدة ٢٠٩/١ .

١٠٠ انظر الباب الخامس ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .

١٠١ ديوان المرزوق ٣٠٧/٢ ؛ ابن سلام ٢٨٣ - ٤ ؛ انظر هذه المكرة ديوان حريز ٤٥٤ ؛ النقائض

٧٥٤ ؛ ديوان دي الرمة ٢٩٤ . وانظر ما قاله المرزوق في حلقة الحسن عن مكح الحلائل في الباب
الخامس ص ٢٣٩ أعلاه .

وحو بصره الذي يعكس وضعاً اجتماعياً وسياسياً معتدلاً طمع الشعر بروح
مماثلة. فعلى الرغم من الثورات العيفة والصراع الداخلي الذي كانت البصرة مسرحاً
له، إلا أنها نهجت مهجاً معتدلاً في السياسة العامة وتقبلت حكم الأمويين كحقيقة
واقعة بحكم أنهم حماة الجماعة المسلمة^(١٠٢). ولم يكن هذا موقف دعاً من اعتبارات
سياسية فحسب. بل كان يصدر عن وجهة نظر دنية وفلسفية محددة تلورت
عن طريق إجماع الرأي العام المستنير في البصرة. ففكرة القدر وضروية الخضوع
لما قضى به الله تساهم على حو ما في تأكيد سلطة الدولة والتي اعتبرت موازية
لسلطة الجماعة المسلمة مساوية لها ومن المهم أن ننس هنا إلى أنه حتى الذين كانوا
يؤيدون آرائهم المخالف من القدرية أصحاب حرية لإرادة لم يقفوا دائماً موقف
العداء من الأمويين. فالحسن البصري رفض أن ينضم للثائرين على الأمويين ووقف
بحزم صد لعصاة^(١٠٣) وهو موقف جلب عليه سخط الخوارج^(١٠٤). ولكن الأمويين
رأوا في مذهب حرية الإرادة خطراً يهدد دولتهم فعذبوا معتقيه^(١٠٥).

وقد عكس الشعر، خاصة ذلك الموجه للأمويين، هذه الروح المعتدلة. وحتى
الشعراء الذين عرفوا بميولهم الشيعية، كابي الأسود الدؤلي وخرزدق، قدراً ما أظهر
هذه ميل في الشعر الذي وصفت عنهم. ومما يوضح أن تضاد بين فكرتي القدر
والحر كان محالاً فكرياً عما أكثر من مجرد عشاء واه لتدوير الانحياز السياسي
الحزب الشهير الذي دار بين دي الرمة المشهور بميوله القدرية ورؤيته الذي كان
يمثل اتجاه الجهر السائد في البصرة^(١٠٦)، حول قدرة الله على الإيذاء وقد أوردته

١٠٢ انظر الباب الأول ص ٦١

١٠٣ نفسه

١٠٤ ابن سعد ١/٧ ص ١٢٧

١٠٥ نفسه ١٢٢ قال حماد بن زيد عن أيوب قال: أنا ما زلت الحسن في القدر غير مرة حتى خوفته السلطان

فقال لا أعود فيه بعد اليوم

١٠٦ انظر ديوان رؤبة ٦ فحاء للقدرية

«شريف المرتضى في أمثله»^(١٠٦). وما يزيد هذا الأمر حلا ما رواه إسحق بن سويد أنه قال: قلت لذي الرمة وسمعت ينشد قوله:

وعينان قال لله كونا فكنت فعولان لألذبت ما من الخمر^(١٠٨)

قال: فقلت له: فهلاً قلت: فعولين. فقال: لو قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله وسه أكر كان حيراً لك^(١٠٩) يريد إسحق: كونا فعولين فينسب الفعل لله وهو رأي بدرية بينما يريد ذو الرمة: وعينان فعولان فينسب الفعل للعينين وهو اتجاه القدرية في حرية الإرادة.

أم الاتجاه معند الذي كان يستظم حياة البصرة الفكرية والسياسية على «أسوأ»^(١١٠) فقد عثر عنه الصنتان العددي في أبياته التي توضح في ذات الوقت نفور أهل البصرة من أصحاب المذاهب المتطرفة:

أرى أمة شهرت سيفها وقد زيد في سوطها الأصبحي
بنجدية وحرورية وأزرق يدعو إلى أزرق
فلننا اننا المسلمون على دين صديقنا والنبي^(١١١)

١٠٧ المرتضى: الأمالي ١٤/١.

١٠٨ ديوان ذي الرمة ٢١٣.

١٠٩ الأغاني ١٢٢/١٦.

١١٠ ابن سلام ٤٣٩ للراعي: وديوان الفرزدق ١٢/١، ٨٩/٢، ٣١١.

١١١ كامل المبرد ٢٤٦/٢؛ وانظر الرمة ٨ لأبيات نصر بن عاصم الذي رفض كل فرق الحوارج.

الفصل الثاني

البيئة وشكل الشعر

لنقوى الاجتماعية التي تتحكم في بناء الوضع الاجتماعي لأمة من الأمم تملي على مجموعة مبادئها الفكرية كذلك. والشعر - وهو من أقوى أدوات الفكر تعبيراً عن مدى وسرعة تعبير الاجتماعي يتأثر بالضرورة في شكله ومحتواه بما يحدث في المجتمع ككل والعلاقة بين الشكل والمضمون في الشعر علاقة عضوية في صميمها. وعدم حدوث معالجة أحد عصرها بمعزل عن الآخر قد أصبحت حقيقة لا تقبل الخذل في لقد المعاصر وهذا المفهوم لا ينطبق على وضع أكثر من إطفائه على موضوع الأسلوب الذي كثيراً ما عولج بعد تحريد وكأنه نشاط أدبي صرف لا يمت بوشيجة إلى خلفته الاجتماعية. ونحو ذلك في هذا الفصل أن ندلك دون أن نغرق في الظواهر الأدبية الصرفة على هذا المفهوم بما حدث في شعر البصرة في العصر الأموي وسنكتشف أن قدراً من شكل هذا الشعر وتركيبه كان إلى حد كبير وإن كان أدنى درجة في ذلك من محتواه نتيجة لعمول الاجتماعية التي تخضع ألواناً من الظروف في المجتمع تستلزم ضرورياً بعضها من وسائل التعبير .

وتقرر في اسدابة أن ضروب الشعر المختلفة وألوان الأساليب المتعددة التي حفل بها شعر البصرة ما كنت كنهها دائماً وليدة لتقاليد الأدبية متورثة بحيث يقال إن الأجدال اللاحقة ما كان لها فيها أكثر من فضل التناول والاقتباس. بل كان الكثير من هذه الضروب والألوان نتيجة مباشرة لظروف جدت في مجتمع البصرة. يتصور التآخر بالحياة، والعوامل المتحركة في هذه الظروف كثيرة. فهالك غير عامل الحضاري الواضح لأثر عوامل أخرى اجتماعية وثقافية أحدثت تنوعاً بعيد المدى في حقل الشاعرة الثقافي مما نجم عنه فروع متخصصة من المعرفة. وما كان للشعر وهو نشاط تقدي أن ينحصر من آثارها، فحكمت الظروف على الشعراء أن يتخصصوا لا في مادة الشعر وحدها، بل في الشكل الذي يحمل هذه المادة على سوء. وهكذا نجد - على سبيل المثال - أن بعث شعر الرجز وازدهاره في هذه الفترة كان نتيجة طبيعية لعوامل ثقافية واجتماعية معينة ما كان من الممكن هذا نصرت من الشعر لشعبي الذي تحافاه الشعراء منذ القدم. واحتقروا أن يتصور بدونها وحتى في هذه الفترة مدهية لاردهار الرجز ما كان كل الشعراء فرسان مبدعين. ولواقع أن كثيرين منهم واجهوا صعوبات كبيرة حين حاولوا العظم فيه وقد تظاهرت الروايات على أنه كان محالاً شبه محتكر تخصص فيه فرع بعينه من سبي عجم هم ببر سعد. فقد روى عن ذي الرمة أنه قال: «قلت للرجز، فمما ريتني لا أقع من الرحين (يعني العجاج ورؤبة) أحدث في عصيد وتركته». وقد علق صاحب الموشح على هذا الاعتراف بقوله: «كان لذي الرمة رجز مما خشي أن يعرّه عدد إلى القصيد»^(١) وواضح أن هذا التعليل من المردياني له اعتبار كبير في عافية ذي الرمة الذي كثيراً ما شكوا - كما سنرى - من أن معاصريه يهضمونه حقاً في الفحولة. وقد واجهت هذه الصعوبة حريزاً فقال: «واني لأرى من الرجز أمثال آثار الحبل في الثرى ولولا أني أخاف أن تستقر مني لأكثرت منه»^(٢). وهذه

١ المرزباني: الموشح ١٧٤ :

٢ الأعاني ٥٥/٧

الحبسية من جانب هذين الشعريين المحيدين تشف عما تحتهما من منافسة حادة كانت تنظم اشعرء المعاصرين حول موضوع استحيود وامتلاك ناصية الأداء الشعري ثم يزيد في فرصهم في التفوق المادي والأدبي^(١). وقد وضع هذه الماحية الفرزدق حين أبدى اعجابه بشعر عمرو بن حفص للخارجي فقال: «قد أحسن ما بين حطان حيث لم يأخذ فيما أخذنا فيه ولو أخذ فيه لأسقطنا، يعني خودة شعره»^(٢). ولم يكن هذا الشعور قصراً على الشعراء فحسب بل إن الجماهير الصغيرة التي تنفخ شعرهم وتستحيب له كانت تدري من ذلك الكثير. فعندما نظم أبو نخله في بداية حياته الشعرية قصيدة بمدح هـ مسامة من عبد الملك لم ترق للأمير حين أنشدتها إليه وبدأ عليه المنبل فخاطب الشاعر بقوله، فيما يروي صاحب الأعاني: «ممن أنت؟ فقلت: من بني سعد. فقال: ما لكم يا بني سعد والقصيد. وإنما حفظكم في الرجز»^(٣).

ونوقع أن رتاع الرجز إلى مرتبة الاحترام في العصر الأموي وتجاهه شهود محجى الشعر العربي العام - بعد أن كان يضرب في شاكل قاحة من قبل وثيق الصلة بالتطورات التي حدثت في مركزي التحضر بالعراق في الكوفة والمصرة. فقد كان الرجز فيما سلف يعتبر في مرحلة دون القصيد، وكان لرجز ونقرص تيار من مصصين والحديث عنهما في المصادر يكاد ينظم بمخزلة الشعر وأثر في مصطلح المحدثين. فقد قرأ أبو عبيدة: «ما زالت الشعراء تقصر بالرجز حتى قال أبو سجع: الحمد لله الوهوب لمحل، وقال لعجاج: قد جبر الدين الإله فحر. وقد رؤبة: وفاسم الأعماق حاوي المحترق. فانتصفوا منهم»^(٤). والحقبة التي وضحتها نلينو

٣ انظر الجاحظ: البيان والبيان ١/١٨٠ ، ٣/٢٧٢ (السندوني) لقائمة بأسماء الشعراء الذين جمعوا بين الرجز والقصيد.

٤ الأعاني ٣٠/١٥٥ ، وانظر الباب الثاني ص ١١٣

٥ نفسه ١٨/١٤٠

٦ نفسه ٩/٧٨

من قبل من أن هذا البحر أو قل هذا الضرب من الشعر كان أداة شعبية تنمي حاجة الارتحال^(٧) تفسر لنا احتقار كبار لشعراء في العصر الجاهلي له، وانصرافهم عن القول فيه إلا في حدود ضيقة حتى جاء العصر الإسلامي. قال النكري^(٨) : « ما كانت عرب في الجاهلية تطيل الأراجيز وإنما أظف المحضرمون والإسلاميون كالأعجب المعلي الصحابي وأبي النعم ولعماح ورؤة والرفيان السعدي وذو الرمة وخلف » .

وقد حدث أكبر تطور له على أيدي لرحار الأمويين الذين ارتفعوا به إلى مقام لا عترف به كشكل تعري يقف على قدم المساواة مع الشكل الآخر من شعر نذي سموه بالقصيد. وما كان هذا الماضي المليء بالاحتقار أن يروى بشكل حاسم بل بقيت منه ذكريات في عقول الناس كما يدل على ذلك قول النعير المنقري^(٩) في بحر البسيط حين هاجم الراجز رؤية :

ألا إراحير يا بس سموه نوعدي وفي لأراجيز حلب النوم ونفشل

ولوقع أن إمكانات الرجز المحدودة فيما يتعلق شتات الموضع بتقليدية خاصة اضء لا نحتج إلى الاطالة في الإيضاح. فعندما نرى جرير على هشام المرثي تفوق دي الرمة عليه في هذه بقوله : « عليك تعبد ! » (يعني ذا الرمة) ، فقال هشام : « قد أصنع يا أبا حررة وهو يقول التقصيد وأنا أقول الرجز ، والرجز لا يقوم للقصيد . فهو رفدتي ! »^(١٠) . وعمل هذا هو سر عدم تفوق رؤية والعجاج في مجال هذه^(١١) . وقد برر لعجاج هذا العجز بحجة وهية حين قيل له : « لم لا تهجو ؟ »

٧ الأدب العربي لثلبو (باريس) ١٤٦ + بلا ، بيئة البصرة (باريس) ١٥٨ - ١٦٠ .

٨ أراجيز العرب ٤ .

٩ المبرد : الكامل (المرصفي) ٣٨/٣ ؛ المحاظ : الحيوان ٨٨/٤ .

١٠ ابن سلام ٤٧٣ ؛ الأغاني ٥٥/٨ - ٦ .

١١ الأغاني ٨٨/٢١ .

فقال: ولم أهبو^{١٢} إن له أحساباً تمعنا من أن نظلم وأحلاماً تمعد من أن نضم، وهل ريتم نايباً لا يحسن أن يهدم؟ ثم قال: أعلمون إلي أحسن أن مدح^{١٣} قالوا نعم قل. فلا أحسن أن أحسن مكر. أصحك الله^{١٤} «فمحت الله». ويمكن «حباك لله» «أحرك الله»^(١٥). وقد رد ابن قتيبة فيما يروي ابن رشيقي^(١٦) هذا لقول عبي العجاج بأن شعاء أيضاً ساء وليس كل نان لضرب نايباً لغيره.

وكثيراً ما حاول العجاج تعادي لتعرض لشعراء القصيدة خاصة حرير الذي اشتهر بعنف هجائه ولذع لسانه^(١٧). قال روح الكلبي: كنت عند عبد الملك بن بشر بن مروان فدخل حرير فلما رأى العجاج أقبل عليه ثم قال له: والله لئن سهرت لك ليلة ليفتن عنك نفع مقطعاتك هذه فقال العجاج: يا أبا حنزة والله ما فعلت ما تدعك. وجعل يعتذر ويحلف ويخضع، فلما حرج قال له رجل: لقد اعتذرت إني حرير. قال: والله لو عدمت أنه لا ينفعني إلا السلاح لسلحت^(١٨) وحين تفرض عليهم الظروف الدحوى في معارك هجائية يشتبكون عادة مع رصفائهم من الشعراء الرحاز كما حدث في حالة العجاج مع أبي المحم^(١٩). ورؤية مع أبي نخيلة^(٢٠).

وليس من الشطط أن يشير هنا إلى ما أسلفنا القول فيه من أن نحو الرجز وتطوره في العصر الأموي له سمات مشتركة مع أوجه لطور النظم في المختلقة التي كانت تفتتح برعمها في هذه الفترة بلذات في مدينة البصرة. فقد كان عو

١٢ ابن قتيبة الشعر والشعراء ٤١/١، ٥٧٣.

١٣ ابن رشيقي العمدة ١١٢/١.

١٤ ابن الناب الثاني ص ١١٠.

١٥ الأعاني ٨٨/٢٩.

١٦ الشعر والشعراء ٥٨٢/٢، الحيوان ٧٠/٦، تليو ١٥٣.

١٧ الشعر والشعراء ٥٨٣/٢ - ٤.

الرحز - في حدهم استجابة لحاجة لغوية^(١٨)، وأهم من ذلك إحساس الشعراء
 الرحار - وقد وحدوا أنفسهم عذريين عن مناهضة الشعراء الذين يستعملون شكل
 تقصيد لتقصيدي ضرورة تطوير فهم بحيث يعبر عن مواضيع وأفكار تروق
 لسكان لحاضرة من العرب وترصي أدواق الباحثين من فقهاء النعة. وما هذا إلا يغفل
 في رسم مناظر الصحراء والمداينة في تصوير حيواتها وشجرها وما إليه إلا تعبير عن
 المسوية بالغة التي يحدهم متحضرون من العرب في اجتراح دكریات المادية التي
 رتبعت بها حياتهم الشعورية والعقلية لقرون طويلة، وكههم قد بعدوا عنها الآن
 فعل منطور الحضاري الطاعني الذي نقدهم إلى المصدر فلم يعد إلا حنين وانشوق
 لعزم لأضياف الماضي كما يحن الإنسان إلى أيام صوته ومواقع صباه. وما كان
 هذه الصلة بالصحراء أن تقطع، وهم وإن بعدوا عنها حصارياً يقعون في أطرافها.
 فقد كان عرب في أمصارهم يعمون أن منع ثقافتهم ومصدر نوحى فيها يتمثل
 في النصحراء، وكان الشعراء الرحار - مثلهم في ذلك مثل شعراء ابادية الذين سعوا
 في تصوير حياة النصحراء كدبي ارملة، يتنوب حاجة هؤلاء الحالمين من الحضرة.
 وسرعان ما قنن الرحز مظاهر الحياة لعرية الأصبنة التي يسعى المتحضر من
 العرب لحفظها ولتمسك بها وثبت بقلة بعيدة. إذ أنه كان في الماضي أداة في
 يد لأفراد نعادين يقولونه دوى تعمل في أناشيد العمل ورقص والحرب ولرعي
 والسقي. ومرداً لحوشي من المفظ فيه لا إلى تمثيلة النعة الحاهلية المصفاة بل إلى
 اختلاف النهج التي تتحدث بها الأفراد، ويتحدثها الشعر الذي ينظم
 القصيد لانه يتحدث في شعره بنعة الشعر المودحية التي اصنعها الشعراء نفعول،
 ولعله من هنا جاء احتقارهم للرحز .

أم في عصر الأموي فقد انعكست الموارد بشأن الرحز نسبة لتطور الاجتماعي
 اندي دكرناه، وأصبح الرحز بحق مستودعاً لثروت العرب في الصحراء من الناحية

الاجتماعية والغوية سأل متتبع السهائي - أحد رواة الأعراب - رجلاً من أعيان
النصرة عن اتبعين مدي ينتقد أسأوه، فقال له: الفرائص. فقال المتتبع: «ذاك
علم الموالي لا أدلك. علمهم ارجز فيه يهت أشداقهم»^(١٩). وقد دفع كل ذلك
الشعر للتسابق لإشباع الحاجات الملحة التي فرضتها ظروف الحياة الجديدة. وقد
كان هذ لتسابق يصل أحياناً إلى حدود المبالاة والمفارقات. فعندما اتهم عجاج^(٢٠)
أو روبة^(٢١) التكميت ونطرماع بأنهما كانا لا يفهمان العريب الذي كان يسأله
عه، ثم يجده بعد ذلك في شعرهما وقد وضعاه في غير مواضعه. كان محققاً حين
قيل له: ولم ذاك؟ فقال: لأهما قرويان يصمان ما لم يريا فيضعانه في غير موضعه،
وأن بدوي أصف ما ريت، فضعه في مواضعه^(٢٢). وقد أوقع مثل هذا السوء الكثيرين
في مواضع النحر. فقد تعرض دو الرمة لذي كان معلماً بالبادية ويكثر من الحضور
لنصرة وقد اعتبه أبو عمرو حجة في لفصاحة^(٢٣)، تعرض لخرج بالغ حين تصدى
نه خياط في مرند البصرة فبين له أخطأه في وصف الطلول وتشبيهه بحبوبة بعز
(لولا مدريهاها وذنها). فقام دو الرمة وذهب ولم ينشد بعدها في انريد حتى مات
الحياط فيما يروي صاحب الأغاني^(٢٤). وقد حصل شعر ذي رمة هذا دلوان مشرقة
وأنحت بأقية لحية الصحراء^(٢٥). وما أنجره في هذا الميدان يوضح مدى رواج
شعر الصحراء لذي سع في بلاط الأئمة وحقت العدماء فعلى لرعه من تهم رؤية
نه سرقة أشعاره^(٢٦) ومجابهته له بذلك أمام ممدوحه بلال بن أبي بردة^(٢٧). وعلى الرغم

١٩ كامل المبرد (المصري) ١٩٣/٤.

٢٠ الأعاني ١٨/٢.

٢١ الموشح ١٩٢.

٢٢ الأغاني ١٨/٢.

٢٣ موشح ١٩١ - ٢ لأصمعي صحوة شعره ٥٠٣.

٢٤ لأساني ١١٨ ١٦ - ٩.

٢٥ انظر عبد الله الطيب: شرح أربع قصائد لذي الرمة، وشوقي ضيف: التطور والتجديد ٢٦٥.

٢٦ الأعاني ١٢١/١٦. ٢٧ نفسه ١٢٣.

من تعاق مدصريه على أنه لا يحسن أن يهجو أو يمدح^(٣٨). إلا أن فيه كان يلقي الإعجاب من ممدوحيه الذين يترحه إليهم بشعره^(٣٩) والغريب في أمر هذا الشعر أن أقل ما فيه هو مدح الممدوح. فقد كان اهتمامه بضمه يطغى على موضوعه الأساسي في المدح، فهناك قصائد بطولها في ديوانه قصد بها المدح، ولكنه في الواقع يصرفها إلى وصف الرحلة ومظاهر الصحراء. ففي قصيدة استعرت سبع صفحات من ديوانه المطبوع في كمبردج^(٤٠) لا نجد إلا بيتاً واحداً فقط فيه اسم الممدوح في حين وهب القصيدة لحياة الصحراء. وفي قصيدة أخرى مكوبة من تسعة وستين بيتاً في مدح عبد الملك بن بشر بن مروان^(٤١) لا ينام الممدوح منها سوى أربعة أبيات. وكذلك الحال في قصيدة أخرى من تسعة وخمسين بيتاً لا يتفضل فيها على ممدوحه عبيد الله بن معمر إلا بأربعة أبيات^(٤٢). وقل مثل ذلك في قصيدته في عمر بن هبيرة^(٤٣) وغيرها من القصائد.

وعلى الرغم من أن تحويد ذي الرمة في هذا الضرب من الشعر قد أثار عليه حسد حرير والفرزدق فيما يروي الرواة^(٤٤)، إلا أنه ما كان كبير المرتبة في مقياس الشاعرية العام، لأنه قصر ملكته الشعرية على موضوع محدود الأبعاد نسبياً محدود الجمهور، وقد لاحظ الشاعر نفسه المكانة المتواضعة التي أحلها إياه معاصروه في ميزان الشعرية. فسأل الفرزدق: وقد رآه يعجب بقصيدة أشدها إياه - لم لا أعد في الصحوب؟ فقال له الفرزدق: يمنعك من ذلك صفة الصحارى وأبعاد الابل^(٤٥).

٢٨ نفسه ١٢١ : موشح ١٧٢ ، ١٧٦ : العمدة ٢٠٦/١ .

٢٩ انظر رأي بلال في الأعالي ١٢٣/١٦ .

٣٠ ديوانه ١٣٢ - ٨ .

٣١ نفسه ٣٥٥ - ٣٧١ .

٣٢ ص ٥٤٧ - ٦٠٠ .

٣٣ نفسه ١٨٤ - ١٩٢ .

٣٤ الأعالي ١١٢/١٦ ، الخزائن ١٠٦/١ .

٣٥ ابن سلام ٤٦٨ ، الموشح ١٧٢ ، الخزائن ١٠٧/١ .

وضيق مجاز الشاعرية هذا ما كان مقصوداً على ذي الرمة الذي وصفوه بأنه ربيع شاعر لهذا السبب^(٣٨). فقد كان هناك شعراء آخرون متخصصون. فقد اعتبر ابن فسوة خير من يصف الإبل وما كان يخلو له شعر من وصفها كما يقول الأصفهاني^(٣٩) وقد سخر شاعر من استغراقه في هذا النشاط حين هجاه بقوله :

أودى ابن فسوة إلا نعتة الإبل^(٤٠)

ورأى المعاصرون في عمر بن لجأ أنعت الناس لخلوب في الرجز كما يقول الأصمعي^(٤١). وقد حلب له هذا التخصص سحرية جرير حين هجاه في الديوان بقوله :

أوصفتم أحسن الكريم بناته لكن بات أيلك غير كرام^(٤٢)

وقد مال الراعي لذي عاش في هذه فترة لقبه هذا نتيجة لتوسعه في وصف النوق^(٤٣) فقد قال عنه الأصمعي^(٤٤) : « به أنعت الناس لخلوب في تقصيد ». وقد لاحظ جرير استهتاره في هجاء قومه من بني هوازن من جهة وتغانيه في مدح النوق من جهة أخرى فعبر عن هذه المفارقة في قوله يهجو :

وقرضك في هوازن شر قرض تهجنها وتمتدح الوطابا^(٤٥)

والظاهر أن نصيب الراعي لجمال الشعري قد فرضه هو على نفسه بصريقة

٣٦ الموضح ١٧٢ ؛ دائرة المعارف الإسلامية الأولى مادة دي الرمة

٣٧ الأعالي ١٩/١٤٣ .

٣٨ نفسه .

٣٩ الأصمعي : فحولة الشعراء (ZDMG) ٥٠١ .

٤٠ ديوان جرير ٤٢٧

٤١ الأعالي ٢٠/١٦٨ ؛ ابن سلام ٢٥٠ ؛ فحولة ٥٠١ .

٤٢ فحولة الشعراء ١ - ٥ .

٤٣ الأعالي ٢٠/١٧١

إرادة لا معجز في شاعريته. فقد كان الرجل شاعر مضر بشهادة أبي عبيدة^(٤٤) وقد وصح بن سلام ذلك حين قل: «كان يقال له في شعره: كأنه يعتسف الغلاة بلا دليل، أي أنه كان لا يحتذى شعر شاعر ولا يعارضه»^(٤٥). وكان ذلك منه حرصاً على الأصالة. وعموراً من التقيد في عصر اشتدت فيه المنافسة بين الشعراء. فم يبق أدم المجيدين منهم غير الشخصين وتحدد الحال ولعل هذا الموقف - أكثر من تغبب جرير عليه (كان محل مضر حتى ضغمه البيه - يعنون جريراً^(٤٦)) - هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى اصمحلال شأنه كشاعر بعد ظهور شعراء واسعي الأفق النعري يروق إنتاجهم المتنوع لقطاعات أوسع من الجمهور المتلقي للشعر، وعلى رأس هؤلاء جرير والفرزدق.

وقد دلت رهاقة الحاسة لنقدية والاهتمام البالغ بالشعر وتذوقه - مما كان يظهر في ملاحظات المدحجين من الحكام والأمراء وغيرهم من جمهور الشعر - على أن شعراء كانوا مدحجين - في احتيادهم لمجالات تخصصهم - برعة قوية في التحديد لإرضاء جمهور ذواق لا يرحم، مسلح بالمعرفة الشعرية. فعمدا وصف رؤية سائي الفرس بأنهما:

يهوين شتى ويقعن وقفا

بدره الأمير سم بن قيسه بقوة: أخطأت في هذا يا أبا الجحاف، جعلته مقيداً، وكل ما استصاع الشاعر أن يدفع به عن نفسه قوله: «أدني من دنس التعبير أصحه لك كما يحب»^(٤٧). ونوقع أن تخصص رؤية ونعاج ما كان في الخيل بل كانا صاحبي إبل ونعتها كما يقول ابن سلام^(٤٨).

٤٤ انفاص ٤٢٧ .

٤٥ الصقات ٤٣٤ .

٤٦ نفسه ٤٣٥ : ديوان جرير ٥٨ - ٦٥ .

٤٧ الأعبي ٩٠/٢١ - ٩١ : الشعر والشعراء ٥٧٧/٢ .

٤٨ الصقات ١٠٧ .

ومثل هذه المشق في واحدها هؤلاء الشعراء وهم ينضمون شعرهم تقي صرءاً مفيداً على الطبيعة الانتقالية للمرحلة التي كانت تمر بها بيئتهم في البدو الذين جتدبتهم حياة الحضرة بما فيها من مباح وفرص للثراء كانوا يفقدون من جراء انتقالهم للأحصار الصنة بحياة الصحراء الحقيقية، ولكن بما أنهم كانوا يتحدثون من هذه الصحراء مدة لأشعارهم التي يتكسون بها، فكان لرمأ عبيهم أن يعوضوا عما يمكن أن يكون قد فاتهم من ذلك عن طريق التعلم وحفظ الشعر القديم والإتكاء عليه كمثال يحتذى، ولم يكن ذلك مقصوداً على الأعراب في الإسلام وحسب بل كان ذلك أمر كثير من الفحول الجاهليين الذين كانوا في كثير من الأحيان يجتروا ثقافة ويخضعون لموصعات وقولب هبة يتألفها الحلف عن السلف ويبد رسوماً، يد أنهم ما كانوا يعيشون كل ما قالوه أو وصفوه في أشعارهم ودعوى تعجج لسافة مد يدوي يصف ما يرى فيضعه موضعه. لا تقبل على علاقتها نسبة للأخطاء الكثيرة التي كان يرتكبها وهو يصف مظاهر عديدة من مظاهر الصحراء لا تمتد على الندوي الحقيقي المتمرس بحياة الصحراء فعندما وصف حمار وحش مفرداً نهه يدوي إلى أن حمار الوحش لا يكون مفرداً بل تصحبه إناثه وأشدّه في ذلك شاهداً من الشعر^(٤٩). أما أخطاءه رؤية ومعارفته فأكثر من أن تحصى وكلها تسير إلى جهل ببعض حقائق الطبيعة عن حياة الصحراء والشعر الجاهلي المتعلق بها فحين قال :

كنتم كمن أدخل في جحر يدا فأخطأ لأفمي ولاقى الأسودا

جعل الأفمي دون الأسود وهي فوقه في المضرة كما يقول لأصمعي^(٥٠). وفي بيت آخر أخطأ في وصف الظنم فجعل له عدة إناث كما يكون للحمار وليس لنظنم إلا أنثى واحدة^(٥١). وهناك أمثلة كثيرة أخرى أوردها الأصمعي في الشعر

٤٩ الشعر والشعراء ٥٧٣/٢ .

٥٠ نحه ٥٧٩ .

٥١ العسكري: كتاب الصناعتين ٩٥ .

وشعراء لاس قتيبة^(٥٢). وهناك أخطاء ممثلة أحصيت ندي الرمة في وصف الكلاب
والإبل والنساء وما إليها^(٥٣). ويجب أن نلاحظ هنا أنه بنفس القدر كانت عدم
معرفةهم لدقيقة بحياة الحاضرة توقعهم في أخطاء تبعث أحياناً على الصحت، كأن
يقول رؤبة: «أوفضة أو ذهب كبريت»، فقد سمع بالكبريت الأحمر فظن أنه
ذهب^(٥٤)، أو حين يجعل العجاج الزحاج يرشح^(٥٥)، أو حين يظن أبو نعيمة ن
الفسق ضرب من البقول^(٥٦).

ونواقع أن ارتباط تطور شعر الأموي خاصة في النصورة بالشعر الجاهلي التقليدي
يمسّر إلى حدّ كبير عبء العناصر البدوية عليه ليس في المضمون وحسب كما
رأب من قبل^(٥٧)، بل في لغة الشعر ومجازه، ولا يستثنى من ذلك حتى الشعراء الذين
عاشوا في الحاضرة طوال حياتهم. ولكن حركة التعبير لاجتماعي مسّت حتى هذا
الشعر التقليدي وأثرت فيه من جوانب متعددة كما رأب.

وكان أثر الحياة الدينية كبيراً وقد نهنا في الفصل السابق إلى أثر القصاص
ووعاط في هذا المجال. والحقيقة المتمثلة في كون الرحر وهو أعظم ألوان الشعر
محافضة - أكثرها تعرضاً لمثل هذا التأثير الديني تنفي المزيد من الضوء على اندفاع
الكلمة وراء بعث هذا الضرب من الشعر، وهي بهذا تؤكد أن هذا الشعر - على
الرغم من ارحامه بشي الصور عن حياة الصحراء وأفكارها - لا يعبر بالضرورة
عن مشاعر بدوية حقيقية بقدر ما هو - في عمومها - صور مصنوعة تلائم حاجات

٥٢ الشعر والشعراء ٥٨٠/٢ - ٣.

٥٣ نفسه ٥١٨/٢ - ٩؛ الأعاني ١١٨/١٦ - ٩؛ الموشع ١٨٠، ١٨٣ - ٥.

٥٤ ديوان رؤبة ٤١؛ المهر ٣١٣/٢.

٥٥ الشعر والشعراء ٥٧٤/٢.

٥٦ نفسه ٥٨٤.

٥٧ انظر الباب الخامس الفصل الأول.

الحاضرة وخاصة حاجات العلماء والمتعلمين. وهذا العامل الديني لم يؤثر على معنى والمحتوى فحسب بل أثر أيضاً على الشكل والأخيلة الشعرية .

ويبرر هذا في أوضح صورة في نحي بعض الشعراء خاصة النعناع ورؤية عن المقدمات الطلية انتقيدية في كثير من اشعارهم ، واستدالها بمقدمات دينية ودعية^(٥٨) . وقد أحسن شعراء آخرون بالحاجة إلى إدخال عناصر إسلامية فيما كان يعتر عنه بأساليب قديمة فبدل من أن يطلب ذو الرمة من الله السقيا لصاحبيه كما يقضي العرف الجاهلي يخاطبهما مرة بقوله :

ولا زلتما في حبرة ما بقيتما وصاحبتما يوم الحساب محمد^(٥٩)
ويقول لهما في مناسبة أخرى :

يا صاحبي انظرا أو كما درج عال وظل من الفردوس ممدودا^(٦٠)
وقد استعمل شعراء كثيراً من المؤسسات والأفكار الإسلامية وكثيراً ما يجدها إلى جانب الصور لتقليدية. وهكذا نجد بقايا المسجد تجد مكانها في المقدمة الطلية إلى جانب الآثار الأخرى المعهودة كما يمثلها بيت ذي الرمة :

عفت غير آري وأعضاء مسجد وسفع مناخات رواحل مرحل^(٦١)
والمسجد كهم بناء في المجتمع الإسلامي ظهر أيضاً في هجاء جرير للفردوق في بيت اعتبره الفردوق أقسى ما هجي به وذلك في قوله :

ودت سكية أن مسجد قومها كانت سواريه أيور بفال^(٦٢)

٥٨ انظر ديوان العجاج ١٤ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٤٠ ، وديوان رؤبة ٢٥ .

٥٩ ديوان ذي الرمة ١٢١

٦٠ نضه ١٣٢ ، وانظر ٣٠٤

٦١ ديوان ذي الرمة ٥٠٢ .

٦٢ ابن نض ٣٢٢ ، ١٠٥٣

وقد استعمله الفرزدق في النسب أيضاً حين قال :

تهدى إلى بيت الصلاة كأنها على الوعث ذئ ساقٍ مهبط كسيرة^(٦٣)
 واستخدم جرير المصحف أيضاً في المقدمة الطللية ليصف ما عهد من أربع^(٦٤)
 وثر الإسلام على التركيب الداخلي للشعر أبعد مدى من كل ذلك. فقد
 استعمل ذو الرمة فكرة الثواب الإسلامية ليصور بها تفاني الثور الوحشي في مهاجمته
 كلاباً للصيد حين قال :

فكر يمشق طعماً في حواشئها كأنه الأجر في الإقبال يحنسب^(٦٥)
 وعنده يهرم نفس الثور لكلال ويشد في اقرب يصور اشاعر سرعة الحري
 مستعيناً بصورة الشياطين التي تسترق السمع فتسلط عليها اشهب الواردة في القرآن^(٦٦) :
 كأنه كوكب في إثر عفرية مسوم في سواد الليل منقضب^(٦٧)
 وقد وصف نفس اشاعر حرباء الصحراء معهود وقد سلفته شمس بقوله :
 كأن يدي حربائها منشمساً - يدا ملذب يستغفر الله تائب^(٦٨)
 واستغلت الشعائر الدينية في تصوير الأفكار المحددة كما قال ذو الرمة وهو
 يصف نوم صاحبه :

سقه لكرى كس النفس ورأسه لدير لكرى من آخر الميل ساحد^(٦٩)
 واستعاروا تشبيهات القرآن ومجازه بتوسع ليحدثوا لأثر المطوب. فحين أراد

٦٣ ديوان الفرزدق ١/٣٩٣ : القلائص ٥١٧ : واطر القلائص ٧٩٠

٦٤ القلائص ٥٧٩

٦٥ د. ٢٥

٦٦ سورة الحن ٨ - ٩ .

٦٧ د. ٢٦

٦٨ ن. ٥٩

٦٩ ن. ١٣٠ : واطر ١٥٨ : ١٥٩

جرير أن يبين ضلال الفرزدق ونزعه قال :

ضللت ضلال السامري وقومه دعاهم فطوا عاكفين على عجل^(٧٠)

وحين أراد الفرزدق أن يدلل على وضاعة أصل جرير قال له :

صرت عليك المعكوت بنسجها وقضى عيبك به الكتاب المنزل^(٧١)

وأحياناً تقتبس آيات ما أكملها مع تحوير طفيف كما جاء في بيت لفرزدق حيث ضمنه آيتين كريمتين^(٧٢) :

دعوت الذي سوى السموات أيده والله أدنى من وريد وألطف^(٧٣)

ويظهر أثر لينة الحضرية أيضاً في الاستعارات والتشبيهات التي أوجت بها مظاهر المدنية المتعددة. فجرير يستعين بصفة الساء في تصوير ضخامة ساقه حين يقول :

لها محرم يطوي على سعدائها كطي الدهاقين البناء المشيد^(٧٤)

ويستعير ذو الرمة مشهداً حضرياً مألوفاً لتصوير حركة ذيل الناقة :

كما ذببت عنراء غير مشيخة بعوض القرى عن فارسي مرفل

بأذنان طؤوسين ضمت عليهما جميعاً وقامت في بقر وقرفل^(٧٥)

وقد صوّرت الحيوانات في حيوبة وإشراق حين استعان الشعراء بالأحنية المستوحدة من صيغة الحدة المحصورة الغنية. فكثيراً ما حلّى العجاج ثور لوحش برهى الألوان

١٠ مدائن ١٦٥ - رعر سورة ض ٨٧ - ٨٨

٦١ مدائن ١٨٣ - رعر سورة معكوت ٤١

٧٢ سورة الداريات ٤٧ وسورة ق ١٦ .

٧٣ الفرائض ٥٥٣ .

٧٤ نسه ٤٧٩ ؛ وانظر ديوان العجاج ٢٧ .

٧٥ ديوانه ٥١٠ - ٥١١ .

وكسده أفحم الثياب التي يلبسها المترفون. فقد وصف الثور بنصراني المدح بملامس العيد في قوله :

عاد إلى كتاسه كما يعود العيد نصراني

وبيعة لسورها علي^(٧٦)

وقد صوّر نفس الشاعر مشية ثور آخر بقوله :

يمشي كمشي المرح الفخير

سرول في سراول الصفور تحت رفل السند المزرور

أو مرزبان القرية المخمور دهقن بالتاج وبالتسوير^(٧٧)

وكثيراً ما استعان العجاج بمشية الأمير لتصوير مشهد الثور وهو يتبختر .

يمشي بأنقاء أبي حبريسر مشي الأمير أو أخي الأمير

يمشي السطرى مشية التجبير أو فيخمان القرية الكبير^(٧٨)

ولا يظهر الأثر العميق لبيئة الحضرة في مكان أكثر منه في أوصاف الشاعر الدقيقة حيث تترج الألوان ولمود في أشكال حية كما يبدو في صورته عن تكوين السراب :

ونسجت لوامع الحرور

برقرقان آلهما المسجور سياباً كسرق الحرير^(٧٩)

وتدخل الألوان المشرقة وشباب البراقة في الوصف كما قال في وصف الثور .

حتى إذا ما إن جلا الجلي

٧٦ ديوانه ٦٩ ،

٧٧ حقه ٢٩

٧٨ حقه ٣١

٧٩ ديوان العجاج ٢٧

عنه غدا واللون نوارى كأنه متوج رومي
عليه كتان وأخني أو مقول توح حميري^(٨٠)

وم تكن الحياة الحضرية مجرد أداة سعت الحياة في صور انبادية ولكنها أيضاً
غاية في نفسها يستمتع بها لذاتها. ولا يظهر أثر حياة النصرة على جرير في سببه
لرقيق فحسب. بل يبرز بشكل أوضح في وصفه للحضريات كما جاء في قوله
عن إحداهن :

جارية من ساكني الأسواق لباسة للقمص الرقاق
أبغض ثوبها إليها الباقي تأكل من كيس امرئ وراق
قد وثقت إن مات بالنفاق فهو عليها هين الفراق
تضحك عن ذي أثر براق كالأقحوان اهتر في البراق^(٨١)

وصورة جرير هذه تؤكد النتيجة التي توصل إليها موطبه نمرودق حين قال :
قلت إن الحواريات معطبة إذا تَعَتَّلْنَ من تحت الجلابيب^(٨٢)
والحواريات هن فانات المدن البيضاء .

وقد تركت حياة نصرة التجارية أثراً ضعيفاً على التركيب الشعري، ويستطع
لناحت أن يعثر على بعض الأبيات التي يبرز فيها هذا الأثر كقول جرير مفرغ :
وأقمتمو سوق الناء ولم تكن سوق الناء تقام في لأسواق^(٨٣)
وقد استخدم رؤية الاصطلاحات التجارية حين تحدث عن اشب في قوله :
فليت أيام الصبا عواكرا وليت مبتاع الشباب التاجرا

٨٠ عه ٧٠

٨١ ديوان جرير ٣١٠

٨٢ ديوان الفرزدق ٢٣/١ ؛ وانظر ٢١٠/١ - ٢١١ لصورة حميلة عن فتاة أخرى

٨٣ ابن حلكن: وفيات الأعيان ٢٨٩/٥ .

يعطيه حكراً قل أن يحاكراً في لبيع لو ردة الشيب الباضر^(٨٥)
ولكن الشاعر يعلم أن ذلك محال، وعبر عنه بقوله :
الشيب لا سوق له إن سوقا^(٨٥)
ولو حدث فقيه غبن :

والشيب لو يباع بالتسممر للتاجر المبتاع شر منجر^(٨٦)

وكان تطويع الشعر لتعبير عن الحياة في جوانبها المتعددة نتيجة لقدرات فنية فائقة. وعرق كثير سفتح تحت عرائس الشعر أو شيطينه، ونشقة التي يتكبدتها الشاعر في نضم - وقد ذكرت الروايات عن الفرزدق لكثيره في هذا المحال^(٨٧) - تكرر مع الاعتزاز الذي يويه فيه. فقد قال الفرزدق مرة إن شعره يهوى شعر أساتذته الخديين^(٨٨) والنواقع أنه لم يكن لشعره الخير في تحريد أدوت فنهم بحيث يصح أن نقول أنهم كانوا «محترقي» شعر. فقد كان عصر عصر احترام وتخصيص في العموم وعلوم وكان عليهم أن يعالجوا فهم كصناعة معقدة تحتاج لمهارات عديدة يسدها الجهد والموهبة. وقد عبر ذو الرمة عن بعض هذا في قوله :

وشعر قد أرقى له عريب أحسه مساند واحمالا
فيت أقيمه وأقيد منه قواني لا أعد لها مثالا
غرائب قد عرقن بكل أرض من الآفاق تفتعل افتعالا^(٨٩)
وقد قارب رؤية كثيراً بين فن الشاعر ومهارة السامع الوحيد فقال مرة .

٨٤ ديوان رؤية ٥٦ .

٨٥ نفسه ١٠٩ ، واطر ٣٠ .

٨٦ نفسه ٥٧ .

٨٧ انظر العسكري: ديوان المعاني ١١٣/١ ، الممددة ٢٠٤/١ ، ٢٠٧ .

٨٨ ديوان الفرزدق ١٤٢/٢ .

٨٩ ديوان ذي الرمة ٤٤٠ - ١ ، واطر ١٦٨ - ٩ .

إني وكنت الشاعر المستنطقا أنسج نسج الصنع المحققا
تحييره والخسروان الأعنقا^{٩٠}

وصور نفسه في مناسبة أخرى نساجاً منسجه الدفتر :

ما أنا بالفاني ولا المغمر أنسج نسج الصنع المحبّر
كيف تراني أتحي في الدفتر على قضيب الذاهبات الشبر^{٩١}

ومن حجب آخر كان هذا الاحتفال بالتجويد والاهتمام بلالغ باسم يعكس
مستوى العالي لدى نفع الجمهور المتلقى في مجال التذوق والنقد. فقد كان كثير
من الحلفاء والأمراء والأشراف الذين يحيطون بهم بقلة الشعر حيرين بحيدته،
وكان على الشعراء الذين يتوجهون إليهم بالشعر أن يبدلوا من ذات أنفسهم وفهم
الكثير قبل أن يحوزوا على رضاهم^{٩٢}.

وقد دفعت الحاجة لإرضاء أصفوة في المجتمع - ولتي كانت تصنع للناس
المقاييس اللغوية والنصية بالإضافة إلى ما تقدمه من منافع مادية - للشعراء إلى
استهاج طرائق في تأليف الشعر نتج عنها صرب من الشعر كثيراً ما افتخر قائلوه
بأنه «عريب». وهذا اصطلاح يحجب التنبه إلى معناه الحقيقي في هذا الشعر. فهو
لا يرد في كثير من شعر حرير ولقرزدق وذو الرمة وغيرهم بمعنى الحوشي أو
موعل في الصعوبة، كما هو الحال في كثير من شعر الرجز، ولكنه يأتي بمعنى
«غير المؤلف أو غير المطروق»، أو بعبارة أخرى هو شعر مبتكر لم يقلد فيه
شاعره غيره. وبالتالي فهو حديث بمعنى novel في المصطلح الغربي الحديث.

٩٠ ديوان رؤية ١١٥.

٩١ نفسه ٦١، وانظر ٣٨، ابن قتيبة: كتاب المعاني ٨١٤/٢.

٩٢ انظر على سبيل المثال الموضح ٢١٥ - ٦ لرأي الوليد بن عبد الملك في شعر العجاج، ومن المصدر

١٧٨ - لقد ليل لشعر ذي الرمة، و ٢٣٩ لرد فعل عبد الملك بن مروان لقصيدته لذي الرمة،

والأعاني ١٤٠/١٨ نقابة مسلمة لأبي نحلة

وأبيات ذي الرمة السالفة في هذا المعنى تشفع لهذا التفسير .

وقد كنت هناك اعتبرت أخرى تدفع بأسلوب الشعر في اتجاهات أخرى. فقد لاحظنا في مجال آخر الاتجاه لتقسيم الشعراء إلى أولئك الذين يعجب بهم العامة والذين يعجب بهم الخاصة من العلماء والمتقنين^(٩٣) وقد أدى نقصان النظام الاجتماعي برور طبقة الصنوة في حاب وطبقة الجماهير البائسة التي كانت تقدم فصاحتها بسرعة أمام ضعف التطور الحضري في حاسب آخر إلى تعميق هذا الاتجاه، وكان أن بلغت بدوافع في هذا لسبيل مبلغاً من القوة في نهاية العصر الأموي بحيث فرضت على لشاعر الواحد أن يتخذ في شعره أسلوبين يتوجه بكل إلى الطبقة المعنية كما يبدو بوضوح في شعر بشار الذي كان يقول شعراً شعبياً عاماً حين يريد إبلاغ العامة، ويقول شعراً بارع الجودة والرصانة حين يخاطب الخاصة، ويقول في تحليل ذلك : نه لكل مقام مقال^(٩٤). وهذه الظاهرة لا تقتصر على شعر بشار والسيد الحميري بل نراها أيضاً في شعر لرحز المومل في المحافظة. فقد كان الرحز، تحت تأثير القصائد والوعاظ، يتصور ليصبح مرة أخرى أداة شعبية كما كان في أول المضائق وقبل أن يتطور في العصر الأموي. وقد تطوع الرحز تحت أيدي أبي نخيلة^(٩٥) ونعماني^(٩٦)، فأصبح أداة سهلة لتصوير تجارب الحياة اليومية ونماهاها المحسة. وقد كانت من علامات التطور الحضري دخول كثير من الألفاظ الممارسة في الشعر، ولم يحل شعر الفحول أمثال جرير والفرزدق^(٩٧) من ذلك، وإن كان الذين فتحوا المجال لهذا الاقتباس هم ابن مفرغ الحميري^(٩٨) والعماني^(٩٩).

٩٣ انظر الباب الثاني ص ٩٩ . الموشح ١٤٠ - ١ .

٩٤ الأعاني ٣٢/٣ ؛ وانظر البيهقي : تاريخ الشعر العربي ص ٣٣٣ وما بعدها .

٩٥ الأعاني ١٤٣/١٨ - ١٥٠ .

٩٦ من شعر طبقات ١٠٩ - ١١٤ ؛ الأعاني ٧٨/١٨ - ٨٢ ؛ البيان والتبيين ٤٨/١ + ١٣٩ .

٩٧ القلائص ٣٣٤ ، ٧٨٧ ، ٨٤٥ ، ٨٦٨ ؛ ديوان الفرزدق ٨٣/١ ، ١٧٨ ، ٢٨١ .

٩٩ ص ٩٩

٩٨ البيان ١٣٢/١ .

مراجع الكتاب

لمصادر العبرية

- ابن الأثير (ضياء الدين) . الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (بغداد ١٩٥٦) .
- ابن الأثير (عز الدين) . الكامل في التاريخ (لايدن ١٨٦٧ - ١٨٧٤) .
- اللُّباب في تهذيب الأنساب (القاهرة ١٣٥٧ هـ) .
- ابن الأنباري (أبو الدركات) : نزعة الألباء في طبقات الأدباء (تحقيق السامرائي، بغداد، ١٩٥٩) .
- س جني . سر صناعة الإعراب (القاهرة ١٩٥٤ م) .
- الخصائص (القاهرة ١٩٥٤ م) .
- المنصف (القاهرة ١٩٥٤ م) .
- بن حجر لعسقلاني : تهذيب التهذيب (حيدر آباد ١٣٢٥ هـ) .
- بن حوقل . كتاب المسالك والممالك (لايدن ١٨٧٣ م) .
- بن حلكان . وفيات الأعيان (بولاق ١٢٩٩ هـ) .
- بن دريد . الاشتقاق (القاهرة ١٩٥٨ م) .
- س رشيق . العمدة (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٥ م) .

- ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى (لايدن ١٩٠٤ - ١٩١٥ م) .
- ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء (تحقيق شاكر، القاهرة ١٩٥٢ م) .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد (تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٤٠ م)
- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب (القاهرة ١٣٥٠ هـ) .
- ابن المقببة : مختصر كتاب البلدان (لايدن ١٨٨٥ م) .
- ابن قتيبة : أدب الكاتب (القاهرة) .
- كتاب المعارف (القاهرة ١٩٣٥ م) .
- الشعر والشعراء (تحقيق شاكر القاهرة ١٣٦٤ - ١٣٦٦ هـ) .
- عيون الأخبار (برلين ١٩٠٠ م) .
- كتاب المعاني الكبير (تحقيق كرنكو، حيدر أباد ١٩٤٩ م) .
- كتاب البديع (تحقيق كراتشكوفسكي، لندن ١٩٣٥ م) .
- ابن المعتز : طبقات الشعراء المحدثين (القاهرة ١٩٥٦ م) .
- ابن منظور : لسان العرب (بولاقي ١٣٠٧ هـ) .
- ابن البديم : الفهرست (القاهرة ١٣٤٨ هـ) .
- أبو الأسود الدؤلي : ديوان أبي الأسود (تحقيق عبد الكريم الدجيلي، بغداد ١٩٥٤ م) .
- أبو زيد : النوادر في اللغة (بيروت ١٨٩٤ م) .
- أبو عبيد (القاسم بن سلام) : كتاب الأموال (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
- أبو عبدة : انظر بيمان .
- أبو عبيد الاصمعي : حلية الأولياء (القاهرة ١٩٣٢ - ٨) .
- أبو يوسف : كتاب الحراج (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
- إحسان عباس : شعر الحوارج (تحقيق، بيروت ١٩٦٤) .
- أحمد أمين : ضحى الإسلام (القاهرة ١٩٥٦ م) .
- الإصطخري : فجر الإسلام (القاهرة ١٩٤٥ م) .
- الإصمغاني (أبو الفرج) : كتاب المسالك والممالك (لايدن ١٨٧٠ م) .
- الأصمعي : كتاب الأغاني (١ - ٢٠ بولاقي، ٢١ لايدين ١٨٨٨ م) .
- فحولة الشعراء (تحقيق Torrey في ZDMG ١٩١١) .

- ص ٤٨٧ - ٥١٦ .
- الآمدي كتاب المؤلف والمحتلف في أسماء الشعراء (تحقيق كرككو القاهرة ١٩٣٥ م) .
- بشار بن برد ديوان بشار (تحقيق الطاهر بن عاشور القاهرة ١٩٥٠ م) .
- البغدادي (أبو بكر) تاريخ بغداد (القاهرة ١٩٣١ م) .
- البغدادي (عبد القادر) خزانة الأدب (تحقيق الميحي، القاهرة ١٣٤٧ هـ) .
- اليكري (أبو عبيد) معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٩ م) .
- اليكري (محمد توفيق) أراجيز العرب (القاهرة ١٣١٣ هـ) .
- بلا (شارل) الجاحظ (ترجمة إبراهيم الكيلاني - دمشق ١٩٦١ م) .
- البلاذري أنساب الأشراف (ج ٤ ب المقدس ١٩٣٨ م؛ ج ٥ ح القدس ١٩٣٦ م؛ ج ١١ لاينزج ١٨٨٣ م) .
- فتوح البلدان (بيروت ١٩٥٧ م) .
- البهيتي (نجيب محمد) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري (القاهرة ١٩٥٠ م) .
- بيفان نقائص جرير والقرزوق، جمع أبي عبيدة (لايدن ١٩٠٧ م) .
- اسيهقي المحاسن والمساوىء (أوروبا ١٩٠٢ م) .
- البعلي لطائف المعارف (القاهرة ١٩٦٠ م) .
- نخاحظ كتاب البهلاء (لايدن ١٩٠٠) .
- البيان والتبيين (تحقيق السندوبي، القاهرة ١٩٣٢ م) .
- كتاب التاج (القاهرة ١٩١٤ م) .
- كتاب الحيوان (القاهرة ١٩٠ - ١٩٠٦ م) .
- كتاب العثمانية (القاهرة ١٩٥٥ م) .
- ديوان جرير (بيروت ١٩٦٠ م) .
- الحوفي (أحمد محمد) أدب السياسة في العصر الأموي (القاهرة ١٩٦٠ م) .
- الخفاجي سرّ المصاحبة (القاهرة ١٩٥٣ م) .
- دائرة المعارف الإسلامية الأولى والثانية (الانجليزية) .
- الدينوري : الأخبار الطوال (لايدن ١٨٨٨ م) .

- ذو الرمة : ديوان ذي الرمة (كامبردج ١٩١٩ م) .
- الرازي (أبو حاتم) : كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية (القاهرة ١٩٥٧ م) .
- رؤبة : ديوان رؤبة (برلين ١٩٠٣ م) .
- الزبيدي : طبقات النحويين (تحقيق كركم) في مجلة
Rivista degli Studi Orientali, Rome VIII, 1919 pp. 107-156
- زكي (أحمد كمال) : الحياة الأدبية في مصر (دمشق ١٩٦١ م) .
- الزهيري (محمود غناوي) : نقائض جرير والمرزوق (بغداد ١٩٥٤ م) .
- السيرى : أخبار النحويين البصريين (تحقيق كركم ، بيروت ١٩٣٦ م)
- السيوطي : نفية الوعاة (القاهرة ١٩٠٨ م) .
- المزهر (طبعة صبيح القاهرة) : المزهري (طبعة صبيح القاهرة) .
- السياب (حمد) : تاريخ النقائض في الشعر العربي (القاهرة ١٩٥٤ م) .
- الشيبي : الجامع الكبير (القاهرة ١٣٥٦ هـ) .
- الصمدى : مكت الميمان (القاهرة) .
- الصوني : أدب الكتاب (القاهرة ١٣٤١ هـ) .
- كتاب الأوراق ، أخبار الشعراء (لندن ١٩٣٤ م) .
- ضيف (شوقي) : التطور والتجديد في الشعر الأموي (القاهرة ١٩٥٩ م) .
- : الفن ومذاهبه في الشعر العربي (القاهرة ١٩٦٠ م) .
- : تاريخ الأمم والملوك (لايدن ١٨٩٠ م) .
- : حديث الأرباء (القاهرة ١٩٥١ م) .
- : الفتن الكبرى : عثمان (القاهرة ١٩٥١ م) .
- : علي وبنوه .
- عبد الله الطيب : شرح أربع قصائد لذي الرمة (الحوظيم) .
- : المرشد لصناعة أشعار العرب (القاهرة وبيروت) .
- : ديوان المعراج (برلين ١٩٠٣ م) .
- المصون في الأدب (الكويت ١٩٦٠ م)
- : ديوان المعاني (تحقيق كركم ، القاهرة ١٣٥٢ هـ) .
- : كتاب الصناعتين (القاهرة ١٩٥٢ م) .
- : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة (بغداد ١٩٥٣ م)
- العلي (أحمد صالح)

- لفرزندق . ديوان الفرزدق (بيروت ١٩٦٠ م) .
 فك . العربية (ترجمة، القاهرة ١٩٥١ م) .
 فيصل (شكري) . المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (بيروت ١٩٦٦ م) .
 قدامة بن جعفر . نقد الشعر (لايدن ١٩٦٥ م) .
 القالي (أبو علي) . الأمالي، وذيل الأمالي (بولاق ١٣٢٤ هـ) .
 القلماوي (سهر) . أدب الخوارج (القاهرة ١٩٤٥ م) .
 المبرد . الكامل، شرح السيد علي المرصفي المسمى رغبة الأمل من كتاب الكامل (٨ أجزاء القاهرة ١٩٢٣ م) .
 المخزومي (مهدي) . مدرسة الكوفة (بغداد ١٩٥٥ م) .
 المرتضى (السيد) . الأمالي (القاهرة ١٩٠٧ م) .
 المرزباني . معجم الشعراء (القاهرة ١٩٦٠ م) .
 المرصفي . الموشع (القاهرة ١٣٤٣ هـ) .
 المسعودي . انظر المبرد .
 المقدسي . مروج الذهب (باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ م) .
 مصر س مراحم . التنبية والإشراف (لايدن ١٨٩٣ م) .
 الحويري . أحسن التقاسيم (لايدن ١٨٧٧ م) .
 حمادي . وقعة صفين (القاهرة ١٣٦٥ هـ) .
 وكيع . نهاية الأرب (القاهرة ١٩٢٣ م) .
 بركات . كتاب صفة جزيرة العرب (لايدن ١٨٨٤ م) .
 . أخبار القضاة (القاهرة ١٩٥٠ م) .
 . إرشاد الأريب (تحقيق مارقوليوث، القاهرة ١٩٢٣-١٩٢٥ م) .
 . معجم البلدان (لاينزج ١٨٦٦ م) .

المصادر الأجنبية

1. Barbier de Meynard : "Le Séid Himyarite", Journal Asiatique, No. iv, 1874, pp. 159-284.
2. Dennett : Conversion and the Poll-Tax in Early Islam, Harvard, 1950.
3. Goldziher : Abhandlungen zur Arabischen Philologie, Leiden, 1896.
- 4 : Memorial Volume, pt 1, ed, Slowinger, Budapest, 1948.
- 5 : Muhammedanische Studien, Halle, 1888-90.
6. Hell : "al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten", Z.D.M.G., Lix-Lx, 1905-6.
7. Hitti : History of the Arabs, London, 1963.
8. Levy : The Social Structure of Islam, Cambridge, 1962.
9. Løkkegaard : Islamic Taxation, Copenhagen, 1950.
10. Nallino : La Litterature Arabe, trans. Pellat, Paris, 1950.
11. Nicholson : A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1930.
12. Nöldeke-Schwally : Geschichte des Qorans, 1909
13. Pederson : "Qussas", Mélanges Goldziher, i, 233, 1948.
14. Pellat : Le Milieu Basrien et la formation de Cahiz, Paris 1953
15. Schaeder : "Hasan al-Basri", Der Islam, 1-83, xiv, (1925).

- 16 Watt, W. Montgomery Free will and Predestination London, 1948.
- 17 Islam and the Integration of Society
 London, 1961
- 18 Islamic Philosophy and Theology, Edin-
 burgh, 1927.
19. Wellhausen : The Arab Kingdom and its Fall, Calcutta
 1927.

٤٢	الموالي
٥٠	تحدرة
٥٢	الوعى المدني

الفصل الثالث

٥٧	الحياة الثقافية
٥٧	الإنجازات الدينية
٦٣	الدراسات اللغوية والنحوية
٦٦	الدراسات الأدبية

٧١ الباب الثاني

منزلة الشعر في مجتمع البصرة

الفصل الأول

٧٢	تفرد الشعر البصري
٧٥	غلبة التزارية
٧٧	الأمويون والشعر
٨٠	الشعر والقبائل
٨٣	الشاعر بين القبيلة والدولة

محتويات الكتاب

٥ الباب الأول مجتمع البصرة

الفصل الأول

٧	الحياة السياسية
٧	نقطة البداية
١٤	قبائل العرب بالبصرة
١٦	مقتل عثمان وآثاره
١٨	نظام الأحلاف القبلية
٢٢	العصر الأموي

الفصل الثاني

٣١	الحياة الاجتماعية
٣١	القبلية في إطار حضري
٣٥	نمو الجهاز الإداري
٣٩	أثر البادية وخراسان
٤١	القراء

١٤٩

الباب الرابع

الشعر والدولة

الفصل الأول

١٥١ الشعراء والخلافة

الفصل الثاني

١٦٩ الشعراء والولاء

الفصل الثالث

٢٠٣ الشعراء وضمير الشعب

٢١٥

الباب الخامس

الشعر والتحول الاجتماعي

الفصل الأول

٢١٧ بين الجاهلية والإسلام

الفصل الثاني

٢٤٩ تأثير الإسلام

الفصل الثاني

٩٧	الشعر والشعراء
٩٧	الرواج الشعبي
١٠١	سيرورة الشعر وروايته
١٠٨	العلاقات بين الشعراء

١١٥

الباب الثالث

الشعر والحياة القبلية

الفصل الأول

١١٧	فن النقائص
١١٧	فن بصري
١١٩	مقدمات الخصومات الشعرية
١٢٥	الخصومات الشعرية تنتقل الى المصر

الفصل الثاني

١٣٣	عصر جرير والفززدق
١٣٤	الصراع داخل القبيلة
١٤٣	القبيلة على القبائل والأحلاف الكبرى

الفصل الثالث

المظاهر الحضارية ٢٦٧

الفصل الرابع

الموالي ٢٨٣

٢٩٧ الباب السابع

الشعر والوسط الثقافي

الفصل الأول

الشعر والتحول الثقافي ٢٩٩

الفصل الثاني

البيئة وشكل الشعر ٣٢٣

مراجع الكتاب ٣٤٣